ISSN: 2170-0583

جامعة مولود معمري، تيزي-وزو

مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر

الممارسات اللغوية

مجلة أكاديمية محكّمة

العدد : 27 / 2014

العدد : 27 / 2014

الممارسات اللغوية

تصفيف و إخراج دار الأمل

مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر

Revue académique indexée

جامعة مولود معمري، تيزي-وزو

مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر

ISSN: 2170-0583

جامعة مولود معمري– تيزي– وزو
مخبر الممارسات اللغوية

مجلة

الممارسات اللغوية

العدد السّابع والعشرون (27)
2014

ISSN : 2170-0583

مخبر الممارسات اللغوية

جامعة مولود معمري – تيزي– وزو

الجزائر

الهاتف: 00 14 41 026

الناسوخ: 00 14 41 026

البريد الإلكتروني: laboling@yahoo.fr

الهيكل الإداري للمجلّة

ـــ **المدير الشّرفي:** أ. د ناصر الدين حناشي؛

ـــ **مدير المختبر:** أ. د صالح بلعيد؛

ـــ **رئيسة التّحرير:** الجوهر مودر؛

ـــ **هيأة التّحرير:** محمد الأمين خلادي، فتيحة حدّاد، حياة خليفاتي، علجية أيت بوجمعة، عيني بطوش، ريش بوثلجة، علجية أوطالب.

ـــ **الهيأة الاستشاريّة:**

- محمد العربي ولد خليفة: رئيس البرلمان الجزائري؛
- أبو عمران الشيخ: رئيس المجلس الإسلامي الأعلى في الجزائر؛
- عبد الرحمان الحاج صالح: رئيس مجمع اللغة العربية الجزائري؛
- محمود فهمي حجازي: رئيس جامعة نور مبارك في طشقند؛
- محمود أحمد السيد: نائب رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق؛
- سالم شاكر: باحث في المازيغيات في inalco بفرنسا؛
- وفاء كامل فايد: أستاذة اللغويات في جامعة القاهرة؛
- علي القاسمي: خبير في الأسيسكو وباحث في المصطلحات والمعاجم؛
- عبد السلام المسدي: أستاذ كرسي في جامعة تونس؛

- Valérie Orlando, Professor,University of Maryland, U.S.A.
- Kathryn Lafever,Professor, University of Miami,U.S.A.
- Zerar Sabrina, Maitre de conférences, University of Tizi-ouzou, Algiers.

ـــ **المدير الفنّي: أ د صلاح يوسف عبد القادر.**

مجلّة الممارسات اللّغوية

مجلّة الممارسات اللّغوية مجلّة علمية عالمية محكّمة

قواعد النّشر في المجلة

1 ــ مجلة **(الممارسات اللغوية)** لسانُ حال المختبر، فتستقبل كلّ الأبحاث/ المقالات/ التحقيقات/ سبر الآراء/ بيانات التسائيل/ حصائل الاستبانات... ذات العلاقة بالممارسات اللغوية؛

2 ــ ترحّب المجلة بكلّ من يرغب نشر بحثه الذي يدخل في إطار اختصاص المجلة (الممارسات اللغوية)؛

3 ــ تنشر المجلة في طيّ أوراقها ملفات خاصة حول موضوع واحد، كما تنشر موضوعات متخصّصة في عنوان مستقل عن المجلة، يصدر في شكل كتاب متخصّص؛

4 ــ تَنْشر مجلةُ **(الممارسات اللغوية)** البحوثَ المكتبية والدراساتِ الميدانيةَ والنّصوصَ المحقّقةَ أو المترجمةَ أو مراجعاتِ الكتب المتعلّقةِ بالعربية وآدابها؛

5ــ يقدّم البحث في صورة ورقية، يذكر الباحث: اسمه ولقبه ودرجته العلمية والمؤسّسة التي ينتمي إليها، أو المهنة التي يمتهنها؛

6ــ تُرسَل البحوثُ إلى رئيس تحريرِ مجلة **(الممارسات اللغوية)** بجامعة مولود معمري بتيزي وزو في نسخة ورقة بريدية مصحوبة بنسخة قُرصية، أو تُرسَل عن طريق بريد المخبر الإلكتروني وهو laboling@yahoo.fr

7ــ تَنْشر المجلّةُ البحوثَ الأصيلة المعدّة أصلاً باللغة العربية، كما تَنْشُر البحوثَ المحرّرةَ باللغاتِ: المازيغية والإنجليزية والإسبانية والفرنسية، شرط أن يتصدّرها ملخصٌ باللغة العربية؛

8 ــ تنشر المجلةُ البحوثَ ذات اختصاصِ المجلةِ في بُعدها العام؛ بعد أن تخضعَ للتحكيم ولا تردّ إلى أصحابها سواءٌ قُبلت أم لم تُقْبل؛

9 ــ يتولّى تحكيم البحث محكّمان أو أكثر حسب هيأة التحرير؛

10ــ يُشترَط في البحث المقدّم للنشر ألاّ يكون قد نُشِر سلفاً، إلاّ إذا كان البحثُ قد أضيف فيه نسخة مزيدة ومُنقّحة أو من الأبحاث التي تستحقّ النشرَ مرّة ثانية؛ على أن يشيرَ صاحبُه إلى مكان وتاريخ صدوره؛

11ــ كلّ بحثٍ منشورٍ في مجلة **(الممارسات اللغوية)** لا يُنشر في قناة أخرى إلاّ بالإشارة إلى أسبقية صدوره في هذه المجلة، ويشير إلى ذلك في صدر القناة التي ظهر فيها؛

12ــ يُكافأ صاحبُ البحثِ المنشور بخمسِ (5) نُسَخٍ من المجلة التي نُشِر فيها بحثُه؛

13ــ على صاحبِ البحث التقيّد بشروط استقبال البحث وهي:

- التقيّد بالمعايير العلمية والأكاديمية المُتعارف عليها من توثيق واستخدام للمصادر والرسوم، والتفريق بين التهميش للكتب والتهميش للمجلات، واستعمال علامات الوقف، وكلّ متعلّقات المنهجية...
- كتابة البحث بخط simplified Arabic ببنط 13؛
- طول الكتابة 24 بعرض 12؛
- توضع الرسوم والبيانات ضمن إطار 12 x 24؛
- المسافة بين السطور 1.0؛
- الهوامش في آخر البحث متسلسلة ومكتوبة آلياً، ببنط 12؛

14ــ يلتزم صاحبُ البحث بالتعديل حالةَ ما أقرّ المحكّمون نشرَه بشرط التعديل؛

15ــ الأبحاثُ المنشورة في مجلة **(الممارسات اللغوية)** تعبّر عن أصحابها ولا تعكس توجّهاتِ المختبر أو جامعة مولود معمري، أو وزارة التعليم العالي والبحث العلمي في الدولة الجزائرية؛

16ــ ترسل الأبحاث عن طريق البريد على العنوان التالي: السيد رئيس تحرير مجلة الممارسات اللغوية/ مخبر الممارسات اللغوية. جامعة مولود معمري. تيزي وزو. الجمهورية الجزائرية.

روابط الاتّصال:

ــ البريد الالكتروني: laboling@yahoo.fr

ــ الهاتف الثابت: 026213291

ــ الناسوخ: 026411400

الفهرس

كلمة العدد	9
تصدير.....	11
أنماط التراكيب الإسنادية التي تبنى بالمعارف (نماذج قرآنية). السيرة الذاتية للكاتب د/ محمد دلوم، جامعة المسيلة بالجزائر	13
التّضمين النّحويّ، أشكاله ودلالاته. أ. سليمان بوراس، جامعة المسيلة	51
سيرورة المعنى بين الاسم والمسمى في التراث النحوي العربي- رسالة البطليوسي أنموذجا- أ. حامدة تقبايث، جامعة تيزي وزو	73
دراسة لسانية في بنية الخطاب عند أحمد المتوكل أ. خليفي عبد الحق، جامعة أدرار	89
نشوة النص في البيت الأندلسي العتبات ومسالك التأويل د. نبيلة زويش، جامعة مولود معمري تيزي-وزو	101
ملامح العرفنية وعلاقتها بالتداولية الغرايسية أ. فليسي آمين، جامعة تيزي وزو	129
الحجاج والمغالطة في أدب المناظرة (مناظرة الحيدة والاعتذار أنموذجا). أ. مراد ليتيمي، جامعة بومرداس	143
أنماط الكلمة الروائية عند واسيني الأعرج فاجعة اللّيلة السّابعة بعد الألف أنموذجا أ. سيدعلي شطي، جامعة المدية الجزائر	169
التّصور المعرفي -السّلوكي لتأثير مشاهد العنف بالتّلفزة على سلوك الطّفل. د. عزيرو سعاد، جامعة مولود معمري تيزي-وزو	183

Le vocabulaire français dans une classe de langue kabylophone problèmes et perspectives, Siham Saïl, Université Mouloud Mammeri, Tizi-Ouzou	3
Knowledge, Authority, and Heroism in Edward Bellamy's Looking Backward 2000-1887, Hacene Benmechiche, Mouloud Mammeri University	13

كلمة العدد

يسرّنا أن نقدّم للقارئ الكريم العدد السّابع والعشرين من مجلّة الممارسات اللّغوية، وهي مجلّة يصدرها مخبر الممارسات اللّغوية في المجتمع الجزائري، أريد منها أن تكون منبرا لطرح الآراء العلميّة البنّاءة، ومناقشة القضايا المتعلّقة بواقع اللّغة العربية، بحثا وممارسة، وتضمّ أبحاثا نظرية تخصّ العلوم اللّغوية من الصّوتيات وعلم التّراكيب وعلم الدّلالة وعلم الصّرف والمعجمية والنّظريات اللّسانية الحديثة، وأبحاثا تطبيقية تخصّ اللّسانيات التّطبيقية وتعليميّة اللّغات والتّرجمة، والمصطلح ... وكلّ الجهود التي من شأنها أن تدفع بالدّراسات اللّغوية إلى الأمام، وتعكس جهود الباحثين الذين يولون دراسة قضايا الممارسات اللّغوية أهمية خاصّة.

وإذا كانت انطلاقتنا من واقع الممارسات في المجتمع الجزائري بكلّ شرائحه وفئاته، فذلك على سبيل التّمثيل فقط باعتباره عيّنة من عيّنات الوطن العربي، لذلك نسعى من خلال هذه المجلة إلى الاهتمام بالواقع اللّغوي العربي وأملنا أن تظلّ همزة وصل بين الباحثين والمؤسسات العلمية المهتمة بقضايا استعمال اللّغة العربية وطنيا وعربيا ودوليا، وتنال دعمهم جميعا.

رئيسة التّحرير

تصدير

يسرّنا أن نقدّم للقارئ الكريم العدد السّابع والعشرين من مجلّة الممارسات اللّغوية، وهي مجلّة يصدرها مخبر الممارسات اللّغوية في المجتمع الجزائري، أريد منها أن تكون منبرا لطرح الآراء العلميّة البنّاءة، ومناقشة القضايا المتعلّقة بواقع اللّغة العربية، بحثا وممارسة، وتضمّ أبحاثا نظرية تخصّ العلوم اللّغوية من الصّوتيات وعلم التّراكيب وعلم الدّلالة وعلم الصّرف والمعجمية والنّظريات اللّسانية الحديثة، وأبحاثا تطبيقية تخصّ اللّسانيات التّطبيقية وتعليميّة اللّغات والتّرجمة، والمصطلح ... وكلّ الجهود التي من شأنها أن تدفع بالدّراسات اللّغوية إلى الأمام، وتعكس جهود الباحثين الذين يولون دراسة قضايا الممارسات اللّغوية أهمية خاصّة.

وإذا كانت انطلاقتنا من واقع الممارسات في المجتمع الجزائري بكلّ شرائحه وفئاته، فذلك على سبيل التّمثيل فقط باعتباره عيّنة من عيّنات الوطن العربي، لذلك نسعى من خلال هذه المجلة إلى الاهتمام بالواقع اللّغوي العربي وأملنا أن تظلّ همزة وصل بين الباحثين والمؤسسات العلمية المهتمة بقضايا استعمال اللّغة العربية وطنيا وعربيا ودوليا، وتنال دعمهم جميعا.

رئيسة التّحرير.

أنماط التراكيب الإسنادية التي تبنى بالمعارف
_(نماذج قرآنية). السيرة الذاتية للكاتب

د. محمد دلوم

جامعة المسيلة بالجزائر

الأصل في الإخبار أن يكون بالمنكور عن المعروف، وكما أنّ الإخبار بالمعروف لا يفيد، كذلك الإخبار عن المنكور لا يفيد. ولذا كان الأصل في المبتدأ أن يكون معرفة، وفي الخبر أن يكون نكرة، ولكن الواقع اللغوي لا يجري دائما على ما يقتضيه لأصل، فقد يشترك المبتدأ والخبر في التعريف كما قد يشتركان في التنكير. وهذه الحالات التي تجري على غير الأصل لا شكّ أنّ هناك نظام يحكم بناءها. سنحاول في هذا المقال المتواضع التطرّق إلى التراكيب الإسنادية التي يخبر فيها عن المعرفة بالمعرفة، ثمّ نتجاوز ذلك للكشف عن العلاقات الإسنادية في توالي المعارف. وسنحاول قدر المستطاع أن تكون النماذج التركيبية المعتمدة في الدراسة قرآنية، وذلك لسببين اثنين: الأوّل أنّ التراكيب القرآنية هي أفضل ما نطق به اللسان العربي، وأنّ القرآن الكريم كما هو معجز في بلاغته ومختلف علومه معجز أيضا في نحوه. والثاني: أنّ النحو العربي ولد ونشأ في رحاب القرآن الكريم، ولولا القرآن ما كان للنحو وجود. والأشياء تكون في أبهى وأفضل حالاتها إذا كانت في موطنها الأصلي. وقبل تناول التراكيب اللغوية بالدراسة، نتطرّق في البداية إلى المعرفة، فنحدد تعريفها وأنواعها، وترتيب المعارف، لأنّ ذلك يساعدنا كثيرا في تحديد المعنى النحوي.

المعرفة

<u>تعريفها:</u> هي لغة مصدر عرف يعرف معرفة، وعرفانا، كقرأ يقرأ قراءة وقرآنا. أمّا في الاصطلاح اللغوي فقد حدّدت بتعريفات تتراوح بين التطابق أحيانا والتقارب أحيانا أخرى. فهي عند الزمخشري "ما دلّ على شيء بعينه"[1]. والمعنى نفسه نجده عند ابن الحاجب الذي عرّفها بقوله: "المعرفة ما وُضع لشيء بعينه"[2] ومن المتأخرين الذين عرفوها بما يطابق هذا التعريف، الغلاييني الذي عرّفها بقوله: "المعرفة اسم دلّ على معيّن"[3]. والتعريف نفسه نجده في معجم الشامل الذي جاء فيه أنّ "المعرفة اسم يدلّ على معنى معيّن، مثل عدنان، وحلب، وبردى وأنتم."[4] ويؤخذ على هذا التعريف أنّ من قال به لا يفرّق بين المعنى والذات، لأنّه ذكر أنّ المعرفة اسم يدلّ على معنى معيّن، وذكر أمثلة هي كلّها ذوات، فالمعروف عن الشيء المعنوي أنّه مجرّد لا يدرك بالحواس، وعدنان، ودمشق، وبردى وأنتم، كلّها من الذوات لأنّها تدرك بالحواس. أمّا الزمخشري فقد وظّف في تعريفه كلمة (شيء) التي تشمل المحسوس والمعنوي، وهي أنكر النكرات لأنّها تشمل الكلّ. ومن العلماء من أعرض عن التعريف واكتفى بذكر الأنواع، كابن السراج.[5] أمّا الثمانيني فيعرّفها بأسلوب تظهر فيه السمة الرياضية، وذلك من خلال توظيفه للفظ (واحد) الذي يقابل العدد اثنين، الذي يمثّل أدنى درجات التنكير، لأنّ النكرة ما دلّ على مسمّيين فصاعدا.[6] فقال: "ما خصّ الواحد من جنسه فهو معرفة."[7]

وما يلاحظ على التعاريف المتطابقة المشهورة أنّها تشترك في أهم شيء في تحديد المعرفة، وهو الدلالة على معيّن، والمعيّن الذي تدلّ عليه المعرفة نوعان:

1 ــ ما يتعيّن من الأسماء ويكتسب التعريف اعتمادا على الواقع: يكتسب الاسم التعريف من الواقع، إذا كان له في الواقع مسمّى واحد فقط. وربّما هذا ما يقصده الزمخشري بقوله: (ما دلّ على شيء بعينه)، والثمانيني بقوله: (ما خصّ

الواحد من جنسه). فلو كان مع زميلك قلم واحد فقط، وأردت أن تطلبه منه تقول له: (أعطني القلم)، بتعريف القلم، ولا يصحّ بتنكيره، لأنّ الواقع الذي جمعك به حين نطقت بالجملة، فيه قلم واحد فقط، هو الذي مع زميلك.

أمّا لو كان معه قلمان، وقلت له: (أعطني القلم) ــ بالتعريف ــ فإنّه قد يسألك: أيَّ قلم تريد؟ لوجود قلمين، لذا فالأصل في هذه الحالة أن تذكر القلم منكرا، فإذا أردت واحدا من القلمين، خصّصته بما يمتاز به عن غيره، سواء بالوصف أو الإضافة، كأن تقول على سبيل المثال: (هات القلم الأزرق)، أو: (هات قلم الرصاص)، أو أن تحدّده بالإشارة إليه، فتقول: (هات هذا القلم). وفي جميع هذه الحالات تذكر القلم معرّفا، لأنّه بهذا التحديد أو التخصيص صار اللفظ يدلّ على مسمى واحد فقط.

2 ــ ما يتعيّن من الأسماء ويكتسب التعريف استنادا إلى ذهن السامع: كما أنّه من معاني النكرة المنكور لدى السامع، كذلك من معاني المعرفة المعروف لدى السامع، فذهن السامع هو الأساس الذي يعتمد عليه في التعريف والتنكير. ومن المعارف التي يعتمد في تعريفها على ذهن السامع، المعرّف بـــأل العهدية، وهو معرفة لأنّ للسامع عهدا به. كأن يكون قد سبق ذكره، فيكون العهد هنا ذكريا ومثال ذلك كلمتا المصباح والزجاجة، في قوله تعالى: ﴿الله نور السمـــاوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنّها كوكب درّيّ ﴾[8]، فقد ذُكرت الكلمتان في الآية مرّتين، ذكرتا في المرّة الأولى نكرتين، لأنّه لا عهد للسامع بهما، أمّا في المرّة الثانية فذكرتا معرّفتين بأداة التعريف (أل) لأنّه قد صار للسامع بهما عهد ذكريّ. وقد يكون العهد حضوريا وذلك إذا كان مصحوب (أل) حاضرا أمام السامع أثناء الحديث، كقولك لمخاطبك: (ناولني الكتاب) إذا كان الكتاب أمامه. ومثاله في القرآن الكريم كلمة (اليوم) في

قوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾[9]. وهو اليوم الذي نزلت فيه هذه الآية وقد كان ذلك في حجّة الوداع. فقد روي عن عمر رضي الله عنه أنّه قال: كان ذلك عشية عرفة في يوم جمعة.[10]

ما يتنكر من المعارف: إذا وجد للاسم المعرفة أكثر من مسمّى واحد في الواقع صار نكرة، لأنّ المعرفة ما دلّ على واحد فقط والنكرة ما دلّ على أكثر من واحد أي ما دلّ على اثنين فصاعدا. [11]

والاسم العلم معرفة في الأصل لأنّه يدلّ على واحد بعينه، فإن دلّ على أكثر من واحد صار نكرة. ومن الحالات التي يدل فيها على أكثر من واحد ما يلي:

1 ــ في التثنية والجمع: فزيد وعمر مثلا، إذا ثنّيا أو جمعا يتنكّران، لذا تدخل عليهما (أل) التعريفية، أو يضافان، إذا أريد تعريفهما. كقولك: الزيدان، والعمران. وكقولك: علا زيدنا يوم القنا رأس زيدكم. [12]

2 ــ بعد (لا) النافية للجنس: تختص (لا) النافية للجنس بالدخول على أسماء الأجناس، وأسماء الأجناس نكرات، لأنّها لا تدلّ على معيّن. فلو دخلت (لا) النافية للجنس على اسم علم لصار اسم علم جنس نكرة، كقولك: لا عنترة اليوم للعرب. فأنت لا تقصد عنترة بن شداد، لأنّه مات منذ مدّة طويلة، ولا يمكن أن يبعث من جديد، ولكنّك تقصد أيّ بطل عربيّ، يحمل شجاعة وقوّة، وعبقرية عنترة القتالية كي يعيد للعرب عزّهم. ومنه قولهم: لا أبا حسن لها. [13]

ما لا يتنكّر من المعارف: المعرفة التي لا يعتريها التنكير، هي التي لا يمكن أن تدل بأيّ حال من الأحوال على غير معيّن، كاسم الإشارة الذي يتعيّن مدلوله بالإشارة إليه، والمشار إليه ما دام محدّدا، ومعيّنا بالإشارة إليه، فهو معرفة، حتّى ولو كان مثنّى أو جمعا. ومن المعارف التي لا يعتريها التنكير، نجد كذلك الضمائر، فهي تدلّ على معيّن لأنّ مدلولها معهود به، سواء أكان العهد ذكريا، كما

هو الحال بالنسبة لضمائر الغائب، لأنّها تعود على ما سبق ذكره، أو كان العهد حضوريا، بالنسبة لضمائر المتكلّم والمخاطب، لحضور مدلولهما أثناء الخطاب.

ويبدو أنّ قراديا قابوتشان في حديثه عن التعريف الأصلي، والتعريف المكتسب كان يقصد بالتعريف الأصلي التعريف الملازم والمتأصّل في الاسم، بحيث لا يمكن للمعرّف تعريفا أصليا أن يعتريه تنكير. وذكر من أمثلة ذلك، الضمائر، وأسماء الإشارة. ويقصد بالتعريف المكتسب، التعريف العارض، كالذي تفيده الأداة (أل) أو الإضافة. [14]

ترتيب المعارف: لقد كان اهتمام النحاة ــ قديما وحديثا ــ بالمعارف أكثر من اهتمامهم بالنكرات. ولا أدلّ على ذلك من تناولهم لدرجات التعريف، وترتيبهم للمعارف، ابتداء من الأعرف إلى ما دونه. ولم تحض النكرات بمثل هذا الاهتمام والدراسة. وإن دلّ هذا على شيء فإنّما يدلّ على أهمّية هذا الموضوع في الدرس النحوي. أي انّه إذا تعدّدت المعارف في التركيب للغوي ــ وكثيرا ما يحدث هذا ــ فإنّ معرفة الأعرف تساعد في تحديد المعنى النحوي للتركيب اللغوي.

يحدّثنا ابن يعيش عن ترتيب المعارف وآراء النحاة فيه بقوله: "اعلم أنّ المعارف وإن اشتركت في أصل التعريف، فهي تتفاوت في ذلك، فبعضها أعرف فكلّما كان الاسم أخصّ كان أعرف. وقد انقسموا في القول بأعرف المعارف بحسب انقسام المعارف، فقال قوم: أعرف المعارف المضمر، ثمّ الاسم العلم، ثمّ المبهم، ثمّ ما فيه الألف واللام. واحتجّوا بأنّ المضمر لا اشتراك فيه لتعيينه بما يعود إليه ولذلك لا يوصف ولا يوصف به. وليس كذلك العلم فإنّه يقع فيه الاشتراك، ويميّز بالصفة. وذهب آخرون إلى أنّ الاسم العلم أعرف المعارف، ثمّ المضمر، ثمّ المبهم، ثمّ ما عرّف بالألف واللام وهو مذهب الكوفيين، وإليه ذهب أبو سعد السيرافي. واحتجوا بأنّ العلم لا اشتراك فيه في أصل الوضع وإنّما تقع

الشركة عارضة، فلا أثر لها. قالوا: والمضمر يصلح لكلّ مذكور، فلا يخصّ شيئا بعينه، وقد يكون المذكور قبله نكرة، فيكون نكرة أيضا على حسب ما يرجع إليه ولذلك تدخل عليه (ربّ) من قولهم: (رُبّهُ رجلا). وذهب قوم إلى أنّ المبهم أعرف المعارف، ثمّ المضمر، ثمّ العلم، ثمّ ما فيه الألف واللاّم. وهو رأي أبي بكر السرّاج. واحتجّ بانّ اسم الإشارة يتعرّف بشيئين، بالعين والقلب، وغيره يتعرّف بالقلب لا غير."[15]

ثمّ يعلّق على هذه الآراء، مبتدئا بآخرها، وهو رأي ابن السرّاج الذي يرى أنّ المبهم أعرف المعارف، فيقول فيه: "وهو ضعيف لأنّ التعريف أمر راجع إلى المخاطب دون المتكلّم، وذكره يرجع إلى معرفة المتكلّم، وأمّا المخاطب فلا علم له بما في نفس المتكلّم. والمذهب الأوّل وعليه الأكثر وهو مذهب سيبويه.. . وأمّا قولهم: إنّه قد يعود إلى نكرة فيكون نكرة. فنقول: لا نسلّم أنّه يكون نكرة، لأنّا نعلم قطعا من عني بالضمير. وأمّا دخول (رُبّ) عليه في (رّبّهُ) فهو شاذّ مع أنّه يفسّر ما بعده، فصار بمنزلة النكرة المتقدّمة. والأسماء الأعلام أعرف من أسماء الإشارة، لأنّ الأعلام توصف ولا يوصف بها، وذلك دليل على ضعف التعريف فيها، ولذلك قلنا بانحطاط تعريفها عن المضمرات. وأسماء الإشارة توصف ويوصف بها. والصفة لا تكون أخصّ من الموصوف، وجواز الوصف بالاسم ووصفه مؤذّن بوهن تعريفه وضعفه. ألا ترى أنّك إذا قلت: (زيد الطويل) فالطويل أعمّ من زيد وحده، لأنّ الطويل كثير، وزيد أخصّ من الطويل. وأسماء الإشارة أعرف ممّا فيه الألف واللاّم لما ذكرناه. فالألف واللاّم أبهم المعارف وأقربها إلى النكرات، ولذلك نعتت بالنكرة كقولك: (إنّي لأمرّ بالرجل غيرك فينفعني، وبالرجل مثلك فيعطيني)لأنّك لا تقصد رجلا بعينه. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم﴾. جعل (غيرا) نعتا

لـــ(الذين)، وهي من مذهب الألف واللام التي لم يقصد بها شيئا بعينه. ويدلّ على ذلك أنّ من المعرّف بالألف واللام ما يستوي في معناه مع ما فيه الألف واللاّم وما لا لام فيه، نحو: شربت ماء والماء. وأكلت خبزا والخبز. ولذلك امتنع أن ينعت ما فيه اللف واللاّم بالمبهم."[16]

يريد بقوله: (شربت ماءً والماءَ)، أي: (شربت ماءً)، و(شربت الماءَ) بمعنى واحد. وكذلك بالنسبة لـــ(أكلت خبزا والخبز).

ولا شكّ أنّ الرأي الأوّل، والذي ينسب إلى سيبويه، هو أهم هذه الآراء لأنّ عليه جمهور النحاة. يتصدّر ترتيب المعارف فيه الضمير، فالعلم، فالمبهم، ويختم بما فيه الألف واللاّم. ويقصد بالمبهم اسم الإشارة، يفهم ذلك من كلام ابن عصفور حيث قال: "وأعرف المعارف المضمر، ثمّ العلم، ثمّ المشار إليه، ثمّ ما عرّف بالألف واللاّم، ثمّ ما أضيف إلى واحد من هذه المعارف. هذا مذهب سيبويه رحمه الله."[17] وعليه كثير من النحاة قديما وحديثا، تجده ــ على سبيل المثال ــ عند الأنباري في الأسرار[18]، وابن هشام في شرح قطر الندى[19]، والإمام يحيى بن حمزة العلوي في الطراز[20]، وعبّاس حسن في النحو الوافي، الذي أضاف اسم الجلالة على رأس القائمة، وأضاف النكرة المقصودة بالنداء وجعلها مع اسم الإشارة في درجة واحدة، كما أضاف الاسم الموصول وجعله في درجة واحدة مع المعرّف بأل. فاجتمع له من المعارف سبعة أنواع، فإذا أضفنا لها المضاف إلى معرفة، الذي تختلف درجة تعريفه باختلاف المضاف، يكون عدد المعارف ثمانية.[21]

والعدد نفسه نجده عند السيوطي الذي ذكر أنّ "المعارف سبعة أنواع: المضمرات، والأعلام، وأسماء الإشارة، والموصولات، وما عرّف بالألف واللاّم وما أضيف إلى واحد من هذه الخمسة، والنكرة المتعرّفة بقصد النداء. وزاد قوم

أمثلة التأكيد: أجمعون، وأجمع، وجمعاء، وجمع. وقالوا إنّها صيّغ مرتجلة وضعت لتأكيد المعارف. "[22]

وهذا الرأي الذي يقدّم الاسم العلم على اسم الإشارة، على الرغم من كونه رأي الجمهور، ومع ذلك فيه نظر. لأنّ الإشارة تحدّد المشار إليه، فلا يشاركه أحد، أمّا الاسم العلم فقد يقع على أكثر من واحد. وفي الحديث: (اللّهمّ أعزّ الإسلام بأحد العمرين). لذلك نجد من النحاة من يجعل اسم الإشارة أعرف المعارف، كما نجد في الرأي الثالث الذي نسبه ابن يعيش إلى ابن السرّاج. الذي أعطى ــ في اعتقادنا ــ اسم الإشارة أكثر من حقّه، حينما جعله يتصدّر المعارف. "أمّا الفرّاء فالمشار عنده أعرف من العلم. يستدلّ بأنّ المشار يعرف بالقلب والعين، والعلم إنّما يعرف من جهة القلب خاصّة، وما يعرف من جهتين أعرف مما يعرف من جهة واحدة. وأيضا أنّه إذا اجتمع المشار والعلم فالعرب تقدّم المشار على العلم، فتقول: (هذا زيد)، ولا تقول: (زيد هذا). "[23] وهذا التعليل الأخير هو الذي يجب أن نقف عنده ونعطيه حقّه من التأمّل، لأنّه ــ في رأينا ــ تعليل نحوي. لأنّه إذا صحّ قولك: (هذا زيد)، أو قالته العرب، ولم يصح قولك: (زيد هذا)، أو لم تقله العرب، فهذا معناه بلغة النحو ومنطقه، أنّك تخبر عن اسم الإشارة بالعلم، ولا يكون العكس، أي لا تخبر عن العلم باسم الإشارة. وإذا كانت القاعدة تقول: إذا اشترك المبتدأ والخبر في التعريف فالأعرف هو المبتدأ. فإنّ هذا ينتهي بنا إلى أنّ اسم الإشارة أعرف من العلم. ونشير هنا إلى أنّ الاحتكام إلى ما درج على ألسنة العرب، هو الذي يكون في مثل هذه المواضيع.

ولدراسة هذه الآراء ينبغي التركيز على مصطلحين اثنين لتحديد مدلولهما، هما (المبهم)، و(المعرّف بـــ(ال). بالنسبة للمبهم: يراد به في تلك الآراء المذكورة اسم الإشارة. والحقيقة أنّ المعارف المبهمة ثلاثة أنواع: اسم الإشارة والاسم الموصول

واسم الشرط، أعرفها اسم الإشارة، وأقلّها تعريفا الاسم الموصول، وهما الأكثر أهمّية في موضوعنا لأنّ كلاّ منهما يرد في الجملة الاسمية مسندا ويأتي مسندا إليه أمّا اسم الشرط فهو إذا كان طرفا في الجملة الاسمية فهو دائما مسند إليه (مبتدأ) ولا يأتي خبرا أبدا.

أمّا بالنسبة للمعرّف بـــ(أل) فهو أيضا أنواع، يتنوّع بتنوّع (أل) المتّصلة به وتختلف درجة تعريفه باختلافها. فمصجوب (أل) العهدية أعرف من مصحوب (أل) الموصولية التي تختص بالدخول على المشتقات، كالخالق، والرزّاق والسميع. أي: الذي يخلق، والذي يرزق، والذي يسمع. ويأتي مصحوب (أل) الجنسية في المرتبة الأخيرة، ومنهم من يعتبره نكرة، أو يعامله معاملة النكرة ويرى بجواز إعراب الجملة بعده حالا مراعاة للشكل، أو صفة مراعاة للمضمون. وربّما هذا ما جعل ابن الحاجب يعتبر ذي اللام في رتبة واحدة مع الاسم الموصول في ضعف التعريف، ويرى أنّ ضعف التعريف هذا جعله أحيانا يعامل معاملة النكرة واستشهد بكلمة (الذئب) في قوله تعالى: ﴿قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنّا إذا لّخسرون ﴾[24]، وذكر أنّها نكرة لأنّها لا تدلّ على ذئب معيّن. [25]

ونحن إذا أخذنا بعين الاعتبار كلّ هذه الآراء، وحاولنا التوفيق بينها، فإننا نحصل على الترتيب التالي: الضمير، فاسم الإشارة، فالعلم، فالمعرّف بـــ(أل) فالاسم الموصول.

أحقّية الضمير في تصدّر قائمة المعارف واضحة، فهو أعرف المعارف لأنّه لا يوصف ولا يوصف به، كما أنّه يخبر عنه ولا يخبر به، أي أنّه في الجملة اسمية يأتي دائما مبتدأ، ولا يأتي خبرا أبدا. أمّا اسم الإشارة فكونه يوصف بغيره، جعله يأتي في المرتبة الثانية بعد المضمر، ومن مواطن وصفه قوله تعال: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾[26]، يجوز في لفظ الكتاب أن يعرب خبرا للمبتدأ (ذلك)

أو صفة له،[27] وتكون جملة: (لا ريب فيه) خبرا أوّلَ، وجملة (هدى للمتقين) خبرا ثانيا.

وفي الترتيب المنسوب إلى الكوفيين وأبي سعد السيرافي، نجد العلم أعرف المعارف، والذي حملهم على هذا هو مراعاتهم لأصل الوضع، فالعلم وُضع في الأصل ليدلّ على مسمّى معيّن، ولكننا في الواقع نجد جلّ الأعلام لها أكثر من مسمّى، لذلك توصف، وتبدل ويبدل منها، تصف العلم فتقول: (جاء زيد الطويل) وتجعله مبدلا منه فتقول: (روى أنس بن مالك...)، فابن مالك بدل من أنس. وتجعله بدلا فتقول على سبيل المثال في تعريف المتنبّي: (هو أبو الطيب أحمد المتنبّي)، فأحمد بدل من أبي الطيّب، وهكذا. ونحن إذا راعينا الواقع ــ وهو أمر حتمي، لأنّه لا يمكن عزل اللغة عن الواقع ــ فإننا نجد العلم في المرتبة الثالثة بعد المضمر واسم الإشارة. وهذه المعارف الثلاثة تعريفها أصلي غير مكتسب ويجعلها قراديا قابوتشان في الطبقة الأولى من المعارف.[28] ويأتي مصحوب (أل) التعريفيّة في المرتبة الرابعة، أمّا المرتبة الخامسة والأخيرة فهي من نصيب الاسم الموصول، ودليل تأخّره عن كل المعارف، أنّها جميعها توصف به، ولا يوصف بأيّ منها، كما يخبر به عن كل المعارف، ولا يخبر عنه بمعرفة.

ومما يدل على ضعف التعريف في الاسم الموصول، أنّك تجده أحيانا يعامل معاملة النكرة. كأن يوصف بالنكرة، كما في قوله تعالى: ﴿ اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم﴾[29]. حيث وُصف الاسم الموصول (الذين)بـــ(غير)، وهي من النكرات التي لا تعرّف، حتّى لو أضيفت إلى معرفة، كما هو الحال في الآية، والذي جعلها نكرة لا تعرّف، أنّها لا تدلّ أبدا على واحد معيّن، فدلالتها تستقطب داما أكثر من واحد.

وقد توصف به النكرة، كما في الحديث الذي رواه جابر بن عبد الله ــ رضي الله عنهما ــ عن النبيّ ــ صلى الله عليه وسلّم قال: ((من قال حين يسمع النداء: اللهمّ ربّ هذه الدعوة التامّة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته، حلّت له شفاعتي يوم القيامة))[30]. الشاهد هو قوله: (وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته)، حيث جعل الموصول (الذي) صفة للمقام المحمود، والذي سوّغ هذا أنّ لفظ (مقاما) لمّا وُصف بلفظ محمود، أصبح نكرة غير محضة، أي قريبة من المعرفة. والاسم الموصول أضعف المعارف تعريفا فحدث تقارب بينهما إلى درجة تسمح بمعاملتهما معاملة واحدة.

وإذا تأمّلت قوله تعالى: ﴿إنّ أوّل بيت وُضع للناس للّذي ببكّة ﴾[31]، تأكّدت من ضعف التعريف في الاسم الموصول، لأنّ في الآية إخبار عن النكرة (أوّل) بالاسم الموصول (الذي)، ومسوّغ الإخبار هنا أنّ النكرة خصصت مرّتين، مرّة بالإضافة بأن أُضيفت إلى لفظ بيت، ومرّة بالوصف، بأن وُصفت بجملة (وُضع للناس) فاقتربت كثيرا من المعرفة، بل صارت معرفة، لأنّ مدلول لفظ (أوّل بيت وضع للناس) يدلّ على شيء واحد، هو البيت الحرام. فالذي حدث هنا أنّ شدّة اقتراب النكرة من المعرفة بفضل التخصيص المزدوج ــ مرة بالإضافة وأخرى بالوصف ــ جعلها في حكم المعرفة، وأنّ ضعف التعريف في الاسم الموصول، سمح بمعاملته معاملة النكرة.

ونشير هنا إلى أنّ هذا التركيب النحوي الذي جاءت عليه هذه الآية، يمثّل نوعا من الإعجاز النحوي للقرآن الكريم، فهو في شكله إخبار عن النكرة بالمعرفة، وفي مضمونه إخبار عن معرفة بما دونه تعريفا.

وهذا التركيب الخارج في شكله عمّا تقتضيه القاعدة النحوية، حمل بعض النحاة على التقدير لفك الإشكال، فقالوا بوجود حذف في الآية، وأنّ التقدير: (لهو الذي

ببكة)، ليصبح الخبر جملة اسمية مكوّنة من الضمير (هو)الواقع في محل رفع مبتدأ، وخبره الاسم الموصول (الذي). وما دامت الجمل نكرات، وهي أنكر من النكرة المفردة، لأنّها يخبر بها فقط، فقد حُلّ الإشكال.[32] والحقيقة أنّ فتح باب التأويل واسعا، هو توسعة لباب الخلاف وتعقيد للنحو، وأنّ الاحتكام إلى ظاهر اللفظ ــ إذا أمكن الحال ــ أولى من اللجوء إلى التأويل.

ونشير في الأخير إلى أنّ عدم إدراج لفظ الجلالة ضمن المعارف، فلأنّه من أعرفها[33]، وله خصوصيته، ليس كمثله شيء، سبحانه وتعالى عن كلّ شبه أو شبيه.

التراكيب الإسنادية التي تبنى بالمعارف: التراكيب الاسمية التي تبنى بالمعارف هي الجمل الاسمية بنوعيها، أي الجمل الاسمية البسيطة، التي تكوّن من مسند ومسند إليه معرفتين. والجملة الاسمية المركّبة التي يكون المسند فيها جملة اسمية أي التي يخبر فيها عن معرفة بجملة اسمية، مثل: (الكذب عواقبه وخيمة). هذا التركيب الاسمي يتكوّن من ثلاثة أسماء، وتعدّد الاسناد فيه مرّتين، لأنّه جملة كبرى تضمّنت جملة صغرى، وهي: (عواقبه وخيمة)، وكل جملة هي تركيب اسنادي يتكوّن من مسند ومسند إليه. وإن شئت فصلت بين المضاف والمضاف إليه في المعرّف بالإضافة (عواقبه)، فاجتمع لك من الأسماء أربعة، تربطهم علاقتي إسناد وعلاقة إضافة.

الجملة الاسمية البسيطة: والأصل في الإخبار أن يكون بالمنكور عن المعروف، أي أن يكون المسند إليه معرفة، وحقّه أن يأتي أوّلا، والمسند نكرة وحقّه التأخير. ويمثّل هذا النمط التركيبي النموذج المثالي للجملة الاسمية مثل: (العلم نور) و(الجهل ظلام).

فإن اشتركا في التنكير، حُمل الأقل تنكيرا على المعرفة، فقام بوظيفة المسند إليه، وشغلت النكرة الضاربة في التنكير، أو الأكثر تنكيرا منصب المسند. ويظهر ذلك واضحا فيما يعرف بمسوّغات الابتداء بالنكرة، التي تعمل جميعها على التقليل من درجة تنكير النكرة المرفوعة على الابتداء. وقد أنهاها بعضهم إلى نيّف وثلاثين مسوّغا، ترجع كلّها إلى التخصيص أو التعميم. [34]

أمّا إن اشتركا في التعريف فالأعرف هو المسند إليه المرفوع على الابتداء والأقلّ تعريفا هو المسند المرفوع على الخبرية، فإن تعذّرت معرفة الأعرف، كان الأوّل مبتدأ والثاني خبرا. ويمكن حصر كلّ أنماط التراكيب الاسمية الإسنادية البسيطة ــ أو ما يعرف بالجمل الاسمية البسيطة ــ في الشكل الموالي:

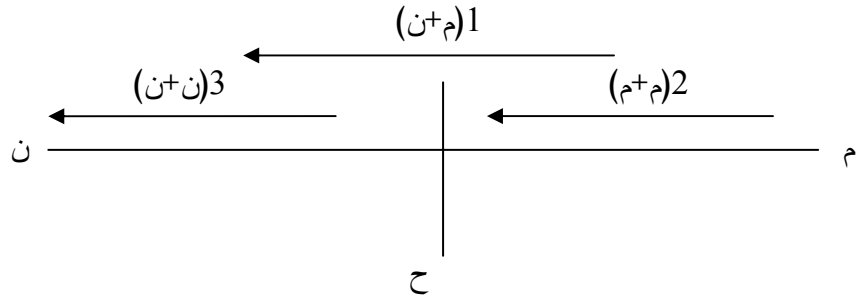

نرمز للمعرفة بـــ(م)، وللنكرة بـــ(ن). العمود (ح) يقطع المستقيم (م ن) في نقطة حيادية، تفصل بين المعارف والنكرات. (م ح) يمثل قسم المعارف، وترتب المعارف من الأعرف إلى الأقل تعريفا، من (م) إلى (ح)، أي كلّما اقترب الاسم من (م) كان أكثر تعريفا، وكلّما اقترب من (ح) كان أقل تعريفا. كما يكمن ترتيب النكرات على امتداد (ح ن)، بحيث كلّما اقترب الاسم من (ن) ازدادت نسبة تنكيره وكلّما اقترب من (ح) قلّت نسبة تنكيره.

النمط الأوّل وهو (م+ن) يرمز به للنموذج المثالي للجملة الاسمية البسيطة ويتكوّن من مبتدأ معرفة وخبر نكرة،. ويدلّ السهم الذي ينطلق من جهة المعارف إلى جهة النكرات، على أنّ الأصل في هذا النمط أنّه يتكوّن من مبتدأ معرفة مذكور أوّلا، وخبر نكرة مذكور ثانيا، مثل: العلم نور.

والنمط الثاني (م+م) يرمز به للجملة الاسمية البسيطة التي يشترك طرفا الإسناد فيها في التعريف، ويشير السهم الذي يمتد من (م) إلى (ح) أي من الأعرف إلى الأقل تعريفا، على ضرورة أن يكون المبتدأ أعرف من الخبر، كما في قوله تعالى: ﴿قالوا أءِنّك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا إنّه من يتّق ويصبر فإنّ الله لا يضيع أجر المحسنين﴾[35]. وقد اشتملت الآية الكريمة على ثلاث جمل من هذا النمط، الأولى هي: (أنت يوسف)، والثانية: (أنا يوسف)، والثالثة: (هذا أخي). وفي الجمل الثلاث المبتدأ أعرف من الخبر، في الأولى والثانية المبتدأ ضمير والخبر اسم علم، وفي الثالثة المبتدأ اسم إشارة والخبر معرّف بالإضافة. وقد رأينا في ترتيب المعارف أنّ المجموعة الأولى التي تضمّ أعرف المعارف تضمّ الضمائر وأسماء الإشارة، ثمّ تأتي بقية المعارف في المرتبة الثانية أو الثالثة.

والنمط الثالث (ن + ن) يرمز به للجملة الاسمية البسيطة التي يشترك طرفا الإسناد فيها في التنكير، ويدل السهم لذي ينطلق من (ح) إلى (ن)، أي من الأقل إلى الأكثر تنكيرا على ضرورة أن يكون المبتدأ أقل تنكيرا من الخبر، كأن يكون المبتدأ مخصصا بوصف، كما في قولك: (سوداء ولود خير من حسناء عقيم)، أو بإضافة كما في قولك: (كلّ أخ محبوب). ومن أمثال العرب: (كلُّ ذاتِ صدارٍ خالةٌ).

لاشك أنّ النمط الذي يهمّنا، والذي نحن بصدد دراسته هو النمط الثاني الذي يتكوّن من مبتدأ وخبر معرفتين. والشيء الثابت في هذا النوع من الجمل أنّ المسند

إليه أعرف من المسند، لذا سنبدأ في تناولنا لموضوع الإخبار عن المعارف بالإخبار عن أعرفها، ثمّ إلى ما دونه تعريفا وهكذا. ولكي تكون الأمور واضحة نستعرض المعارف مرتبة في جدول من الأكثر إلى الأقل تعريفا، لتسهل علينا معرفة إذا ما كان الإخبار عن المعرفة قد تمّ بما دونه تعريفا، أو بما يساويه أو يفوقه. كما يتسنّى لنا أيضا ضبط أنماط التراكيب الاسمية الممكنة.

جدول ترتيب المعارف:

الاسم	الضمير	اسم الاشارة	العلم	المعرف بـــ(ال)	الموصول
الرتبة	1	2	3	4	5

الإخبار عن الضمير: وما دام الضمير هو أعرف المعارف، فهو دائما مسندا إليه، أي يخبر عنه ولا يخبر به. ففي جملة: (أنا يوسف)أخبر عن الضمير بالعلم. وفي قوله تعالى: ﴿ هو الرحمن الرحيم﴾[36] أخبر عنه بالمعرّف بـــ(أل). وفي قوله: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم﴾[37]، أخبر عنه بالاسم الموصول.

ومن أمثلة الإخبار عن المعرّف بالإضافة الذي اكتسب التعريف من الضمير قول الشاعر:

بنونا بنوا أبنائنا، وبناتنا بنوهنّ أبناء الرجال الأباعد[38].

الشاهد فيه قوله: (بنونا بنو أبنائنا). تركيب إسنادي مكوّن من معرفين بالإضافة، اكتسبا التعريف من الضمير، لأنّ كلاهما تركيب إضافي مختوم بضمير والفرق ربينهما أنّ لفظ (بنو أبنائنا) تركيب إضافي مزدوج، يتكوّن من مضاف إلى مضاف إلى مضاف إليه. ولفظ (بنونا) يتكوّن من مضاف ومضاف إليه.

ولمعرفة الأعرف منهما نطبّق مبدأ الخصوص والعموم، الذي يقتضي أن يكون الأخص أعرف، والأعم أقل تعريفا. لفظ (بنونا) يعني الأبناء، ولفظ (بنو أبنائنا) يعني الأحفاد. والأبناء أعم من الأحفاد، والأحفاد أخص من الأبناء. لأنّ كل حفيد

ابن، وليس كل ابن حفيد، تقول الأحفاد أبناء، ولا تقول الأبناء أحفاد. لذا يعرب لفظ (بنونا) خبرا على الرغم من تقدّمه، لأنّه أقل تعريفا، و(بنو أبنائنا) مبتدأ على الرغم من تأخّره، لأنّه الأعرف.

ولو تأمّلنا اللفظين من الناحية الشكلية لوجدنا أنّ لفظ (بنو أبنائنا) قد تكرّرت فيه الإضافة، والإضافة تفيد التخصيص، وهذا يعني أنّه خصص مرّتين، فهو أعرف من لفظ (بنونا) الذي لم تتكرر فيه الإضافة، ودخله التخصيص مرّة واحدة.

الإخبار عن اسم الإشارة: في قوله تعالى: ﴿ ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ﴾[39]، أخبر عن اسم الإشارة (ذلك) بالعلم (عيسى). ومنه قوله تعالى: ﴿ وتلك عاد﴾. [40] وفي قوله تعالى: ﴿ ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون ﴾[41] أُخبر عن اسم الإشارة بالمعرّف بـــ(أل) (اليوم). وفي قوله تعالى: ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ﴾[42]، أخبر عنه بالموصول. ومنه قوله تعالى: ﴿ هذا الذي رزقنا من قبل ﴾[43].

وفي قوله تعالى على لسان يوسف: ﴿ أنا يوسف وهذا﴾ أخبر عن اسم الإشارة (هذا) بالمعرّف بالإضافة (أخي). ويرى البعض أنّ المعرّف بالإضافة في رتبة المضاف إليه، بينما يرى آخرون أنّه دونه تعريفا، وهو الراجح عندنا. لأنّ لفظ (أخي) إذا تأمّلناه وجدناه يتكوّن من النكرة (أخ) مضافة إلى أعرف المعارف وهي الضمير ياء المتكلّم. ودرجة تعريف لفظ (أخي) المعرّف بالإضافة تخضع لعدد مسمّيات لفظ(أخ)أي: عدد الإخوة، فإذا كان عدد الإخوة أربعة مثلا فلفظ (أخي) معرفة بنسبة واحد على أربعة(1/4)، لأنّه يسقط على أربعة أشخاص. وكلّما زاد عدد مسمّيات المعرفة قلّت درجة التعريف.

وفي قوله تعالى: ﴿ ألر تلك آيات الكتاب الحكيم﴾[44]، النكرة (آيات) أضيفت إلى المعرفة (الكتاب)، فاكتسبت منها التعريف، وتعريف المضاف يكون دون تعريف

المضاف إليه ــ كما ذكرنا ــ والمضاف إليه (الكتاب)، معرّف بـــ(أل)، أي أنّه ليس من أعرف المعارف، كما أنّ هناك قرينة لفظية تدلّ على ضعف تعريفه، وهي الصفة، لأنّه موصوف بلفظ(الحكيم). والصفة إيذان بضعف تعريف الموصوف لأنّ المعرفة كلّما قلّت نسبة تعريفه كان أحوج إلى الصفة، وتقلّ حاجته إليها بارتفاع نسبة تعريفه. لذلك استدلّوا على قوّة تعريف الضمير بكونه لا يوصف. نستخلص من كلّ هذا أنّ مدلول التركيب الاسمي: (آيات الكتاب الحكيم)نسبة تعريفه ضعيفة، وهو ما سوّغ الإخبار به عن اسم الإشارة.

الإخبار عن العلم: في قوله تعالى: ﴿محمد رسول الله﴾[45]، أُخبر عن العلم بالمضاف إلى المعرّف بـــ(أل). وقد يسأل سائل فيقول: لو قيل: (رسول الله محمد)، أفلا يكون هذا كلاما؟ والجواب أنّ هذا يكون كلاما إذا وُجّه لمن علم بوجود رسول لله، ولا يعلم من هو. أمّا قوله تعالى: ﴿محمد رسول الله﴾، فهو من القرآن المدني الذي نزل ببيئة يعرف كلّ أفرادها محمدا ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولكن فيهم من أنكر أنّه رسول الله، وهم المنافقون، فالإخبار هنا قد حدث عن الأعرف بما دونه تعريفا. وقد بسط القول في مثل هذا الموضوع الجرجاني في دلائل الإعجاز وهو يفرّق بين (المنطلق زيد)، و(زيد المنطلق)، فقال ما نصّه: "إذا قلت: زيد المنطلق، فأنت في حديث انطلاق قد كان، وعرف السامع كونه، إلاّ أنّه لم يعلم أمن زيد كان أم من عمرو؟ فإذا قلت: زيد المنطلق، أزلت عنه الشكّ وجعلته يقطع بأنّه كان من زيد، بعد أن كان يرى ذلك على سبيل الجواز. وليس كذلك إذا قدّمت ((المنطلق))، فقلت: المنطلق زيد. بل يكون المعنى حينئذ على أنّك رأيت إنسانا ينطلق بالبعد منك فلم يثبت، ولم تعلم أزيد هو أم عمرو؟ فقال لك صاحبك: المنطلق زيد. أي هذا الشخص الذي تراه من بعد هو زيد. "[46]

وإذا تأمّلنا كلام الجرجاني وجدنا المعرّف بـــ(أل) (المنطلق) تأخّر في (زيد المنطلق) لضعف تعريفه، وتقدّم في (المنطلق زيد) لقوّة تعريفه. فالانطلاق معرّف في الحالتين لأنّ للسامع به علم، فقال في الحالة الأولى أنّ الانطلاق قد كان في الماضي، وأنّ السامع قد بلغه علم به. أمّا في الحالة الثانية فالانطلاق يحدث في الحاضر، على مرأى من السامع، فالسامع في هذه الحالة لم يبلغه خبر الانطلاق بل يرآه بعينيه، ومعرفة الإنسان لما يرى أقوى وأصدق من معرفته لما يسمع.

الإخبار عن المعرّف بأل: في ترتيب المعارف المثبّت في الجدول، نجد المعرّف بـــ(أل) أعرف من الموصول فقط، وهذا يعني أنّ القياس يقتضي أن نخبر عن المعرّف بـــ(أل) بالموصول فقط. لكن الأمور لا تجري دائما على الأصل الذي يقتضيه القياس، وإن كان ذلك موجودا وبكثرة. وسنتناول التراكيب الخارجة عن الأصل في حينها. ومن الإخبار عن مصحوب (أل) بالموصول قوله تعالى: ﴿إنّما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربّهم يتوكّلون﴾[47]. إنّما: كافّة ومكفوفة لا عمل لها، والمؤمنون: مبتدأ، والذين: خبر. ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿ إنّما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتّى يستأذنوه﴾[48]. ومنه في حديث الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ قوله: ((الكيّس من دان نفسه))، وقوله: ((المسلم من سلم الناس من لسانه ويده))،

الإخبار عن الاسم الموصول: إنّ كون الاسم الموصول أضعف المعارف تعريفا، هذا يقتضي قياسا ألاّ يخبر عنه بمعرفة، فإذا أردنا الإخبار عنه، أخبرنا عنه بنكرة، أو جملة أو شبه جملة. وهذا هو الشائع والموجود بكثرة في كلام العرب. ففي قولك: (ما عند الله باقٍ، وما عند الناس ينفد)، أخبرت في الجملة الأولى عن الموصول بنكرة، وفي الثانية بجملة فعلية، وفي قوله تعالى: ﴿والذين

كفروا أعمالهم كسراب بِقيعةٍ﴾[49]، إخبار عن الموصول بجملة اسمية. وقد يأتي الخبر جملة إنشائية، قال تعالى: ﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون﴾[50] أخبر تعالى عن الموصول في هذه الآية بثلاثة أساليب، الأول أمر، والثاني نهي وهما من الأساليب الإنشائية، والثالث أسلوب خبري وهو الجملة الاسمية: (أولئك هم الفاسقون).

وكما ذكرنا آنفا: من أنّ الأمور لا تجري دائما على ما يقتضيه الأصل، وهذا الخروج عن الأصل لم يترك في العربية هملا أو كيفما اتّفق، بل يكون دائما في إطار القانون العام للإخبار، وهو الإخبار عن الأعرف بما دونه تعريفا، فإن بدا لك الأمر على خلاف هذا، فاعلم أنّما هو شكلي، وأنّ المرفوع على الابتداء أعرف من الخبر مهما كان نوع كلّ منهما. ولبيان هذا تأمّل قوله تعالى: ﴿ ألــر تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربّك الحقّ ولكنّ أكثر الناس لا يؤمنون ﴾[51]. الشاهد في الآية قوله: ﴿الذي أنزل إليك من ربّك الحقّ ﴾، حيث أخبر عن الاسم الموصول (الذي) بذي اللاّم (الحق)، فحسب الترتيب الذي في الجدول قد أخبر عن معرفة بما هو أعرف منه. لكن لو دقّقنا النظر في الاسم الموصول لوجدناه أعرف من ذي اللام (الحق)، لأنّه يدلّ على معيّن وهو القرآن الكريم. والثابت في لفظ الحقّ أنّ (أل) المتصلة به ليست عهدية، لانعدام ذكره فيما سبق، وليست موصولية لأنّ الموصولية تتصل بالمشتقّات، بقي أن تكون جنسية، والجنسية لا تفيد تعريف مصحوبها، لأنّ تعريفها شكلي، وقد جيء بها هنا لإفادة التخصيص والتوكيد، أي تؤكد الخبر للمبتدأ، وتجعله خاصا به لا يشاركه فيه غيره. وقد أشار الجرجاني إلى هذا في حديثه عن (زيد المنطلق)، وذكر أنّ الإخبار يكون بالمنكور لمن لا علم له بالخبر، وبالمعروف لمن سبق علمه بالخبر، فيلقى إليه على سبيل التأكيد. والكلام

في الآية موجّه إلى الرسول ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ ولا شكّ أنّه يعلم أنّ القرآن حق.

وبعض المفسّرين قال في تفسير هذه الجملة: أي: (هو الحق)[52]، فقدّر ضميرا ليتحصّل على جملة، وما دامت الجمل نكرات أو في حكم النكرات، فهي في محل رفع خبر، وبعضهم فسّر (الحق) بجملة فقال: (لا شكّ فيه)[53]، وما يهمّنا هنا أنّهم استشعروا معنى النكرة في لفظ الحقّ، ففسّروه بما يكافئ النكرة في الوظيفة النحوية، وهي الجملة. وهكذا يتبيّن لنا يقينا أنّه قد حدث في هذه الجملة إخبار عن معرف بما دونه تعريفا.

ومن هذا النوع من الجمل ما نجده في قوله تعالى: ﴿ فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إنّ الله سيبطله إنّ الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾[54]. الشاهد في هذه الآية قوله: (ما جئتم به السحر)، حيث أخبر عن الموصول (ما) بذي اللام (السحر)، ويراد بالاسم الموصول هنا العمل السحري الذي جاء به السحرة، والذي شاهده موسى وكلّ من كان حاضرا آنذاك، والجملة ذكرت على لسان موسى ــ عليه السلام ــ وموجّهة إلى السحرة، وهم أعرف الحاضرين بعملهم السحري، لذا يمكن القول أنّ مدلول الاسم الموصل هنا على درجة عالية من التعريف. أمّا بالنسبة للمعرّف بـــ(أل) (السحر)، فما قيل في لفظ الحق في المثال السابق يعاد فيه. والملفت للانتباه هنا أنّ عبد الله قرأ: (ما جئتم به سحر)، وقراء أبيّ: (ما أتيتم به سحر)، بتنكير السحر في القراءتين[55]. فكأنّهما استشعرا ضعف التعريف في الاسم الموصول، فأخبرا عنه بنكرة. وقرأ أبو عمرو بالمدّ والهمز (آلسحر) وحجّته "أنّه جعل (ما) استفهاما في موضع رفع بالابتداء، و(جئتم به) الخبر، ثمّ أبدل (السحر)من (ما) فلحقته ألف الاستفهام لأنّه بدل من استفهام، وحسن ليساوي البدل المبدل منه في الاستفهام، كما تقول: كم مالك، أعشرون أم ثلاثون؟".[56] فكأني

بأبي عمرو في هذه القراءة قد عدل عن قراءة جرت في شكلها التركيبي على غير ما يقتضيه الأصل في العربية ــ وهو الإخبار عن المعرفة بالأعرف منه ــ إلى قراءة جرت في تركيبها على النسق المألوف في العربية. وهو الإخبار عن المعرفة بالنكرة.

وكما أدرك القدماء قوّة التعريف في الضمير، أدركوا أيضا ضعف التعريف في الموصول، وهذا ما جعل الإخبار عنه يكون بالمفرد النكرة كما في قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا أشد حبا لله﴾[57]، أو بالجملة كما هو الحال في الأمثلة السابقة. ولو تكلّفنا تركيبا لغويا تتوالى فيه الموصولات، فإننا سنكون مضطرّين إلى مقابلة كلّ موصول بنكرة تكون خبرا له، ولا يمكن اعتبار الموصول المتأخّر خبرا لنضيره المتقدّم. يحدّثنا ابن السراج عن هذا التركيب المصنوع الخارج عن السليقة العربية فيقول: "دخول الموصول على الموصول لم يجئ في كلامهم، وإنّما وضعه النحاة رياضة للمتعلمين وتدريبا لهم..." وذكر المثال التالي: (الذي التي اللذان أبواهما قاعدان لديها كريمان عزيزة عنده حسن)، وقال في إعراب هذا التركيب: تبتدئ بالموصول الأخير فتوفيه حقّه من الصلة والعائد والخبر، ثمّ الذي قبله، ثمّ الذي قبله. [58] كما هو مبيّن في الجدول التالي:

الموصول المبتدأ	الصلـــة	الخبر
اللذان	أبواهما قاعدان لديها	كريمان
التي	اللذان أبواهما قاعدان لديها كريمان	عزيزة
الذي	التي اللذان أبواهما قاعدان لديها كريمان عزيزة عنده	حسن

وبعبارة أخرى نقول: إنّ هذا التركيب الذي توالت في بدايته ثلاثة أسماء موصولة (اللذان + التي + الذي) نجد في نهايته توالي ثلاث نكرات: (كريمان + عزيزة + حسن)، أمّا شبه الجملة (عنده)، فهي متعلّقة بـــ(عزيزة)، وكلّ نكرة هي

خبر لموصول من الموصولات السابقة، على النحو التالي: الموصول الأوّل خبره النكرة الأخيرة، والثاني خبره الثانية، والأخير خبره الأولى. كما هو مبيّن في الجدول. وعلى الرغم من وجود مبتدأ أوّل، وثان، وثالث، فالتركيب ليس جملة مركّبة، لانعدام جملة الخبر، لأنّ كلّ مبتدأ خبره مفرد نكرة. وإذا تأمّلنا الجدول وجدنا الجملة الموجودة في أعلاه وهي (اللذان أبوهما قاعدان لديها كريمان) هي صلة الموصول الثاني (التي). والجملة التي تحتها وهي: (التي اللذان أبوهما قاعدان لديها كريمان عزيزة)، صلة الموصول (الذي)، وفي أسفل الجدول تجد الجملة الأم التي أخبر فيها عن الموصول الذي بالنكرة (حسن)، وما بينهما صلة للموصول.

التراكيب الاسمية الإسنادية المركّبة، (الجملة الاسمية المركّبة): التراكيب الاسمية المركّبة هي التي تعدد الإسناد فيها مرّتين على الأقل، أي هي الجملة الاسمية التي فيها على الأقل مبتدأين وخبرين. المسند إليه (المبتدأ)، يأتي في الحالتين اسما مفردا، ونقصد بالمفرد هنا ما ليس مركّبا، أمّا المسند (الخبر)، فهو في الجملة الكبرى تركيب إسنادي، وفي الصغرى مفرد. مثل: (محمد أبوه مريض). المبتدأ (محمد) خبره جملة: (أبوه مريض). والمبتدأ (أبوه) خبره (مريض). ويمكن أن نسمّي هذا النوع من التراكيب، التركيب الاسمي الثنائي الإسناد.

وقد يتعدد الإسناد ثلاث مرّات، فيأتي المسند إليه في كلّ مرّة اسما مفردا، أمّا المسند إليه فيأتي مرّة اسما مفردا، ومرّة جملة بسيطة، ومرّة جملة مركّبة. مثل: (محمد أبوه غلامه مريض). والشكل الموالي يبيّن كلّ جملة وطرفي الإسناد فيها:

الأسماء ←	محمد	أبوه	غلامه	مريض
الجمـــل ↓	مبتدأ1	مبتدأ2	مبتدأ3	خبر المبتدأ3
الجملة الأولى ←	جملة بسيطة (خبر المبتدأ2)			
الجملة الثانية ←	جملة مركّبة وهي(خبر المبتدأ1)			
الجملة الثالثة ←	الجملة الأم: وهي جملة مركبة خبرها جملة مركّبة			

وفي قولك: (محمد أبوه غلامه أمّه مريضة)، تعدّد الإسناد أربع مرّات، وهكذا. وقد يسأل سائل فيقول: ما الحد الذي يتوقّف عنده تعدد الإسناد، والجواب: لا حدّ لتعدد الإسناد نظريا. ولكن هذا معناه أنّك قد تنطق بجملة لا نهاية لها، وهذا محال. لذا نجد أنفسنا مضطرين إلى اعتماد الواقع اللغوي، والبحث في الكلام العربي عن أقصى حد بلغه تعدد الإسناد، أي البحث عن أطول جملة مركّبة. فإذا اخترنا القرآن الكريم ــ باعتباره النموذج المثالي للتراكيب العربية ــ كمدوّنة لغوية، نبحث فيها عن الإجابة، فإننا نجد أنّ الجملة الاسمية الثلاثية الاسناد، هي أطول تركيب إسنادي. لذا سنكتفي في دراستنا بنمطين من الجمل الاسمية المركّبة، الجملة الاسمية المركبة الثنائية الاسناد، والجملة الاسمية المركبة الثلاثية الاسناد.

الجملة الاسمية المركبة الثنائية الإسناد: (الإخبار بالجملة البسيطة)

هذا النمط من التراكيب يمثّل أبسط أشكال الجملة الاسمية المركّبة، وهو يتكوّن عادة من ثلاثة أسماء، الأوّل منها هو المسند إليه في الجملة الكبرى، ويعرب مبتدأ

أوّل، أمّا الثاني والثالث فهما المبتدأ الثاني وخبره، وهما طرفا الإسناد في الجملة البسيطة، الواقعة خبرا للمبتدأ الأوّل.

من أمثلة هذا النمط في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ وقهم السيّئات ومن تق السيّئات يومئذ فقد رخمته وذلك هو الفوز العظيم ﴾[59]. الشاهد في الآية قوله: ﴿وذلك هو الفوز العظيم﴾. اسم الإشارة (ذلك) مبتدأ أوّل، وكون الضمير (هو) لا يأتي خبرا أبدا لأنّه أعرف المعارف جعل إعرابه مبتدأ ثانيا أمرا حتميا، و(الفوز) خبره، و(العظيم) صفة للفوز، والجملة خبر المبتدأ الأوّل. وهناك من يعتبر الضمير (هو) ضمير فصل وعماد لا محل له من الإعراب، و(الفوز) خبر المبتدأ (ذلك) ونحن نرجح الإعراب الأوّل لسببين: الأوّل: أنّه لا يمكن إدراج الاسم في التركيب اللغوي دون أن يكون له محلّ إعرابي، والضمائر أسماء. والثاني، أنّ الإخبار بالجملة أبلغ وآكد من الإخبار بالمفرد. لذلك تجدهم إذا أرادوا المبالغة في الوصف لإنشاء المدح أو الذّم، قطعوا الصفة عن الموصوف، وهذا القطع ينقلهم من الوصف بالمفرد، إلى الوصف بالجملة. من ذلك قطع صفتي الرحمن والرحيم عن موصوفهما في البسملة، وهو لفظ الجلالة المجرور، فإن كان القطع بالرفع فعلى تقدير ضمير، أي: (هو الرحمنُ الرحيمُ) برفع اللفظين على الخبرية. وإن كان القطع بالنصب فعلى إضمار الفعل الناصب (أعني، أو أقصد، أو أخصّ). ومهما كان القطع فهو انتقال من الوصف بالمفرد إلى الوصف بالجملة، لأنّ جملة القطع في محلّ جرّ صفة.

وهذا النمط التركيبي: (اسم إشارة + ضمير+ معرّف بأل) موجود بكثرة في القرآن الكريم. نذكر منه على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿ أولئك هم الوارثون﴾[60] وقوله: ﴿ فأولئك هم المفلحون ﴾[61]، وقوله: ﴿ فأولئك هم العادونَ ﴾[62].

وفي قوله تعالى: ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ﴾[63].
نجد النمط التركيبي التالي: (اسم موصول + اسم إشارة + مضاف إلى معرّف بـــ(أل)). الاسم الموصول مبتدأ أوّل، واسم الإشارة مبتدأ ثان لأنّه أعرف من سابقه، أمّا المضاف فهو خبر للمبتدأ الثاني، لأنّه أقل تعريفا منه. والجملة المكوّنة من المبتدأ الثاني وخبره (أولئك أصحاب الجحيم) خبر المبتدأ الأوّل.

يتّضح لنا مما سبق أنّ الإسناد ينعقد إذا كان الانتقال من المعرفة إلى ما دونه تعريفا، فإن كان الانتقال من المعرفة إلى الأعرف رفع الاسمان على الابتداء. كما نلاحظ أنّ النمط التركيبي مهما كان نوعه، فهو مختوم بمعرفة أقلّ تعريفا من سابقه، وهو المبتدأ الثاني، لتكوين الجملة البسيطة، التي تكون خبرا للمبتدأ الأوّل.

وقد ينوب المصدر المؤوّل عن المعرفة، لأنّه معرفة مثله، قال تعالى: ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهنّ﴾[64]. والتقدير: (أولات الأحمال أجلهنّ وضع الحمل). المعرّف بالإضافة الأوّل (أولات الأحمال): مرفوع على الابتداء والمعرّف بالإضافة الثاني (أجلهنّ) أعرف منه لأنّه مضاف إلى أعرف المعارف وهو الضمير، لذا تعذّر أن يكون خبرا له، فلا مفرّ من رفعه على الابتداء ثانية والمصدر المؤوّل خبر له، والجملة خبر للمبتدأ الأوّل. ومن هذا النمط التركيبي في الشعر قول الشاعر:

قومي ذرى المجد بانوها وقد علمت بكنه ذلك عدنان وقحطان[65].

الشاهد في لبيت قوله: (قومي ذرى المجد بانوها)، يتكوّن التركيب من ثلاثة معارف، كلّها معرّفة بالإضافة. الأوّل (قومي) مبتدأ أوّل، والثاني (ذرى المجد)مبتدأ ثان، والثالث (بانوها)خبر للمبتدأ الثاني، والجملة خبر للأوّل. لو تأمّلنا طرفي الإسناد في جملة الخبر (ذرى المجد بانوها)، لوجدنا المبتدأ (ذرى المجد) أعرف من الخبر (بانوها)، لأنّ المضاف في الأوّل، وهو لفظ (ذرى)جامد

والمضاف في الثاني، وهو لفظ (بان) مشتق، والجامد أعرف من المشتق، كما أنّ المشتق أنكر من الجامد، لأنّ المشتق يتضمّن معنى الفعل، والأفعال نكرات. ومن الشواهد الشعرية أيضا قول الشاعر:

بنونا بنوا أبنائنا وبناتنا بنوهنّ أبناء الرجال الأباعد. [66]

الشاهد في البيت قوله: (وبناتنا بنوهنّ أبناء الرجال الأباعد). (بناتنا) مبتدأ أوّل و(بنوهن) مبتدأ ثان، و(أبناء الرجال الأباعد) خبر للمبتدأ الثاني، والجملة خبر المبتدأ الأوّل. ولو تأمّلنا طرفي الإسناد في جملة الخبر لوجدنا المبتدأ أعرف من الخبر، لأنّ المبتدأ مضاف إلى الضمير والخبر مضاف إلى المعرّف بـــ(أل). أمّا الجملة المركّبة فالإسناد فيها وقع بين مفرد معرفة، وجملة، ومادامت الجمل نكرات، فقد وقع الإسناد بين معرفة ونكرة. ، وهذا هو الأصل.

التراكيب الإسنادية الثلاثية الإسناد: (الإخبار بالجملة المركّبة).

من أمثلتها في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ لكنّا هو الله ربّي ولا أشرك بربي أحدا ﴾[67]. الشاهد في الآية قوله: (لكنّا هو الله ربّي)، أصل التركيب: (لكن أنا هو الله ربّي)، يتكوّن من (لكن) وهي أداة استدراك غير عاملة لأنّها مخفّفة، وأربع معارف متتالية هي: (أنا + هو + الله + ربّي). وما دام الضمير لا يخبر به لأنّه أعرف المعارف، فالضمير(أنا) مبتدأ أوّل، و(هو) مبتدأ ثان، ولفظ الجلالة مبتدأ ثالث لأنّه أعرف المعارف، و(ربّي) خبر للمبتدأ الثالث، لأنّه أقل تعريفا منه وجملة(الله ربّي) خبر لمبتدأ الثاني (هو)، وجملة (هو الله ربّي) خبر لمبتدأ الأوّل(أنا). فالإخبار حدث في الجملة البسيطة عن المعرفة، بما دونه تعريفا. وفي غيرها قد أخبر عن المعرفة بالجملة. والجمل نكرات.

ومن الإخبار بالجملة المركّبة أيضا قوله تعالى: ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾[68]. والمخبر عنه بالجملة المركّبة هنا هو الاسم المبهم (من)

وسواء أكان هذا المبهم اسم شرط أو موصولا فهو مرفوع على الابتداء، لأنّ درجة تعريفهما واحدة، وكلّ منهما يزول إبهامه ويتحدّد معناه بما بعده، الموصول يزول إبهامه بصلته، واسم الشرط بجملة فعل الشرط. يقول النحاس في إعراب هذه الجملة: "(ومن لم يحكم بما أنزل الله) رفع بالابتداء وخبره (فؤلئك هم الكافرون)"[69]. وجملة الخبر تتكوّن من المبتدأ الثاني (أولئك)، والمبتدأ الثالث (هم) وخبره(الكافرون). وجملة(هم الكافرون) خبر أولئك. وهذا النمط التركيبي الذي يتكوّن من: ((المبهم + اسم الإشارة + الضمير + المعرّف بـــ(أل)))، تكرّر كثيرا في القرآن الكريم، منه قوله تعالى: ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فألئك هم الظالمون ﴾[70]. وقوله تعالى: ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فألئك هم الفاسقون ﴾[71]. وقوله: ﴿ من يكفر به فألئك هم الخاسرون﴾[72]. وقوله: ﴿ فمن ثقلت موازينه فؤلئك هم المفلحون﴾[73]. وقوله: ﴿ فمن ابتغى وراء ذلك فألئك هم العادون ﴾[74]. وقد ينوب عن الضمير المضاف إلى الضمير كما في قوله تعالى: ﴿ إنّ الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحيات الدنيا واطمأنّوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون﴾[75]. يمتاز هذا التركيب بدخول إنّ عليه فالاسم الموصول (الذين) وقع في محل نصب اسما لأنّ، وخبره: (أولئك مأواهم النار).

ما يلاحظ على هذا النمط التركيبي: (المبهم ــ سواء أكان موصولا أو اسم شرط ــ + اسم الإشارة + الضمير أو المضاف إلى الضمير + المعرّف بأل)، له وجه إعرابي واحد، هو أنّ المبهم مرفوع على الابتداء، وما دام ما بعده (اسم الإشارة)أعرف منه، فهو لا يصلح خبرا له، لذا فهو مبتدأ ثان. والظاهرة نفسها تكرّر مع اسم الإشارة، لأنّه متبوع بضمير والضمير أعرف منه، لذا يعرب الضمير أو المضاف إلى الضمير مبتدأ ثالثا، وهذا المبتدأ الثالث متبوع بما دونه

تعريفا، وهو المعرّف بـــ(أل)، لذا صحّ أن يكون خبرا له. ثمّ نرجع من اليسار إلى اليمين، أي من نهاية التركيب إلى بدايته، لنعطي كلّ مبتدأ خبره، فنجعل الجملة البسيطة (الضمير أو المضاف إلى الضمير + المعرّف بـــأل) خبرا للمبتدأ الثاني(اسم الإشارة)، ثمّ نجعل الجملة المركّبة (اسم الإشارة وخبره) خبرا للمبهم الأوّل سواء أكان هذا المبهم اسم موصول أو اسم شرط. وما دامت الجمل نكرات أو في حكم النكرت، لأنّها تركيب مفيد، ولا نفيد بالمعلوم بل بالمجهول، فإنّ هذا التركيب الذي تكرر فيه الإسناد ثلاث مرّات، قد أُخبر فيه عن ثلاثة معارف، أُخبر عن المعرفتين الأوليين بنكرتين، وعن الثالثة بما دونها تعريفا، وضعف التعريف هذا هو الذي سوّغ حملها على النكرة.

نتائج البحث:

1 ــ إنّ العربية تقوم في تراكيبها ونحوها على منطق الفكر اللغوي الذي أودعه الله في ذهن البشر، فإذا كان الأصل في الخبر المفيد أن يكون بالمنكور عن المعروف، فهذا هو الأصل الذي تقوم عليه الجملة العربية، اسمية كانت أو فعلية وإذا كانت ثنائية التعريف والتنكير في الجملة الاسمية تبرز في المبتدأ المعرفة والخبر النكرة، فإنّ ثنائية الاسم والفعل في الجملة الفعلية، هي امتداد لها وجه من وجوهها. لأنّ الأفعال نكرات، وهي أنكر من الأسماء، لأنّها لا تقبل التعريف بخلاف الأسماء التي يعتريها التعريف والتنكير، فالفاعل في الجملة الفعلية يمثل التعريف ولو كان نكرة لأنّه يقبل التعريف، والفعل يمثّل التنكير.

2 ــ إنّ الخروج عن الأصل الذي يقتضيه قانون الإخبار، وهو الإخبار عن المعلوم بالمجهول، لم يترك في العربية سدى دون ضابط، بل هناك قواعد تحكم بناء التركيب اللغوي في هذه الحالة. فإذا اشترك المبتدأ والخبر في التعريف كان الخبر أقل تعريفا، وقلّة التعريف هذه هي التي اقتضت حمله على المنكور. أمّا إن

اشتركا في التنكير، فالمبتدأ أقل تنكيرا، وقلّة التنكير هذه هي التي اقتضت حمله على المعرفة، وما مسوّغات الابتداء بالنكرة التي نجدها في كتب النحو إلاّ وجه من وجوه التقليل من درجة تنكير المبتدأ النكرة.

3 ــ إنّ دراسة التراكيب اللغوية التي تبنى بالمعارف تتطلّب منّا دراسة المعرفة، وأنواعها، وترتيبها. وكذلك الأمر بالنسبة للنكرة في دراسة مسوّغات الابتداء بالنكرة. معنى هذا أنّ دراسة الجملة الاسمية بكلّ أنماطها يتطلّب منّا حتما التطرّق إلى المعرفة والنكرة بكلّ تفاصيلهما، لنتمكّن من إدراك العلاقات النحوية فيما بين الكلمات، وإبراز معاني النحو التي يحملها التركيب، وهذا هو الذي ينقص الدرس النحوي، لأنّ النحو يقدّم للمتعلّم في كلّ مراحل التعليم كمصطلحات (مبتدأ خبر، صفة، توكيد، بدل، حال.. .) مصحوبة بمجموعة من الشروط أو القواعد يكون التركيز على حفظها أكثر من لتركيز على فهمها، وتلك هي الطامّة الكبرى التي سببت صعوبة النحو والنفور من درسه.

4 ــ من أبرز النقاط السوداء التي أساءت إلى الدرس النحوي، اعتماد الأمثلة المصنوعة، التي تمتاز في غالبيتها بالتكلّف والركاكة الأسلوبية، وهي أشبه بالمصنوعات المقلّدة. لذا ينبغي الاعتماد في الدرس النحوي على الأمثلة القرآنية بالدرجة الأولى، لأنّ النحو العربي ولد في أحضان القرآن الكريم، والأشياء تكون في أحسن حالاتها وأفضلها إذا كانت في موطنها الأصلي، كما يُعتمد أيضا الأحاديث النبوية، والجيّد من كلام العرب شعرا كان أو نثرا.

قائمة المصادر والمراجع

ــ القرآن الكريم برواية حفص.

1- أبو البركات عبد الرحمن بن محمد الانباري (ت، 577هــ)، **أسرار العربية** تحقيق محمد بهجة البيطار، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، دار الافاق

2 ــ أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري. (ت، 538 هــ)، **المفصل في صناعة الإعراب**. دار الكتب العلمية بيروت، 1420هــ 1999 م.

3 ــ الكشاف عن حقائق التنزيل ووجوه التأويل، دار الفكر للطباعة والنشر 1426ــ1427هــ، 2006م.

4ــ أبو بكر محمد بن سهل بن السراج النحوي البغدادي، (ت، 316 هــ) **الاصول في النحو**، ثلاثة أجزاء. تحقيق الدكتور عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الثالثة، 1417هــ، 1990م.

5ــ أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس، (ت، 338هــ)، **إعراب القرآن**، تحقيق الدكتور زهير غازي زاهد، دار العاني، بغداد، 1979م

6ــ أبو محمد مكّي بن أبي طالب حموش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني القرطبي، (ت. 437هــ 1045م)، **الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها**، مجلّدان، تحقيق جمال الدين محمد شرف، دار الصحابة للراث بطنطا الطبعة الأولى، 1430هــ 2009م.

7 ــ أبو محمد عبد الله جمال الدين بن هشام الانصاري (ت، 761هــ)، **شرح قطر الندى وبلّ الصدى**. الطبعة الحادية عشر 1383هــ، 1963 م مطبعة السعادة مصر

8 ــ **أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك**، 4ج، الطبعة السادسة 1980، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

9ــ أحمد الصاوي المالكي، **حاشية العلامة الصاوي على تفسير الجلالين** 4ج، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د ط).

10ــ إسماعيل بن عمر بن كثير(ت، 774هــ)، **تفسير القرآن العظيم** مجلّدان، الطبعة الأولى، 1425هــ، 2005م، مؤسسة الريان، بيروت، لبنان.

11ــ ابن عصفور، (ت. 669هــ)**شرح جمل الزجاجي**. قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه فؤاد الشعار. إشراف الدكتور إميل بديع يعقوب. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى. 1419هــ 1998م. 3 أجزاء.

12 ــ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، (ت. 911هــ 1505م) الاشباه والنظائر في النحو، 4ج في مجلّدين، وضع حواشيه غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الثانية، 1428هــ 2007م. أربعة أجزاء في مجلّدين

13ــ رضيّ الدين محمد بن الحسين الإستراباذي، (ت. 686هــ 1287م)، شرح كافية ابن الحاجب، 5ج، قدّم له ووضع حواشيه وفهارسه الدكتور إميل بديع يعقوب. الطبعة الأولى. 1419هــ 1998م. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. 5 أجزاء.

14ــ عباس حسن، النحو الوافي، 4 أجزاء، دار المعارف الطبعة العاشرة، (د ط).

15ــ عبد القاهر الجرجاني، (ت. 471هــ)، **دلائل الإعجاز في علم المعاني** صحح أصله الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، ووقف على تصحيح طبعه وعلّق على حواشيه السيّد محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت لبنان 1402هــ 1981م.

16ــ عبد المنعم عوض الجرجاوي، (ت. 1195هــ)، **شرح الجرجاوي على شواهد ابن عقيل لألفية الإمام ابن مالك**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دون تاريخ طبع.

17ــ عثمان محمد منصور، **المقتطف في النحو والصرف**، دار الشهاب للنشر والتوزيع، الجزائر، (د، ت).

18ــ عمر بن ثابت الثمانيني، (ت. 443هـــ)، **الفوائد والقواعد**، دراسة وتحقيق الدكتور عبد الوهاب محمود الكحلة، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان الطبعة الأولى، 1422هـــ 2002، 2003م.

19ــ قراديا قابوتشان، **نظرية أدوات التعريف والتنكير وقضايا النحو العربي** ترجمة الدكتور جعفر دك الباب، مطابع مؤسسة الوحدة للصحافة والطباعة والنشر دمشق، 1980.

20ــ محمد سعيد اسبر، وبلال جنيدي، **الشامل (معجم في العلوم اللغة العربية ومصطلحاتها)**، الطبعة الثانية 1985 م، دار العودة، بيروت لبنان.

21ــ محي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي، (ت. 676هـــ)، **الأذكار من كلام سيّد الأبرار**، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، الطبعة الأولى، 1422هـــ 2001م.

22ــ مصطفى الغلاييني، **جامع الدروس العربية**، 3ج، الطبعة الثالثة عشر 1398هـــ 1978 م. المطبعة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، لبنان.

23ــ يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني، (ت. 705هـــ) **الطِّراز ــ المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**، تحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوي، الطبعة الأولى، 1423هـــ 2002م، المكتبة العصريّة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

24ــ يعيش بن علي يعيش، (ت. 643 هـــ)، **شرح المفصل للزمخشري**، 6ج قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه الدكتور إميل بديع يعقوب، منشورات محمد علي بيضون، الطبعة الأولى، 1422هـــ 2001م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الهوامش:

1 ــ أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، (ت 438)، **المفصّل في صناعة الإعراب**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1420هـ 1999م، ص: 242.

2 ــ الشيخ رضي الدين الاستراباذي، (ت 686 هـ، 1287م)، **شرح كافية ابن الحاجب** قدّم له ووضع حواشيه وفهارسه الدكتور إميل بديع يعقوب، ط1، 1419هـ 1998م، دار الكتب العلمية، بيروت، 128/2.

3 ــ مصطفى الغلاييني، **جامع الدروس العربية**، 3ج، (ط13، 1398هـ 1978م) المطبعة العصرية، صيدا، لبنان، 149/1.

4 ــ محمد سعيد إسبر، وبلال جنيدي، **الشامل (معجم في علوم اللغة العربية ومصطلحاتها)**، ط2، 1985م، دار العودة بيروت، لبنان، ص: 874.

5 ــ ينظر ابن السراج، (ت 316 هـ)، **الأصول في النحو**، 3 ج، تحقيق د/عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، (ط3، 1417هـ 1990م)، 149/1. فقد ذكر أنّ المعرفة خمسة أشياء: الاسم المكنّى، والمبهم، والعلم، وما فيه الألف واللام، وما أضيف إليهنّ، ولم يعرّفها.

6 ــ يعيش بن علي يعيش (643 هـ)، **شرح مفصّل الزمخشري**، 6ج، قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه د/ إميل بديع يعقوب، منشورات محمد علي بيضون، (ط1، 1422هـ 2001 م) دار الكتب العلمية، بيروت، 351/3.

7 ــ عمر بن ثابت الثمانيني، (ت 443)، **الفوائد والقواعد**، دراسة وتحقيق د/عبد الوهاب محمود الكحلة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، (1422هـ 2002، 2003م)، ص: 394.

8 ــ سورة النور، من الآية 35.

9 ــ سورة المائدة، من الآية 3.

10 ــ ينظر إسماعيل بن عمر بن كثير، (ت 774)، **تفسير القرآن العظيم**، 2ج، الطبعة الأولى، 1425هـ 2005م، مؤسسة الريّان، بيروت، 680/1.

11 ــ أنظر ابن يعيش، **شرح المفصل**، 351/3.

12 ــ ينظر ابن السراج، **الأصول في النحو**، 148/1. وابن يعيش، شرح المفصّل 80/3.

13 ــ ينظر جلال الدين السيوطي، (ت 911 هـ 1505م)، **الأشباه والنظائر في النحو** 4ج، في مجلدين، وضع حواشيع غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2 (1428هـ 2007 م)، 54/1.

14 ــ ينظر قراديا قابوتشان، **نظرية أدوات التعريف والتنكير وقضايا النحو العربي** ترجمة الدكتور جعفر دك الباب، مطابع مؤسسة الوحدة للصحافة والطباعة والنشر دمشق، 1980، ص 50، 51.

15 ــ ابن يعيش، شرح **مفصّل الزمخشري**، 349/3 ــ 350.

16 ــ المرجع السابق نفسه، 350/3 ــ 351.

17 ــ ابن عصفور (ت 669)، **شرح جمل الزجّاحي**، قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه فوّاز الشعار، إشراف الدكتور إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، (ط1 1419هـ 1998م)، 238/2.

18 ــ ينظر أبو البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري، (ت 577)، **أسرار العربية** تحقيق محمد بهجة البيطار، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، دار الآفاق، ص: 243.

19 ــ ينظر جمال الدين بن هشام الأنصاري (ت 761)، **شرح قطر الندى وبل الصدى** (ط11، 1383هـ 1963م) مطبعة السعادة، مصر، ص: من 93 إلى 112.

20 ــ ينظر الإمام يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني، (ت 705)، **الطّراز (المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز)**، تحقيق د/عبد الحميد هنداوي، ط1 المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، 8/2.

21 ــ ينظر عباس حسن **النحو الوافي**، 4ج، دار المعارف، ط10، 212/2.

22 ــ السيوطي، **الأشباه والنظائر في النحو**، 36/2.

23 ــ ابن عصفور، **شرح جمل الزجّاجي**، 238/2.

24 ــ سورة يوسف، الآية 14.

25 ــ ينظر رضي الدين الاستراباذي، **شرح كتاب الكافية في النحو لابن الحاجب** 312/1.

26 ــ سورة البقرة، الآية 2.

27 ــ ينظر الزمخشري، الكشاف، 110/1.

28 ــ ينظر قراديا قابوتشان، **نظرية أدوات التعريف والتنكير وقضايا النحو العربي** ترجمة جعفر دك الباب، ص: 136.

29 ــ سورة الفاتحة، الآية الخيرة،

30 ــ الإمام النووي، **الأذكار من كلام سيّد الأبرار**، ص: 31.

31 ــ سورة آل عمران، من الآية 96.

32 ــ ينظر السيوطي، **الأشباه والنظائر في النحو**، 155/1.

33 ــ ينظر عبّس حسن، النحو الوافي، ج1/ص: 212. وعثمان محمد منصور، **المقتطف في النحو والصرف**، شركة شهاب، الجزائر، (د ت)، (دط)، ص: 27.

34 ــ ينظر ابن هشام، **شرح قطر الندى وبلّ الصدى**، ط11، مطبعة السعادة، مصر 1383هـ 1963م، ص: 118.

35 ــ سورة يوسف، الآية 90.

36 ــ سورة الحشر، من الآية 22.

37 ــ سورة محمد، من الآية 24.

38 ــ البيت من شواهد النحاة، ذكره الجرجاوي، في شرحه لشواهد ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ص: 37. واستشهد به ابن هشام في **أوضح المسالك إلى ألفية الإمام مالك** 145/1.

39 ــ سورة مريم، الآية 34.

40 ــ سورة هود، من الآية 59.

41 ــ سورة المعارج، من الآية 44.

42 ــ سورة البقرة، من الآية 16.

43 ــ سورة البقرة، من الآية 25.

44 ــ سورة يونس، الآية الأولى.

45 ــ سورة محمد، أوّل الآية الأخيرة.

46 ــ عبد القاهر الجرجاني، (ت 471 هــ) **دلائل الإعجاز في علم المعاني**، صحح له الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، ووقف على تصحيح طبعه وعلّق على حواشيه السيد محمد رشيد رضـــا، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1402هــ 1981م ص: 144.

47 ــ سورة الأنفال، الآية 2.

48 ــ سورة النور، الآية 62.

49 ــ سورة النور، من الآية 39.

50 ــ سورة النور، الآية 4.

51 ــ الآية الأولى من سورة الرعد.

52 ــ ينظر على سبيل المثال الزمخشري، (ت 538هـ)، **الكشاف عن حقائق التنزيل ووجوه التأويل**، 4ج، دار الفكر للطباعة والنشر، 1426 ــ 1427هـ ــ 2006م، 348/2. وأحمد الصاوي، **حاشية العلامة أحمد الصاوي على تفسير الجلالين**، 4ج، 263/2.

53 ــ ينظر المرجع السابق للعلامة أحمد الصاوي.

54 ــ سورة يونس الآية 81.

55 ــ ينظر الزمخشري، الكشاف، 248/2.

56 ــ ينظر أبو محمد مكي بن أبي طالب، (ت 437هـ)، **الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها**، تحقيق جمال الدين محمد شرف، دار الصحابة للتراث بطنطا ط1، 1430 هـ ــ 2009 م، ص464/2.

57 ــ سورة البقرة، من الآية 165.

58 ــ ينظر الاستراباذي، **شرح كافية ابن الحاجب**، 114/3.. . 118.

59 ــ سورة يونس، الآية 9.

60 ــ سورة المومنون، الآية10.

61 ــ سورة الأعراف، من الآية 8.

62 ــ سورة المعارج، من الآية 31.

63 ــ سورة المائدة، الآية 10.

64 ــ سورة الطلاق، من الآية 4.

65 ــ الجرجاوي، **شرح الجرجاوي على شواهد ابن عقيل لألفية ابن مالك**، ص: 31.

66 ــ البيت من شواهد النحاة، ذكره الجرجاوي، في شرحه لشواهد ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ص: 37. واستشهد به ابن هشام في أوضح المسالك، 145/1.

67 ــ سورة الكهف، الآية 38.

68 ــ سورة المائدة، من الآية 44.

69 ــ النحاس، **إعراب القرآن لنحاس**، 20/2.

70 ــ سورة المائدة، من الآية 45.

71 ــ سورة المائدة، من الآية 47

72 ــ سورة البقرة، من الآية 121.

73 ــ سورة الأعراف، من الآية 8.

74 ــ سورة المعارج، من الآية 31.

75 ــ سورة يونس، الآيتان 7، 8.

التّضمين النّحويّ، أشكاله ودلالاته

د. سليمان بوراس

جامعة المسيلة

مقدّمة: كثيرة هي الظواهر اللافتة في الدرس النحوي والبلاغي العربي، والتي تستوقف الدارس وتستفز تفكيره وتوجب عليه النظر فيها، وذلك لما لها من الدلالات الجليلة في هذه اللغة الجميلة ولعل من النقاط التي يتقاطع فيها العلمان (النحو والبلاغة) نقطة التضمين، ولكننا لسعة ما فيها من المقولات فإننا نود أن نتحدث في هذا المقال عن الشق النحوي فقط، متحدثين عن مفهوم التضمين وعن أقسامه ولعلنا نرجع مرة أخرى إلى الحديث عن الشق البلاغي متى أتيحت لنا الفرصة مبينين أوجهه وجمالياته على نحو ما سنبين في الشق النحوي.

والتضمين في المعاجم اللغوية قديمها وحديثها يندرج تحت مادة (ض، م، ن) فهذا الأزهري في "تهذيب اللغة" يقول: ضمنت الشيء ضماناً فأنا ضامن وهو مضمون، قال أبو عمرو: الضمن الذي به زمانة في جسده من بلاء أو كسر أو غيره وأنشد:

وما خلتني زلت بعدكم ضمنا أشكو إليكم حموة الألم

وقال الليث: كل شيء أحرز فيه شيء فقد ضمنه»[1]، وجاء في لسان العرب مادة (ض، م، ن): وضمن الشيء أودعه إياه، كما تودع الوعاء المتاع، والميت القبر، وكل شيء جعلته في وعاء فقد ضمنته، وفي الحديث: «من مات في سبيل الله فهو ضامن على الله أن يدخله الجنة، أي هو ضمان على الله ... ويقال ضمن الشيء بمعنى تضمنه ومنه قولهم مضمون الكتاب كذا وكذا»[2]، ويضيف الرازي

في مختار الصحاح على تعريف ابن منظور قوله: «والمضمن من الشعر ما ضمنته بيتا والمضمن من البيت ما لا يتم معناه إلاّ بالذي يليه، وفهمت ما تضمنه الكتاب أي ما اشتمل عليه وكان في ضمنه»[3]، فهو يتطرق في الصحاح إلى التضمين في الشعر، والتضمين جعل الشيء باطن شيء آخر وإيداعه إيّاه ويقال ضمن فلان ماله خزانته. فتضمنته هي، فالمال مُضَمَّنٌ والخزانة مُضمَّنٌ فيها وهي أيضاً متضمنة المال والمال متضمن وضمن الشيء تحمل به[4]، وهذه المعاني اللغوية السابقة لها علاقة بالمعنى الاصطلاحي، إذ يعد المعنى الأول قاعدة ينطلق منها المعنى الثاني وهذا ما سيتضح في ما سيرد من تعاريف اصطلاحية.

ويدل مصطلح التضمين على دلالات متباينة بحسب المادة التي استعمل فيها فنراه في كتب البلاغة في باب (التضمين والاقتباس، وفي مادة العروض في باب (عيوب القوافي)، كما أنه يدخل في أبواب النحو مثل: باب الحروف، والفعل المتعدي واللازم)، ويكون في الأسماء والأفعال والحروف، إلاّ أنّه في الأفعال أظهر لوجود قرينة لفظية توضحه وقد ورد في كلام العرب شعراً ونثراً، وكذلك في القرآن الكريم[5]، ومهما يكن فإننا نستطيع تحديد مفهوم التضمين النحوي فيما يلي:

والتضمين عند الزركشي (ت 794هـ): "إعطاء الشيء معنى الشيء، وتارة يكون في الأسماء وفي الأفعال وفي الحروف"، ويقول السيوطي (ت 911هـ): "التضمين هو إعطاء الشيء معنى الشيء ويكون في الحروف وفي الأسماء وفي الأفعال – وقال في موضع آخر: "إيقاع لفظٍ موقع غيره لتضمنّه معناه" وهو رأي الأشموني (ت 929هـ) إذ قال: "التضمين: إشراب اللفظ معنى لفظ آخر وإعطاؤه حكمه: لتصير الكلمة تؤدّي مؤدى كلمتين"، وممّن ذهب المذهب نفسه أبو البقاء الكفوي (ت 1094هـ) وهو وإن ذكر بدءاً أن التضمين يكون في الفعل لكنّه

استدرك الأمر وجعله يشمل اللفظ كله، إذ قال: "التضمين هو إشراب معنى فعل لفعل، ليعامل معاملته، وبعبارة أخرى: هو أن يحمل اللفظ معنى غير الذي يستحقه بغير آلة ظاهرة".

ومن ثمَّ صرَّح بعد ذلك بعدم اقتصار التضمين على الفعل حسبُ، إذ قال: "ولا اختصاص للتضمين بالفعل، بل يجري في الاسم أيضا... وجريانه في الحروف ظاهر"[6].

وقال الدكتور عباس حسن: "التضمين هو أن يُستعمل اللفظ في معناه الأصلي وهو المقصود أصالة لكن قصد تبعية معنى آخر يناسبه من غير أن يستعمل فيه ذلك اللفظ أو يقدر له لفظا آخر"[7] ويرى الزعبلاوي أن التضمين: "هو إشراب لفظ آخر وإعطاؤه حكمهُ"[8].

وقد قرر النحاة أن التضمين ركن من أركان التعليل لبعض المسائل النحوية ولكي يتضح مفهوم التضمين في النحو راح فريق من النحاة يفرق بينه وبين مصطلحات أخرى يمكن أن يلتبس بها كالتقدير والعدل ،و الفرق بين التضمين والعدل في قول ابن الدهان: «أن العدل هو أن تريد لفظا فتعدل عنه إلى غيره كعمر من عامر وسحر من ساحر، والتضمين أن يحتمل اللفظ معنى غيره الذي يستحقه بغير آلة ظاهرة»[9].

ومهما يكن فإننا نستطيع أن نحدد التضمين النحوي بأنه إشراب كلمة معنى كلمة أخرى فتؤدي وظيفتها في التركيب، وهو مفهوم يمكن أن يكون ضربا من التوسع في اللغة، فإن أدى حرف معنى حرف آخر فهو تضمين، وإن أدى فعل لازم وظيفة فعل متعد فهو تضمين، وإن أشرب الاسم معنى الحرف وأدى وظيفته في التركيب فهو تضمين؛ فباب التضمين واسع في اللغة العربية الأمر الذي جعل ابن جني يقول: "ووجدت في اللغة من هذا الفن شيئًا كثيرًا لا يكاد يحاط به، ولعله لو جمع

أكثره لا جميعه لجاء كتابًا ضخمًا، وقد عرفت طريقه فإذا مر بك شيء منه فتقبله وأنس به، فإنه فصل من العربية لطيف"[10].

أنواع التضمين النحوي: يعتري التضمينُ أقسامَ الكلمة من فعل واسم وحرف فقد يتضمن لفظ منها معنى لفظ آخر فيعطى حكمه في الإعمال والإلغاء، وهذا اللفظ قد يكون فعلا متضمنا معنى فعل آخر وتندرج تحته أقسام، وقد يكون اللفظ اسما متضمنا معنى اسم آخر، وقد يأتي اللفظ حرفا متضمنا معنى حرف آخر، من خلال ذلك أمكن لنا أن نتبين بداية أن أقسام التضمين ثلاثة، تضمين في الفعل وتضمين في الاسم وتضمين في الحرف، وسيأتي تفصيل ذلك في ما يأتي بحول الله.

أولا: تضمين الفعل: يعرِّف ابن جني التضمين في الأفعال فيقول: "اعلم أن الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر، وكان أحدهما يتعدى بحرف، والآخر بآخر فإن العرب قد تتسع فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه إيذانا بأن هذا الفعل في معنى ذلك الآخر، فلذلك جيء معه بالحرف المعتاد مع ما هو معناه"[11]، وهنا يشير ابن جني هنا إلى أن التضمين ضرب من التوسع في العربية، وذلك كقول الله عز وجل: **﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ (البقرة187)**، فأنت لا تقول: رفثت إلى المرأة، وإنما تقول رفثت بها أو معها، لكنه لما كان الرفث هنا في معنى الإفضاء تعدى أفضى بـ (إلى) كقولك: أفضيت إلى المرأة، جئت بـ (إلى) مع الرفث إيذانا وإشعارًا أنه بمعناه[12] ومن المواضع التي ورد فيها تضمين الفعل معنى فعل آخر الفعل (تم) نحو قولهم: (تتم تسعة بهذا عشرة) بمعنى تصير التسعة بهذا عشرة والفعل (كمل) نحو قولهم: (كمل زيد عالما) بمعنى صار زيد عالما[13]، الفعل (تمثل) نحو قوله تعالى: **﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ (مريم 17)** أي بمعنى صار كما أن من نماذج تضمين الفعل معنى

فعل آخر ما ذكره السيوطي من أن عشرة أفعال تتضمن معنى صار منها (عاد آل، رجع، استحال، تحول ارتد، قعد)[14]، وترد الأفعال(كان، أصبح، أضحى أمسى ظل) بمعنى صار كما ورد ذلك في قوله تعالى: **﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثًّا﴾ (الواقعة 5و6)**، وقوله تعالى: **﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (آل عمران 103)** إذ الفعلان كان وأصبح تضمنا معنى الفعل صار.

ومن الأفعال المتضمنة معنى أفعال أخرى، ما تضمن معنى (بئس ونعم) في الدلالة على المدح والذم وهما فعلان جامدان لإنشاء المدح والذم، ملازمان لصيغة واحدة مختلفة عن سائر الأفعال بعدم التصرف، لما تضمناه من زيادة على معنى الخبر تكمن في المبالغة في معنى المدح أو في معنى الذم[15] في قوله تعالى: **﴿بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقًا﴾ (الكهف 29)**، ومن الأفعال التي تضمنت معنى (بئس ونعم) الفعلان (لا حبذا وحبذا)، وقد اجتمع ذلك في قول زياد بن منقذ العدوي:

ألا حبذا عاذري في الهوى ولا حبذا الجاهل العاذر

ويقول سيبويه إن حب فعل وذا فاعله، ويلزم الإفراد والتذكير لكونهما كالأمثال التي لا تغير[16].

ومن الأفعال المتضمنة معنى فعل آخر، ما تضمن معنى (القسم)، إذ القسم أسلوب من أساليب التعبير في اللغة العربية، الغرض منه تأكيد الكلام، وتثبيته لدى السامع، ويؤدى عن طريق أدوات خاصة به منها ما يكون حرفا (كالباء، الواو التاء)، وتتعلق هذه الأحرف بفعل محذوف دال على القسم يقدره النحاة بـ (أقسم أو أحلف) ومنها ما يكون اسما (كأيمن الله، لعمر الله، يمين الله عهد الله، أمان الله).

وفي اللغة أفعال تضمنت معنى فعل القسم وليست صريحة فيه، لكنها تجري مجراه نحو (شهد علم، أخذ، آلى، كتب)، يقول ابن يعيش: "فاعلم أن من الأفعال

أفعالا فيها معنى اليمين فتجري مجرى- أحلف- ويقع الفعل بعدها كما يقع (والله) وذلك: أشهد- أعلم- آليت"[17].

ومن مظاهر تضمين الفعل معنى الفعل تضمين الفعل (رأى) معنى الفعل أيقن والدليل على ذلك قول الشاعر حداش بن زهير بن ربيعة:

رأيت الله أكبر كل شيء محاولة، وأكثرهم جنودا

فاستعمل (رأى) فيه لليقين، وقد تستعمل (رأى) بمعنى ظن كقوله تعالى: **﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ (المعارج 6)** أي يظنونه، وتأتي كذلك بمعنى (حلم)، أي رأى في منامه، ومن تضمين فعل معنى فعل آخر تضمين الفعل (علم) معنى (ظن) ويمثل لها العلماء بقوله تعالى: **﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ (الممتحنة 10)** والفعل (علم) إذا كان بمعنى الظن تعدى إلى مفعولين، ومفعولاه في الآية هما الضمير (هن) المتصل بلفظ (علمتموهن)، والثاني هو لفظ (مؤمنات).

ومن أوجه التضمين في الفعل أيضا، إجراء اللازم مجرى المتعدي، والعكس فمن الملاحظ أن التضمين يدخل في النوعين، بحيث يجعل اللازم متعديا والمتعدي لازما، وبعبارة أخرى إنّ الفعل المتعدي قد يتضمن معنى فعل لازم فيأخذ حكمه ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: **﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ (النور 63)** أي يخرجون، ذلك أن (خالف) يتعدى بنفسه فلما ضمن معنى (خرج) عدي بحرف الجر "عن"، ومن شواهدهم الشعرية قول ذي الرمة:

وإن تعتذر بالمحل من ذي ضروعها إلى الضيف يجرح في عراقيبها نصلي

فقد ضمن (يجرح) معنى (يفسد)، وجرح متعد، وفسد لازم فضمن المتعدي معنى اللازم بدليل تعديته بحرف الجر "في"[18]، ومثل ذلك قالوا في الفعل اللازم إذ جعلوا التضمين وسيلة من وسائل تعديته ومن أمثلتهم على ذلك قوله تعالى: **﴿وَلَا**

تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ (البقرة 235) أي لا تنووا لأن عزم لا يتعدى إلاّ بحرف الجر (على) فتقول عزمت على كذا[19].

وقد يضمن الفعل معنى الحرف ومثال ذلك (ليس) الناسخة حملا لها على (ما) المهملة وذلك لإفادتهما معنى واحد وهو النفي وهي في هذه الحال حرف عند بعض النحاة ومنهم ابن السراج، ابن شقير، وأبو علي الفارسي بمنزلة (ما) النافية للحال، وحجتهم أن (ليس) تؤدي معنى النفي الذي يؤدى بأحرف مثل: (ما، لم، ما لن، ولا) وإنما جعلت بمنزلة (ما) لدلالتها على نفي الحال مثلها، أو على نفي الاستقبال، ولأن خبرها يقترن بـ (إلاّ) الدالة على الحصر فتهمل حملا على (ما) عند اقتران خبرها بـ (إلاّ) نحو قولهم: «ليس الطيب إلاّ المسك»، ويرى سيبويه أن استعمال (ليس) في هذه الصورة لغة لبني تميم أهملت لانتقاض خبرها بـ (إلاّ) الدالة على الإثبات والتوكيد فزال النفي عنها[20]، ومن صور تضمين الفعل معنى الحرف أيضا، تضمين (عسى) معنى (لعل) وإعمالها عملها في نصب الاسم، ورفع الخبر فقد اختلفت في (عسى)، فرأى الجمهور أنها فعل ماض مطلقا، بدليل اتصاله بتاء الفاعل، نحو قوله تعالى: **﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾ (محمد 22)**، ويرى الكوفيون ومعهم ابن السراج أن (عسى) حرف مطلق دال على الرجاء إذ تلاها اسم ظاهر أو إذا اتصل بها ضمير رفع، وتكون حرفا بمنزلة (لعل) إذا اتصل بها ضمير نصب، فتضمن معناها في الدلالة على الرجاء، ويجوز أن يعمل عملها في نصب الاسم ورفع الخبر ومن ذلك قول صخر بن عود الحضرمي[21]:

فقلت عساها نار كأس وعلها تسكي فآتي نحوها فأعودها

ومما يدل على تقارض (عسى ولعل) أن (لعل) يجوز في خبرها أن يقترن بـــ (أن) المصدرية كما هو الشأن في خبرها (عسى) نحو قوله تعالى: **﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾ (الإسراء: 08).**

ثانيا: تضمين الاسم: معروف جدا لدى النحاة أن الاسم قسمان معرب ومبنـــي فالمعرب أصل والمبني فرع عليه وفي عرفهم أن كل ما جاء على أصله لا يســأل عن علته، ولذلك فهم لا يسألون عن سبب إعراب الاسم لأن الإعراب أصل فيــه ولكن إذا خرج عن أصله إلى البناء فلا بد من تعليل هذا البناء وقد عللوا أســباب البناء للأسماء في رأيهم وجعلوها تتلخص في النقاط التالية كما قال ابن مالك :

والاسم منه مـــــــعرب ومبني	لشبه من الحـــــروف مدني
كالشبه الوضعي في اسمي جئتنا	والمعنوي في متى وفي هنا
وكناية عن الـــــــــــفعل بلا	تأثر، وكافـــــتقار أصلا

وبذلك نستطيع أن نصنف الأسماء التي عُلل بناؤها على أساس تضميني إي إنها بنيت لعلة الشبه بالحرف أو شبه الوضع أو شبه المعنى إلى أسماء استفهام وأسماء إشارة وأسماء شرط، وظروف، فأسمـــاء الاستفهام كما قرر النحاة من المبهمـــات التي تعرف بالاستفهامية ولما جاءت هذه الأسماء المبنية خارجة بذلك عن الأصل الذي ينبغي أن يكون في الأسماء وهو الإعراب، فلا بد من تعليـــل ســـبب بنائهـــا ويبدو أن سبب بنائها هو تضمنها لمعنى حرف الاستفهام وهو الهمزة، وذلـــك أن الهمزة هي أصل حروف الاستفهام، قال الأنباري: "وأما (أين) و(كيف) فإنما بُنيـــا على الفتح لأنهما تضمنا معنى حرف الاستفهام" وقال ابن يعـــيش: "وأمـــا (أيـــن) فظرف من ظروف الأمكنة وهو مبني لتضمنه همزة الاستفهام"، كما نجد أن بعض أسماء الاستفهام تتضمن معنى آخر غير الاستفهام؛ مثل متـــى التـــي تـــدل علـــى الزمان[22]، في قوله تعالى: **﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (يونس48)** وأيـــن

تدل على المكان في قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ (التكوير 26)، فانظر إلى أن التضمين موجود في هذا النوع من الأسماء وهو الذي جعله مبنيا، غير أن الذي يعنينا هو هذا التضمن نفسه، ومنه نقول بأن الاسم يمكن أن يتضمن معنى من حرف أو غيره.

أما أسماء الإشارة فقد افترض النحاة أن الإشارة واحدة من المعاني شأنها في ذلك شأن الاستفهام والنفي والشرط والاستثناء والنداء وما إلى ذلك، واسم الإشارة مبني دائما إلاّ إذا دل على المثنى مذكرا أو مؤنثا، فإنه يعرب حينئذ إعراب المثنى[23]، واسم الإشارة يشبه حرفا كان من حقه أن يوضع لأن المعاني تعاد بالحروف لكنّه لم يوضع شبهاً معنوياً فيتضمّنه ويأخذ حكمه فيصير مبنيّاً، واسم الشرط واسم الاستفهام يشبهان حرفا موجوداً هما همزة الاستفهام وإن الشرطية واسم الفعل يشبه الفعل أو الحرف لأنّه يؤثّر ولا يتأثّر مثلهما، واسم الموصول أيضاً يشبه شبهاً افتقاريا من حيث أنّه يحتاج إلى صلة لتبين معناه كما يحتاج الحرف إلى اسم أو فعل لبيان معناه [24]، ولما كان قد وضع لهذه المعاني أدواتها افترضوا قياسا على ذلك أن الإشارة كان ينبغي أن يوضع لها حرف يدل عليها ولما لم تسعفهم النصوص في الكشف عن هذا الحرف قالوا كان ينبغي أن يوضع للإشارة حرف ولكنه لم يوضع، وهذا الافتراض مبني على فكرة الأصل والفرع ولما اطمأنوا لهذا الافتراض عللوا بناء أسماء الإشارة مثل: (هنا، هؤلاء) لتضمنها معنى حرف لم يوضع قال الأنباري: "وأما (هؤلاء) فإنما بنيت لتضمنها معنى حرف الإشارة وإن لم ينطق به لأن الأصل في الإشارة أن تكون بالحرف كالشرط والنفي والتمني والعطف، إلى غير ذلك من المعاني إلاّ أنهم لما لم يفعلوا ذلك ضمنوا (هؤلاء) معنى حرف الإشارة، ولا يخفى هنا أن تعليلهم هذا مبني على الجدل المنطقي وليس تعليلا لغويا، ويبدو أن أبا علي الفارسي لم يقتنع بما ذهب

إليه النحاة في تعليل بناء أسماء الإشارة لأنها عنده مبنيـــة لتضـــمنها معنـــى (أل) العهدية و(أل) حرف وبذلك تكون أسماء الإشارة مبنية عنده لتضمنها حرفا موجودًا وليس لتضمنها معنى حرف غير موجود"[25]، كما يجب الإشارة إلـــى أن بعـــض أسماء الإشارة تفيد معنيين مثل: (هنا) و(ثَمّ) فهما تفيدان الإشارة مع الطرفية فأمـــا (هنا) فهي اسم إشارة لمكان قريب مثل: هنا العلم والأدب، وبسبب دلالتهـــا علـــى المكان مع الإشارة دخلت في عداد ظروف المكان فهي اسم إشارة وظرف مكـــان معا أما (ثَمّ) فهي اسم إشارة للمكان البعيد[26].

أما أسماء الشرط فإن الشرط أحد الأساليب العربية المعروفـــة، لـــه أحكامـــه وأدواته، وهو إما حروف وإما أسماء، والحروف هي: (إن، إذ ما، لو، إن)، وإمـــا أسماء مثل: (من، ما، مهما، متى، أيان، أينما حيثما، كيفما، أي). وهي كلها مبنية في ما عدا "أي" فهي معربة لإضافتها إلى مفرد كحالتها في الاستفهام[27]، وقد بين النحاة هذه الأدوات وتلك الأحكام في مصنفاتهم النحوية واعتقـــادًا مـــنهم بنظريـــة الأصل والفرع فقد افترضوا أن (إنْ) هي أصل أدوات الشرط ولذلك فإن ما عداها من حروف أو أسماء شرطية إنما هي فرع عليها، وهذا النـــوع بطبيعـــة الحـــال متضمن لذلك الأصل فإذا ما سألت النحاة عن سبب بناء أسماء الشرط أجابوا عـــن ذلك بأنها تضمنت معنى حرف الشرط وهو (إنْ) قال ابن الأنباري: "فأمـــا (مَـــنْ) فإنها بنيت لأنها لا تخلو: إما أن تكون استفهامية أو شرطية أو اسما موصـــولاً أو نكرة موصوفة فإن كانت استفهامية فقد تضمنت معنى حرف الاستفهام وإن كانـــت شرطية فقد تضمنت معنى حرف الشرط، ومثل ذلك بناء (متى) الشرطية في قولك: متى تقم أقم"[28]، كما نجد أن بعض أسماء الشرط مثل (من) التي تـــدل بصـــيغتها المجردة على معنى في نفسها فهي تدل على العاقل غالبا وتدل على معنى في مـــا

بعدها وهو الشرط وكلمة (ما) تدل غالبا على غير العاقل لنفسها وتدل على معنى في ما بعدها وهو الشرط، كما يدلان على التعليق والجزاء في ما بعدهما.

وهناك الأسماء المتضمنة معنى الشرط، ومنها الاسم الموصول المتضمن معنى الشرط الواقع مبتدأ، فيجوز في خبره أن يقترن بـ (فاء) جواب الشرط، كما هو الشأن في جواب الشرط أحيانا وعلل سيبويه ذلك بقوله: "وإنما جاز ذلك لأن قولك الذي يأتيني فله درهم، فيه معنى الجزاء فدخلت الفاء في خبره كما تدخل في جر الجزاء"، ووجه الشبه بين الاسم الموصول واسم الشرط هو الدلالة على الإبهام والعموم، فمتى تضمن الاسم الموصول الواقع مبتدأ معنى الشرط في إبهامه وغموضه، جاز اقتران خبره بالفاء وهو مذهب سيبويه ومعظم البصريين[29]، ومنه قوله تعالى: **﴿وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ (الطلاق 04)**، وفصل النحاة القول في اقتران خبر المبتدأ بـ (الفاء) وجعلوا اقترانه بها واجبا، إذا وقع المبتدأ بعد (أما) الشرطية نحو قوله تعالى: **﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (فصلت 17)**.

الظروف: أما الظرف فهي أسماء تدل على زمان أو على مكان وتتضمن معنى وتنقسم إلى[30]: ظروف زمان وهي أسماء تذكر لبيان زمن أو وقت حدوث الفعل مثل قوله تعالى: **﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ﴾ (هود 10)**، وظرف مكان وهي أسماء تذكر لبيان مكان حدوث الفعل، وقد وردت طائفة من الأسماء الدالة على الظرفية وهي أسماء مبنية، وقد علل النحاة سبب بنائها بالتضمين وأشهر هذه الأسماء وأكثرها دورانا على الألسنة هي: أمس، الآن، قبل، بعد، مذ ومنذ وإذا[31]، فأما (أمس) فقد علل ابن الأنباري سبب بنائها بتضمينها معنى لام التعريف، أما ابن يعيش فقال: «اعلم أن أمس ظرف من ظروف الزمان ويتضمن

اليوم قبل يومك وأنه بني لتضمنه لام المعرفة»[32]، وأما (الآن) فقد اختلف النحاة حول بنائها فذهب أبو العباس المبّرد إلى أنها إنّما بنيت لأنها في أول أحوالها معرفة بالألف واللام، وحكم الأسماء أن تكون منكورة شائعة ثم يدخل عليها ما يعرفها، فلما خالفت أخواتها من الأسماء بأن وقعت معرفة في أول أخواتها ولزمت موضعًا واحدًا بنيت لذلك، لأن لزومها بهذا الموضع ألحقها بشبه الحروف[33]، وأما قبل وبعد فبنيتا أيضا لأنهما تضمنتا معنى الحرف وعن (مذ ومنذ) قال ابن الأنباري في بنائهما: «فإن قيل فلم بنيت (مذ ومنذ) ؟ قيل لأنهما إذا كانا حرفين بنيا، لأن الحروف كلها مبنية وإذا كانا اسمين بنيا لتضمنهما معنى الحرف، كما يذكر النحاة في (إذ وإذا) أنهما ظرفان متضمنان معنى الشرط أي معنى حرف الشرط، وذكروا في سبب بنائهما شبههما للحرف في الافتقار المتأصل إلى جملة.

أسماء الأفعال: يرى البصريون أن صه وشتان، وأف وأمثالها هي أسماء أفعال لا أفعال على رأي الكوفيين فإنها تدخل في مجال الفعل ومن ثم قالوا اسم فعل أمر نحو: صه بمعنى أسكت واسم فعل ماض نحو: شتان بمعنى بَعُدَ، واسم فعل مضارع نحو أف بمعنى أتضجر، ويشبه ابن هشام أسماء الأفعال في نيابتها عن الأفعال بليت ولعل فقال: "ألا ترى أنهما نائبان عن أتمنى وأترجى ولا يدخل عليهما عامل" وأسماء الأفعال بنيت لسببين: الأول: تضمينها معنى الفعل والأصل في الفعل أن يكون مبنيا، والسبب الثاني: تضمينها معنى الحرف لأنها تشبهه في كونها تؤثر في غيرها ولا يؤثر فيها عامل.

أما في المشتقات ويمثلها اسم الفاعل، صيغ المبالغة، اسم المفعول، الصفات المشبهة، اسم التفضيل ... إلخ، وهذه المشتقات تقوم بوظيفتين في النظام النحوي وهما: وظيفة الاسم وهي الأصل ووظيفة الفعل وهي الفرع[34]، فالمصدر أصل

الاشتقاق لدلالته على الحدث والفعل، وسائر المشتقات تدل على الحدث والزمن وشأن الفرع أن يدل على معنى الأصل، ويزيد عليه زيادة هي الغرض من اشتقاقه وصياغته، نحو قوله تعالى: **﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ﴾ (البقرة 251)**، هنا نلمح أن (دفع) متضمن لمعنى الفعل وبالتالي أدى وظيفته في التركيب، فكلمة (الناس) تعرب مفعولا به للمصدر (دفع)، كذلك نحو قوله تعالى: **﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ (الروم 28)**،ويعد المصدر متضمنا معنى الفعل وعاملا عمله تعدية ولزوما على رأي الكوفيين وذاك في موضعين الأول أن يكون نائبا مناب الفعل مثل إكرام الضيف والثاني أن يتضمن معنى (أن + الفعل) عن إرادة المضي والاستقبال، أو (ما + الفعل) عن إرادة الحال[35] كما أن اسم الفاعل وصف دال على المشتق من الفعل وهو يعمل إذا كان معرفا بال التعريف أو إذا كان منونًا كما يعمل حينما يعتمد على وضع نحوي محدد، ويعمل اسم الفاعل لزوما وتعديا، فإذا كان لازما رفع فاعله فقط وإن كان متعديا رفع الفاعل ونصب المفعول به، كما يقوم بوظيفتين، إحداهما أصلية كوظيفة الاسم والثانية فرعية كوظيفة الفعل مثل قوله تعالى: **﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ (الزمر22)** وقوله أيضا: **﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ (الكهف 18)**، ففي الآية الثانية كلمة (ذراعيهْ) مفعول به لاسم الفاعل والفاعل ضمير مستتر تقديره (هو)، وباسط في الوقت نفسه صفة الكلب واسم المفعول مشتق من الفعل المبني للمجهول كقوله تعالى: **﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ، وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ (القلم 2و3)** يرفع نائب الفاعل فقط إذا كان فعله متعديا إلى مفعول واحد، ويرفع نائب الفاعل وينصب المفعول به، إذا كان متعديا لمفعولين[36].

واسم التفضيل لفظ مصوغ على وزن (أفعل) لدلالة غالبا على زيادة في الموصوف على غيره في الفعل المشتق منه، نحو: محمد أكرم القوم، ويُصَاغ على

وزن (أفعل) لفظا، أو تقديرا نحو: (خير شر) ويشترط النحاة في الفعل الذي يصاغ منه اسم التفضيل شروطا هي: أن يكون فعلا ثلاثيا مجردا متصرفا، تاما، مثبتا ومبنيا للمعلوم، غير دال على عيب ظاهر، قابلا للتفاوت ويعمل اسم التفضيل عمل فعله، فيرفع ضميرا مستترا أو فاعلا ظاهرًا، بشرط أن يصح وقوع فعل بمعناه موقعه فيكون ذلك في موضع وقع فيه صفة لاسم جنس مسبوق بنفي أو شبهة وكان مرفوعه أجنبيا من الموصوف، وكان مفضلا على نفسه في اعتبارين، ويمثل النحاة له بقولهم: ما رأيت رجلا أحسن في عينه الكحل منه في عين زيد.

ومن مظاهر تضمين الاسم في معنى اسم آخر، الحمل على المعنى؛ يقول ابن جني في قضية الحمل على المعنى: "اعلم أن هذا الشرج (النوع) غور من العربية بعيد، ومذهب نازح فسيح، وقد ورد به القرآن وفصيح الكلام، منثورًا ومنظومًا كتأنيث المذكر، وتذكير المؤنث، وتصور معنى الواحد في الجماعة والجماعة في الواحد، وفي حمل الثاني على لفظ قد يكون عليه الأول، أصلا كان ذلك اللفظ أو فرعا وغير ذلك"[37]، فمن تذكير المؤنث قوله تعالى: **﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ (الأنعام 78)**، أي هذا المرئي ونحوه، وقالوا في قوله سبحانه وتعالى: **﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف 56)**، إنه أراد الرحمة هنا المطر، ومنه قول الحطيئة:

ثلاثة أنفس وثلاث ذود لقد جار الزمان على عيالي

ذهب بالنفس إلى الإنسان فذكر، ويعني بثلاثة، ويعني بثلاثة أنفس نفسه وزوجته وابنته مليكة[38].

ثالثا: تضمين الحرف: تناول اللغويون الحروف في اللغة العربية من مختلف جوانبها، فقد تناولها النحويون من عدة نواح من حيث إعمالها وإهمالها، وزيادتها وحذفها وشروطها ومعانيها، ولعل من الظواهر التي تطبع أسلوب الجملة في

تركيبها النحوي استعمال حرف بمعنى حرف، ويسمى ذلك بالتضمين أو الإحـــلال أو النيابة أو التقارض، وهذه الظواهر تشابه وتترابط فيما بينها بعدة أوجـــه لأنهـــا تدور في فلك علوم اللغة، بيد أن هذا الترابط لا يمنع أن تمتاز كل ظاهرة لغويـــة عن غيرها بسمات خاصة لا تشاركها فيها الظواهر الأخرى، وقد اهـــتم القـــدماء والمحدثون بتلك الظاهرة، وتناولها النحاة قديما وحديثا وحقيقـــة نيابـــة الحـــروف بعضها عن بعض فتتلخص في مذهبين[39]:

حروف نائبة عن جمل لأجل الاختصار: ونقصد بها حرف النفـــي والاســـتفهام والعطف، والاستثناء والتمني وما أشبهها قال ابن جني مفسرًا ما نقله أبـــو علـــى الفارسي: إنما دخلت- أي الحروف الكلام لضرب من الاختصار، هو أنك إذا قلت: ما قام زيدٌ فقد أغنت (ما) عن (أنفي) وهي جملة من فعل وفاعل وإذا قلت: قام زيدٌ وعمر فقد نابت الواو عن (أعطف)، وإذا قلت: ليت لي مالاً، فقد نابت (ليت) عـــن (أتمنى). وإذا قلت: هل قام أخوك؟ فقد نابت (هل) عن (استفهم).

ومن الواضح أن الحروف السابقة قد نابت عن الجمل من قبيل التضمين، بمعنى أنها تضمنت جملاً محذوفة سدت مسدها في السياق.

حروف نائبة عن حروف أخرى اقتضاها الاستعمال: فهي حـــروف الجـــر أو حروف الصفات، إذ إن هذه الحروف كثيرًا ما تتبادل المواقع على سبيل التضمين وحقيقة الأمر في نيابة حروف الجر بعضها عن بعض تتلخص في مذهبين:

الأول: أنه ليس لحرف الجر إلاّ معنى واحد أصلي يؤديه على سبيل الحقيقة لا المجاز، فمثل الحرف (من) يؤدي معنى واحدا حقيقيا هـــو (الابتـــداء)، فـــإن أدى الحرف معنى آخر غير المعنى الواحد الأصلي الخاص به، وجب القول بأنه يؤدي المعنى الآخر الجديد، إما تأدية مجازية، أي من طريق المجاز لا الحقيقـــة، وإمـــا تأدية تضمين أي تضمين الفعل أو العامل الذي يتعلق به حرف الجر.

ومن أمثلة على المجاز: الحرف (في) معناه الحقيقي الظرفية مثال ذلك: «الماء في الكوب» ونفهم من هذا أن الكوب يحوي بين جوانبه الماء، أما إذا قلنا: «غـــرد الطائر في الغصن»، فإننا نستطيع أن نفهم أن الغصن يحوي في طياتـــه الطـــائر ولكن يكون فوقه أو عليه، فالحرف (في) لم يؤدي معناه الحقيقي والمعنى الجديـــد هو الاستعلاء أو الفوقية، الذي يختص به الحرف (على) وهكذا فقد أدى الحـــرف (في) معنى ليس مع اختصاصه والاختصاص أن نقـــول: (غـــرد الطـــائر علـــى الغصن).

ومن هنا تحقق للحرف (في) الشرطان اللذان لا بد من توافرهمـــا وتحقيقهمـــا لاستعمال المجاز فالظرفية والاستعلاء كلاهما يقتضي التمكن والثبات، فحين يسمع قول القائل: «كنت في الصحراء ونفذ ما معي من ماء، وكدت أموت مـــن الظمـــأ حتى صادفت بئرا، شربت من مائها العذب ما حفظ حياتي التي تعرضت للخطـــر في يومين ...»، سيدرك سريعا معنى الحرف (من) الذي تكرر بمعان لغوية كثيرة هي: بيان الجنس (من الماء) والبيئة (الظمأ)، والبعضية (من مائها)، والابتداء (من يومين)، فكل واحد من المعاني السالفة يقفز إلى الذهن بمجر سماع حـــرف الجـــر خلال جملته، وهذا علامة حقيقية[40]، كما يثبت النحاة أن للحروف معـــاني زائـــدة على معانيها الكثيرة الدوران في الكلام الفصيح وقد يفسر هذا النوع مـــن أنـــواع التضمين بنيابة الحروف بعضها عن بعض، وقد تناول النحاة مسألة نيابة الحروف قديما، فهذا الفراء يقول: وقد تضع العرب الحرف في غير موضعه إذا كان المعنى معروفا.

وأورد الهروي أن حروف الإضافة قد يدخل بعضها مكان بعض، وأورد أمثلة من القرآن والشعر ورأى المالقي أن الحروف لا ينوب بعضها عن بعـــض إلاّ إذا كان معناها واحدا، ومعنى الكلام الذي يدخلان فيه واحدا، أو رجعًا إليه ولو علـــى

بعد[41]، وعلى الرغم من ذلك انقسم النحاة العرب حول قبولهم تضمن حرف الجر معنى حرف آخر، أو النيابة عنه إلى فريقين مشهورين[42]، فالبصريون يـرون أن حروف الجر لا ينوب بعضها عن بعض قياسا علـى حـروف الجـزم وأحـرف النصب، فإنها هي الأخرى لا يجوز فيها ذلك، وما أوهم ذلك عندهم: إمّـا مـؤولاً تأويلاً يقبله اللفظ كما في قوله تعالى: **﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ (طه 71)**، إنّ (في) ليست بمعنى (على) ولكنه شبه المصلوب لتمكنه من الجـذع بالحـال فـي الشيء، لذا نرى سيبويه يكرر في باب حروف الجر: "فهذا أصـله وإن اتسـعت". ومذهب البصريين في هذا الشأن هو: (التجوز في الأفعال أولى من التجـوز فـي الحروف) والكوفيون يرون جواز تضمن حرف الجر معنى حرف جر آخر، أو أن يكون الحرف بدلاً من غيره وعلى هذا يوافقون على وقوع التّقارض بين حـروف الجر، كون التّقارض هو تضمين متبادل بين شيئين، ويعد رأي الكوفيين هنا أيسر وأقرب للفهم والقبول، لما ورد من شواهد في القرآن والشعر وكـلام العـرب[43] وسنورد فيما يلي نموذجا من حروف الجر، والمعاني التي تؤديها وهو حرف الباء تمثيلا به لأن المقام لا يسع لأن نتحدث عن جميع حروف الجر.

فالباء حرف جر مبني على الكسر، يجر الاسم الظاهر والمضمر، لـه معـاني كثيرة تنحصر في أربعة عشر معنى منها: الإلصاق: وهو أصل معانيها، ولم يذكر له سيبويه غيره، قال: «إنّما هي للإلصاق والاختلاط ثم قال: فما اتسع من هذا، في الكلام، فهذا أصله، قيل وهو معنى لا يفارقها»، وذكر ابن مالك أن الباء في نحو: مررت بزيد، بمعنى "على"[44]، بدليل قوله تعـالى: **﴿وَإِنَّكُـمْ لَتَمُـرُّونَ عَلَـيْهِمِ﴾ (الصافات 137)** ومن معانيها الاستعلاء: أي أن تكون بمعنى على، مثال ذلك قوله تعالى: **﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ (المطففـين 30)** بمعنـى إذا مـروا علـيهم يتغامزون ومن معانيها الاستعانة: وذلك عندما تدخل على آلة الفعل، نحو: «كتـب

بالقلم»، ومن معانيها أيضا السببية والتعليل: وهي الداخلة على سبب الفعل وعلته التي من أجلها حصل[45]، نحو: (مات بالجوع)، ومنه قوله تعالى: **﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾ (العنكبوت 40)**، ومن معانيها المصاحبة: أي بمعنى: "مع"، نحو: (بعتك الفرس بسرجه، والدار بأثاثها) ومنه قوله تعالى: **﴿اهْبِطْ بِسَلَامٍ﴾ (هود 48)** أي مع سلام ومن المعاني أيضا القسم: وهي أصل أحرفها، ويجوز ذكر فعل القسم معها نحو: «أقسم بالله»، ويجوز حذفها نحو: (بالله لأجتهدن)، ومن المعاني البدل: وهي التي تدل على اختيار أحد الشيئين على الآخر، بلا عوض ولا مقابلة كحديث: (ما يسُرني بها حُمْرُ النّعم)، وقول بعضهم: (ما يسرني أني شهدت بدرًا بالعقبة)، أي: بدلها[46]، وقوله تعالى: **﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ (المائدة 45)**، ومن المعاني الظرفية: وعلامتها أن يحسن في موضعها "في"[47] نحو قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ﴾ (آل عمران 123)**، ومن المعاني التبعيض: وعبر بعضهم عن هذا بموافقة "من" يعني التبعيضية، وفي هذا المعنى خلاف، وممن ذكره الأصمعي، والفارسي في (التذكرة) ونقل عن الكوفيين، وقال به القتبي وابن مالك. واستدلوا على ذلك بقوله تعالى[48]: **﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ (الإنسان06)**، ومن المعاني المجاوزة: وعبر بعضهم عن هذا بموافقة "عن". وذلك كثير بعد السؤال نحو: قوله تعالى: **﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ (الفرقان 59)**، ومعنى أخير التعدية: وتسمى باء النقل، فهي كالهمزة في تصيرها الفعل اللازم متعديا، فيصير بذلك الفاعل مفعولا، كقوله تعالى: **﴿ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ﴾ (البقرة 17)**، أي أذهبه.

خاتمة: من خلال كل هذا الذي تناولناه من تعريف للتضمين ومن أشكاله ومن دلالاته يتبين لنا أن التضمين ظاهرة بلاغية لافتة للنظر في الدرس البلاغي والدرس النحوي العربي جديرة بأن يتوقف عندها الدارسون، ولذلك كان للعلماء الأولين بها عناية، وتناولوها من زاوية الأصل والفرع وقسموها بحسب عناصر

الكلمة، ونظروا في حالاتها، وبينوا الدلالات التي تؤديها في العربية ولذلك أيضا كان للعلماء المتأخرين توقف عندها، فكان وقوفهم مرة ليعزز ما ذهب إليه الأولون ومرة ليعدل أو ينقد فكر الأولين من خلال ترجيح رأي على رأي آخر، أو لبيان نقص في رأي وتبيين ما يراه المحدثون أفضل وقد لاحظنا أن هذه الظاهرة مجال الدرس تكون في الأفعال ويقع فيها التضمين بل وتتنوع مظاهر التضمين الفعلي وتكون في الأسماء وتتعدد مظاهر التضمين الاسمي وتكون في الحروف وتكثر مظاهر التقارض الحرفي، وكل هذه المقولات إنما تجعلنا نقول أخيرا إن هذا الباب من الدرس اللغوي العربي ليدلنا على أن التضمين واحد من أوجه التوسع في المعنى في العربية.

الهوامش:

1- الأزهري أبو منصور، تهذيب اللغة، تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ج 2، مادة (ض، م، ن)، ص 49.

2- ابن منظور، لسان العرب، مادة (ض م ن)، دار صادر، بيروت ط1، 2000، ص 257.

3- محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، مادة (ض، م، ن)، مكتبة لبنان بيروت، ص 161.

4- ناظم علي عبادي، التعدية بالتضمين إلى مفعولين في أفعال القرآن الكريم، جامعة البصرة- كلية الآداب قسم اللغة العربية-، ص 14.

5- بلقاسم بلعرج، ظاهرة توسع المعنى في اللغة العربية نماذج من القرآن الكريم، جامعة قالمة ص 11.

6- الكفوي، الكليات، ص 266، نقلا عن: مازن عبد الرسول سلمان، التضمين النحوي وتوجيهاته في القرآن الكريم، كلية التربية الأساسية، قسم اللغة العربية، ص 7.

7- عباس حسن، النحو الوافي، دار المعارف، مصر، ط4، ص 564.

8- الزعبلاوي صلاح الدين، مسالك القول في النقد اللغوي، الشركة المتحدة للنشر والتوزيع دمشق، ط1، 1984، ص 191.

9- أحمد حسن حامد، التضمين في العربية، بحث في البلاغة والنحو، دار الشروق للنشر الأردن ط1، 2001. ص 43.

10- ابن جني أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق، محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، ط2، ص 210.

11- ابن جني، الخصائص، ص 308.

12- ابن جني، الخصائص، ص 308.

13- محمد بن حسن الأستربادي، شرح كافية ابن الحاجب، تحقيق، إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ج4، ط1، 1981، ص 139.

14- انظر جلال الدين السيوطي، همع الهوامع، تحقيق: عبد العالي سالم مكرم، دار البحوث العلمية، الكويت، ج4، 1979، ص 71.

15- أبو البركات الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد المكتبة العصرية صيد، بيروت، ج1، ص 97.

16- سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان، الكتاب، تحقيق، عبد السلام هارون، عالم الكتب، بيروت ج2، ص 180.

17- ابن يعيش، شرح المفصل، عالم الكتب، بيروت، ط3، ج3، ص 91.

18- أحمد حسن حامد، التضمين في العربية، ص 55.

19- أحمد حسن حامد، التضمين في العربية، ص 55.

20- أبحاث اليرموك، جامعة اليرموك، سلسلة الأدب واللغويات، مجلة نصف سنوية محكمة العدد 2، عمادة البحث العلمي، إربد، الأردن، 1991، ص 98.

21- ابن السراج، الأصول في النحو، تحقيق، عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، ج3، ط3 1996، ص 878.

22- أحمد حسن حامد، التضمين في العربية، ص 47.

23- عبده الراجحي التطبيق النحوي، التطبيق النحوي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية مصر ط2، 1991.ص 53.

24 - خليل بروبني، جميل جعفري، المرجع السابق، ص 5.

25- أحمد حسن حامد، التضمين في العربية، ص 49.

26- عباس حسن النحو الوافي، ص 328.

27- عبده الراجحي، التطبيق النحوي، ص 71.

28- أحمد حسن حامد، التضمين في العربية، ص 48.

29- أحمد حسن حامد، التضمين في العربية، ص 48.

30- ينظر أحمد أمين عبد الغني النحو الكافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000 ص 273.

31- أحمد حسن حامد التضمين في العربية، ص 50.

32- ابن يعيش شرح المفصل، ص 106.

33- أحمد حسن حامد، التضمين في العربية ص 51.

34- أحمد حسن حامد، التضمين في العربية، ص 63.

35- ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، المكتبة العصرية، ج2، بيروت ص 259.

36- أحمد حسن حامد، التضمين في العربية، ص 64.

37- ابن جني، الخصائص، ص 411.

38- ابن جني، الخصائص، ص 412.

39- أحمد حسن حامد، التضمين في العربية، ص 60.

40- عباس حسن، النحو الوافي، ج2، ص 540.

41- عبد الجبار توامة، التعدية والتضمين في الأفعال العربية، ديوان المطبوعات الجامعية الساحة المركزية (بن عكنون، الجزائر)، 03-1994، ص 93.

42- عبد الله أحمد جاد الكريم، ظاهرة التقارض في الدرس النحوي، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1 2002، ص 47.

43- المرجع نفسه، ص 48.

44- المرادي، الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق، فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1992، ص 36.

45- مصطفي الغلاييني، جامع الدروس العربية، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ج3، 2001 ص 170.

46- المرجع نفسه، ص 170.

47- المرادي، الجنى الداني في حروف المعاني، ص 40.

48- المرجع نفسه، ص 43.

سيرورة المعنى بين الاسم والمسمى في التراث النحوي العربي – رسالة البطليوسي أنموذجا –

أ. حامدة تقبايث

جامعة تيزي- وزو

يعد البحث في الصلة القائمة بين الاسم والمسمى من الأمور التي استقطبت اهتمام المفكرين والعلماء على اختلاف علومهم ومشاربهم؛ إذ لم ينحصر أمر البحث فيها على فئة اللغويين فقط، بل شغلت عقول الفلاسفة والمناطقة والفقهاء وعلماء الأصول والبلاغيين. ولما كانت الأسماء قوالب للمعاني ودالة عليها اقتضت الحكمة أن يكون بين هذه الأسماء وتلك المعاني ارتباط وتناسب راجعٌ إلى التأثير المتبادَل بين الطرفين سواء في الحسن أو القبح، الخفة أو الثقل.

عرفت مسألة الاسم والمسمى في الدراسات الألسنية بما يُعرف عند رائدها "فرديناند دي سوسير" بثنائية الدال والمدلول، وعند السيميائيين فيما يسمى بالتقرير والإيحاء؛ ناهيك عما تداوله أسلافنا القدماء في حديثهم عن مصطلحي الاسم والمسمى أمثال: (ابن تيمية، سيبويه، ابن السيد البطليوسي...) هذا الأخير الفقيه النحوي الذي خاض في مسألة الاسم والمسمى، وهو الأمر الذي يتضِّح لنا حينما نطَّلع على رسالة له جعل لُبَّ موضوعها هو الاسم والمسمى؛ هذا الموضوع وتلك الرسالة جعلانا نتساءل عن فحواهما، وذلك باستقصاء سيرورة المعنى بين الاسم والمسمى كما رآها البطليوسي[1] برأيه النحوي؛ وهذا ما يتيسر البحث عنه بمحاولة المزاوجة بين ما خاض فيه البطليوسي في رسالته– باعتبارها تندرج ضمن الدرس النحوي– وما اطلعنا عليه في البحث السيميائي المعاصر، من أجل الوصول إلى نتائج تقييمية هي إلى الصحة بالاتفاق أقرب. وعليه يرتكز الطرح الإشكالي لهذا

البحث حول مساءلة ثنائية الاسم والمسمى من زاوية المعنى الذي يمثِّل ركيزة الانتقال من الاسم إلى المسمى أو العكس؟ فكيف يشتغل المعنى في هذه الثنائية؟ وكيف تسهم الكفاءة اللغوية – النحوية– في إيصال المعنى المقصود من الاسم؟

1– رسالة تراثية وتواصل معاصر: قد يتبادر إلى الذهن تساؤل عن سر هذا العنوان؛ فنقول بأن هذا العنوان بمثابة محاولة تأصيل لهذه الرسالة التي نحن بصدد دراستها وتحليلها؛ إذ نريدها أن تكون نابعة من سيرورة تواصلية بين التراثي والمعاصر من خلال عقد تواصل معرفي بين مضمون رسالة البطليوسي وتلك الآراء التي تمخضت عنها الدراسات السيميائية المعاصرة.

فالرسالة لصاحبها الفقيه النحوي أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي، وقد تناول من خلالها علاقة الاسم والمسمى[2] نظرا إلى كثرة الخوض في هذه المسألة التي نجد لها حديثا مستفيضا في الدراسات اللسانية فيما يعرف باعتباطية الدليل اللغوي. وقد عالج البطليوسي من خلال هذه الرسالة أسئلة تتمحور حول:

– هل يصِّح القول أن أحدهما –الاسم والمسمى–هو الآخر؟

– هل الاسم هو المسمى أم أن هذا الأمر محال؟

نجد الرسالة – رسالة البطليوسي– عبارة عن إجابة من البطليوسي على ما يعتقد في مثل هذه الأسئلة عن علاقة الاسم بالمسمى –هل أحدهما هو الآخر– وقد قابل البطليوسي هذا الرأي بالاستحالة في بداية الرسالة، مشيرا إلى أن العبارة –الدال بالمصطلح اللساني–لا تعني المعبَّر عنه – المدلول– بمعنى أن الدال لا ينطبق معنىً –كلية– على المدلول، وحجة البطليوسي هنا تظهر في رأيه أنه لو كان الاسم هو المسمى لكانت الأسماء مكتفية بذاتها فتستغني بذلك عن المسمى –المعنى– فقولنا: ماء يحصل معنى الارتواء، طعام يحصل فعل الإشباع، سُمٌ يحصل فعل الموت(...) وبالتالي من يقول ومن ينطق باللغة مادامت الأسماء مكتفية في ذاتها عن معناها ! فأكيد أنه ليس هناك من ناطق بأسماء مثل: سُمٌ، نار، ماء، سيف...

بدليل أنها تحمل معاني سلبية ونطقها يعني وقوعها، وهذا ما رأى فيه البطليوسي تعصباً وخطأً في التأويل؛ لكن لماذا؟

يرى البطليوسي بأن هناك من يقول بأن الاسم هو المسمى، ليس فقط من هذا المنطلق الذي استعرضناه آنفا وإنما من زاوية أخرى مغايرة، وهنا يأتي اجتهاد البطليوسي بعد رؤيته التنافر والتباين بين هذين الرأيين في العلاقة بين الاسم والمسمى، ويتضِّح اجتهاده من خلال تقسيمه الرأي في الموقفين ضمن 04 أبواب هي:

- الباب الأول: كيف يكون الاسم غير المسمى.
- الباب الثاني: كيف يكون الاسم هو المسمى.
- الباب الثالث: كيف يكون المسمى هو التسمية.
- الباب الرابع: كيف يكون الشيء الواحد مسمى من جهة وتسمية من جهة أخرى.

والملاحَظ أنها عناوين نجد لها حديثاً مستفيضاً في الدراسات الحديثة وهذا ما سيتضح لنا أثناء تحليلنا للرسالة انطلاقا من أبوابها الأربعة.

- **الباب الأول: الاسم غير المسمى:** رأى البطليوسي من خلاله أن الاسم غير ما يعرف بالمسمى، إذ بينهما فرق وهو نوع متداول ومعروف بين الجمهور، وفي هذا النوع يكون الاسم يراد به التسمية، أما العبارة فهي دالة على المعنى المراد تقريره في نفس المخاطَب؛ فهي علاقة قائمة على التواضع والاصطلاح؛ الأمر الذي نجده في العلاقة بين الدال والمدلول في اللسانيات وهو ما يشكل مصطلح الدليل اللغوي؛ فالدال هو الصورة السمعية، أما المدلول فهو الصورة الذهنية –المفهوم–؛ ثم تأتي بعد ذلك الدراسات التي أدرجت ما يُعرف بالمرجع الذي يشير إليه المفهوم، فالسؤال عن اسم شخص ما ليس إلا لمعرفة العبارة التي يُعبَّر بها عنه، كقولنا: زيد لذلك الرجل، فاطمة لتلك المرأة.... فنشير بها إلى ذوات معينة

فالاسم هنا هو غير المسمى وإنما يُشير إليه فقط، وهنا يمكن القول بأن علاقتهما اعتباطية، ونوضِّح ذلك في المخطط التالي:

الاسم ⟸ اللفظة التي تطلق على الذات وليست هي الذات (**المسمى**).

⇓

يراد به **التسمية** ⟸ إطلاق الاسم على **المسمى**.

⇓

المعنى الذي يريد المتكلم تثبيته في ذهن المخاطَب "**إيقاع الأثر**" –**المعنى**–

فلو لم تكن التسمية تعمل عمل الفعل –قاعدة نحوية– والاسم لا يعمل عمل الفعل لكان كل اسم هو مسمى؛ بمعنى إذا سمِّي إنسان معيَّن "يموت" فإنه ميِّت وإذا سمِّي "يحيا" فإنه يحيى ! ولو كان الاسم هو المسمى لكان الله تسعة وتسعين شيئاً وهذا كفر بإجماع.

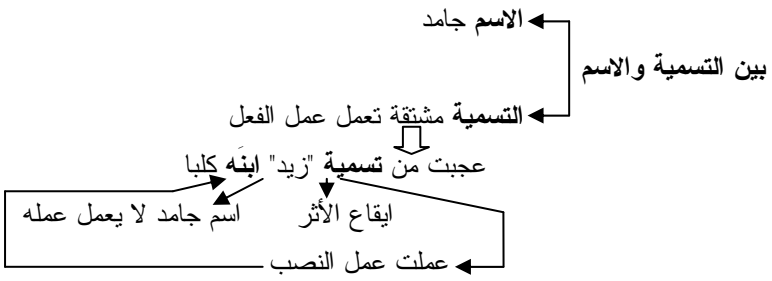

مخطط يبيِّن الفرق بين الاسم والتسمية

الباب الثاني: الاسم هو المسمى: ويتحقق هذا التطابق بين الاسم والمسمى على معانٍ ثلاث منها:

- **حينما يجري مجرى المجاز.**
- **ما يجري مجرى الحقيقة.**

ولقد تنبه المفكرون المسلمون إلى تميُّز العلامات اللغوية بقابليتها للتحول الدلالي فيما يعرف بالاتساع، الاشتراك، التضاد، المجاز(...)[3]. ومن موجبات وضع الاسم هو المسمى نجد:

1- غياب بعضها عن مشاهدة الحواس لها، فهنا تنوب في الأذهان مناب الشيء المغيَّب عنها مناب المسميات أنفسها، وهذا بموجب الاتفاق والتواضع فقولنا: (رجل، ولد، فرس، جبل...) فهي أسماء تكون صورتها في ذهن المخاطِب هي نفسها في ذهن السامع، وهنا يكون الاسم هو المسمى.

2- هذا النوع يكون فيه الاسم لازم للمسمى، فيكون بوجوده ويغيب بغيابه فالأسماء هنا تشتق من معانٍ موجودة في المسمى، فقولنا: (حيٌّ، ميِّت، ثابت متحرك...) فزوال الحياة مثلا من اسم "حيّ" فهذا لا يؤدي إلى زوال المسمى؛ لهذا فإن الاسم والمسمى هنا يتساويان صعوداً ونزولاً، وهنا يكون من الضرورة بمكان إيجاد ضرب من التأويل.

3- تذهب العرب في هذا النوع إلى أن الاسم هو المعنى الواقع تحت التسمية فالمسمى هنا هو إسقاط للتسمية، فقولنا: (زيد) يعني أنه هو هذا المسمى بهذه اللفظة [التسمية ز، ي، د] فالمسمى (زيد) كذات. وهنا يقع الاسم والمسمى مترادفين على المعنى الواقع تحت التسمية.

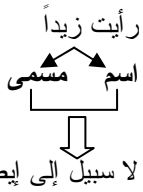

وقد رأى البطليوسي ضرورة إدخال التأويل في الوصول إلى المعنى المراد الأمر الذي أدى إلى اختلاف التأويل بين العلماء منهم: أبي عبيدة معمر بن المثنى ابن جنِّي، أبو عبيدة (...) فكل له منطلقاته التأويلية سواء من الظاهر أو من المخفي كالزيادة والإضافة، الحذف(...) وهنا يكون حال إعمال الذهن من أجل الخروج بالتأويل السليم، كأن نقول بتأويل قوله تعالى: ﴿سبِّح اسم ربِّك الأعلى﴾ فنقول: سبِّح مسمى ربِّك الأعلى؛ وكذلك قوله تعالى: ﴿وما تعبدون من دون الله إلا أسماء سميتموها﴾ أي مسميات فيكون التأويل للوصول إلى الدلالة على أنها الاسم هو المسمى أو يجوز التأويل على أن الاسم غير المسمى.

سار العرب في جعل المسمى متصورا في نفس المخاطَب بواسطة الاسم الذي يدل عليه، فقولنا (رأيت زيداً) يدل على رؤية الشخص المعني بلفظ "زيد" وهذا ما يمكن أن نراه في تأويل المجاز، فقولنا: (رأيت أسداً) يحيلنا عن طريق ضرب من التأويل الدلالي إلى معنى رؤية شخص يمتلك سمة الشجاعة. وبالنظر في الدراسات الحديثة فإنه يتراءى لنا **مفهوم الموسوعة** عند "امبرتو ايكو" وفكرة العوالم الممكنة في تقصِّي المعنى المرغوب فيه بضرب من التأويل، وكذلك نجد ابن الأعرابي يستشهد على إضافة العرب المسمى اسمه الذي يُراد به التسمية والعبارة كقولهم: (هذا ذو زيدٍ) أي صاحب هذا الاسم كأنه قيل هو سمِّي زيد. وهنا نجد لنا مجالا لعقد فسحة تأملية لِما أولته نظرية التلفظ في التداولية لمعاني الضمائر في الخطاب إذ أن الضمير بمعزل عن وروده واستعماله في الخطاب يعتبر مبهما وهذا الحديث يقودنا –كما قاد البطليوسي– إلى الحديث عن سيبويه فيما أورده من آراء حول مسألة الاسم والمسمى، ليفتح لنا مجالا لاكتشاف جوانب التأويل عنده.

يشير "نصر حامد أبو زيد" إلى أن التأويل المقصود عند سيبويه في كتابه "الكتاب" هو «الكيفية التي عالج بها سيبويه اللغة بوصفها نصاباً للمعنى السيميوطيقي، فكانت اللغة موضوع سيبويه في الكتاب، إذ أنها بمثابة النص الذي حاول القارئ اكتشاف آلياته، وصولا إلى دلالته ومغزاه»[4]. كما يرى أنّ اكتشاف اللغة/النظام يتم عبر اكتشاف عناصر التشابه وعناصر الاختلاف سواء على المستوى الصوتي أو الصرفي أو على المستوى الدلالي أو المعجمي. واكتشاف هذين العنصرين الأساسيين لا يتم إلاّ عبر عمليات وطرائق ذات طابع تأويلي في جوهرها[5]. وبالنسبة لسيبويه فإنه لا ينكر أن يكون الاسم هو المسمى من جهة ويكون غيره من جهة أخرى، لهذا فقد استعمل في كتابه كلا الأمران.

يتحدث سيبويه في باب الفاعل الذي لم يتعد إلى مفعوله عن الأسماء فأوقعها موقع المسميات نحو الذهاب، الجلوس، الضرب(...) لأن الألفاظ لا يحدَّث عنها كما أنها لا توصف لأن الأحداث تكون منها، فهو القائل: "وأما الفعل فأمثلة أخذت

من لفظ أحداث الأسماء"، وهذا يحيلنا إلى ما قامت به الباحثة "جوليا كريستيفا" في رأيها بأن السيميائيات هي دراسة الاستبدالات. وأما في حديث سيبويه عن تسمية الحروف بالظروف وغيرها **من الأسماء فهي تدل على المسميات، فقولنا: "هذا عمرو" بمعنى هذا اسم عمرو، كما يمكن القول: "جاءت القرية". كذلك قولنا: "هذه عمرو" أي:** هذه الكلمة اسم عمرو...فالحروف وكذا الظروف هي بمكانة تسميات لمسميات، وهنا يتضّح أنَّ الاسم قد يكون هو المسمى، كما قد يكون غيره على ما تقدم. ومن هذه الأمثلة يتضّح لنا أثر ما قام به سيبويه في نشوء البلاغة العربية – أثر النحو في البلاغة– فهو قد رصد الظواهر التي يتم بها العدول في الكلام، لأنه كان يتناول الجمل والملفوظات، وهذا يحيلنا إلى طرق استعمال اللغة، وخاصة إذا نظرنا في مصطلحي **التوسع والاختصار** الذين يظهران في طرق القول. فالاختصار يكون في اللفظ، أما الاتساع فيكون في المعنى، وهذا ما أدى إلى ظهور المجاز. وهنا يمكن اعتبارهما آليات موظفة من طرف سيبويه، كما كانت الظاهرة موجودة كذلك عند ابن جنِّي في القرن الرابع (ق4 هـ) فيما يعرف بأساليب التوسع على المجاز.

إن حديث سيبويه عن الظروف والضمائر يحيلنا للحديث عن مفهوم الاتساع في اللغة، مع ضرورة فهم الاتساع الذي ربما يكون بالاستناد إلى التأويل، فقولنا:

(مكر الليل والنهار) ⟸ هناك اتساع في حذف "في"، إذ أن أصله (مكر الليل في النهار).

فمفهوم الاتساع في اللغة عند سيبويه يحيلنا إلى السيرورة السيميائية التي نجدها في الدرس السيميائي المعاصر، خاصة ما تحدث عنه "شارل ساندرس بورس" من خلال تلك السيرورة بين الموضوع والممثل والمؤول، كما نجد أيضا حديث سيبويه عن (الحمل على المعنى) وهذا ما يظهر في مستوى التداول عند الغرب في فكرة **الموسوعة والسياق**؛ حيث كان للعرب تقاليد قبلية متعارف عليها، فإذا ما أراد الإنسان كتابة كلام جيِّدٍ فإنه سيستند إليها، وهنا تظهر العملية السيميائية ذات المنحى التأويلي والتي رآى "امبرتو ايكو" أنها تتجلى في مستويين، وهي تحاول أن تفسِّر العالم كأنه كتاب، وتفسر الكتب كأنها عوالم[6].

فقول العرب: (هذا البيت) نستعمله هنا بحمله على المعنى الذي يفسر بتلفظنا به، إضافة إلى الرجوع إلى تقاليد العرب. وكذا الحال بالنسبة للتذكير والتأنيث وكذا العلامات الإعرابية؛ وهنا يتضح مثال سيبويه في قوله: (هذه عمرو) والمقصود هو: (هذه الكلمة اسم عمرو) فالحمل على المعنى هو الذي استفيض الحديث فيه حاليا فيما يُعرف بالموسوعة ودور المتلقي. وحديثنا عن الرجوع إلى طريقة العرب في الحمل على المعنى يقودنا للحديث عن المجاز في اللغة –الاتساع– خاصة وأن علماء المجاز قد عادوا إلى الشعر لتفهم من أجل فهم القرآن الكريم «فالانتقال في دلالة الألفاظ من المجاز إلى الحقيقة ومن الحقيقة إلى المجاز انتقال يتم بالتعارف وهذا التعارف هو الذي يؤدي إلى تثبيت الدلالة اللغوية ويمنحها مشروعيتها الدلالية»[7].

– **الباب الثالث: المسمى بمعنى الاسم الذي يُراد به التسمية:** تختص اللغة العربية بهذا النوع، لهذا يُعتبر كملمح ثراء لها، ويظهر هذا النوع من خلال الاشتقاق الذي نقيس عليه في الفعل الذي يتجاوز ثلاثة أحرف وهو أمر متفق بين البصريين والكوفيين؛ فعندما يكون الاسم مصدرا متضمنا معنى الحدث فإنه يأتي على مثال مفعوله قياساً مطرداً مثل: انطلق انطلاقاً، منطلق/ أدخل إدخالاً، مدخلاً. والمفعول هو مدخَل كقوله تعالى: ﴿وندخلكم مُدخلا كريماً، وكذلك ينطبق على قولنا: سمَّيت الشيء أسميه تسمية فهو مسمى، لهذا نقول: "أعجبني مسمى ابنك عمراً" كما نقول: "أعجبني ابنك محمداً" فيكون الاسم والمسمى والتسمية في هذا الباب ثلاثة أسماء مترادفة على معنى واحد.

إنّ هذا الاشتقاق في اللغة يحيلنا إلى السيميوزيس الذي تحدث عنه "شارل ساندرس بورس" والسيميوزيس ينشأ من خلال السيرورة التي تنبثق عنها الدلالة وهذا انطلاقا من سيرورة الاشتقاق التي تكون انطلاقا من الفعل مروراً بالمستويات الاشتقاقية الأخرى [أزمنة الفعل، المصدر، المشتقات من الفعل...] وصولاً إلى اللفظ "الاسم" المقصود من خلال التركيب الجملي –النحوي–.

فقولنا:

أدخلَ ← يدخلُ ← إدخالاً ← **مُدخلاً.**

سيرورة اشتقاقية نابعة
من توالد الصيغ –الإنتاجية–

وهذا ما نجد له حديثا مستفيضا عند جوليا كرستيفا في حديثها عن توالد الصِّيَغ وكذا نظام الاستبدالات.

– **الباب الرابع: الشيء الواحد مسمى من جهة وتسمية من جهة أخرى:** يكون الاسم في هذا النوع يجري مجرى الجنس والنوع، فهو يقع على جميع الألفاظ التي يُعبَر بها عن المعاني كجوهر وعرض [رجل، فرس، زيد...] فكل واحد منها يُقال له اسم وهو تسمية لما تحته من معنى [الشيء المسمى] فيكون مسمى عند إضافته إلى الاسم الذي فوقه، ويكون تسمية واسماً عند إضافته إلى المعنى الذي تحته. كقولنا: "زيد، إنسان، حيٌّ" فالإنسان هو مسمى يُعتبر واسطة بين زيد وحي، إذا كان حيّاً، كما يُعتبر اسماً إذا كان يُقال له زيد [تسمية له]، أما بالنسبة لـــ "زيد وإنسان" فإنهما يقعان مسميان للحي، إذا كان يُقال على كل واحد منهما ونجد أنّ "الحيّ" هو اسم للإنسان والإنسان الذي هو مسمى له قد تساويا في كونهما اسمين لزيد، فيجوز من هذه الجهة أيضا أن يُقال: إنّ الاسم هو المسمى على ضرب من التأويل وإن كان غيره من جهة أخرى:

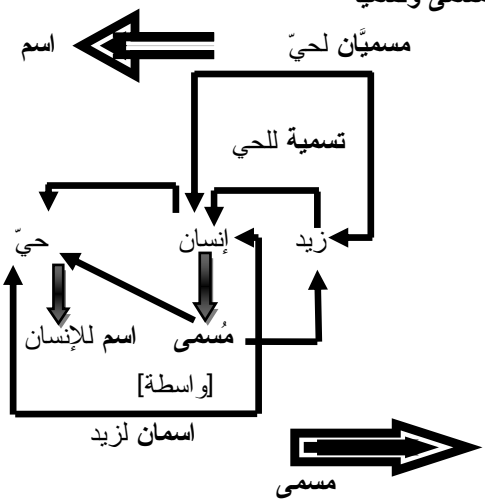

مخطط توضيحي لتعالق الاسم والمسمى والتسمية

يتضح هذا التعالق بين الاسم والمسمى والتسمية حين يكون الشيء تارة مسمى وأخرى اسما، وهنا يحضرني في هذا النوع من العلاقة بين الاسم والمسمى حديث "رولان بارث" عن الأنظمة الدلائلية في كتابه "مبادئ في علم الأدلة" أين طبَّق ثنائيات لسانية على أنظمة دلائلية: اللسان/ الكلام، الدال/المدلول، الشكل/المادة... وقد طبَّق هذه الثنائيات على أنظمة مختلفة: الطعام، اللباس، الأثاث، قانون المرور[8]. فقد تحدث عن نظام اللباس وكيف يكون هذا اللباس تارة لساناً – بالمفهوم اللساني– وتارة أخرى يكون كلاماً – بالمفهوم اللساني– ولقد كان سعي رولان بارث من خلال أطروحته هذه إلى نقد ونقض تلك المحايثة التي سادت اللغة في النظام الثنائي من منظور اللسانيات البنيوية؛ لهذا سعى الرجل –رولان بارث– إلى الانفتاح على الدلالة التي لا يمكن القبض عليها – وهذا ما انتهجته أيضا جوليا كرستيفا– ضمن سيرورة تأويلية يكون منطلقها اعتبار اللغة نظام من العلامات القابلة للتأويل، كما يمكننا الوقوف عند حديث "رولان بارث" عن نظامي التقرير والإيحاء؛ فالمستوى التقريري في الدال والمدلول [الاسم والمسمى] ينتج عنه الدلالة الأولى ثم عن طريق التأويل وإعمال الذهن فإننا ننتقل إلى المستوى الإيحائي الذي

سماه "رولان بارث" بالأسطورة بنوع من الإيديولوجيا، فقولنا: "زيد إنسان حيّ" يكون "زيد" اسم لإنسان، و"الإنسان" مسمى لـــ "زيد" ولـــ "حيّ"، وهنا نكون في المستوى التقريري – بالمفهوم البارثي–:

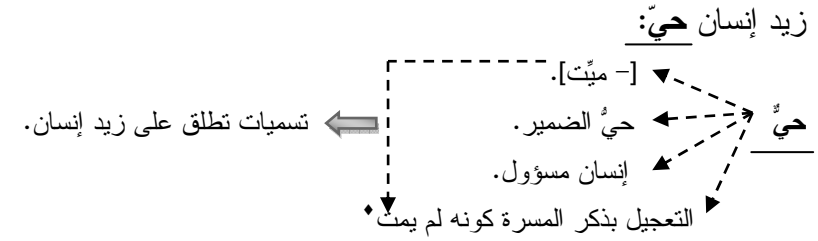

وهنا نستحضر أيضا حديث "أمبرتو إيكو" عن **التأويل والموسوعة**، إذ نجده يؤكد أن «إعادة استكشاف الفكرة الأصلية للعلامة لا يقوم على مبدأ المساواة أو التضايف الذي نسعى إلى إقامته بواسطة السنن أو حتى التوافق بين التعبير والمحتوى، وإنما على العكس من ذلك فإنها قائمة على مبدأ الاستدلال والتأويل وديناميةالسيميوزيس»[9] فحينما نقول: "زيد إنسان حيٌّ" فإن القارئ لن يكتفي بالمعنى التقريري المباشر للجملة وإنما عن طريق التأويل يكتشف المعنى المقصود من مسمى زيد بـــ إنسان حيّ وهذا ما ذهبت إليه جوليا كرستيفا في قولها بأن السيميائيات هي دراسة الاستبدالات[10].

في نهاية الرسالة انتهى البطليوسي – بعد أن بيَّن أن مسعاه كان تبيان كيفية القول إنّ الاسم هو المسمى وكيفية القول أنه غيره، وأن كل واحد من القولين صحيح– إلى أن هذه المفاهيم تتداخل دلاليا بضرب من التأويل، هذا التأويل الذي كان ولازال مصدر إلهام المفكرين الغربيين بداية من سيميوزيس بورس وصولا إلى آخر الأبحاث ضمن نظرية الموسوعة والبحوث الإدراكية التي استندت إليها سيمياء المتصل.

3– مقصدية الاسم والمسمى: بعد اطلاعنا على مضمون رسالة البطليوسي توصلنا إلى القول بإمكانية قراءة مضمون هذه الرسالة التراثية تماشيا مع آليات المنهج السيميائي الحديث؛ ضمن الحديث عن مسار السيرورة التأويلية للعلامة

–وهنا تتمثل العلامة في الاسم والمسمى– لنقف عند محطات مكنتنا من إيجاد نقاط التقاء وتقارب بين آراء البطليوسي وما وجدناه عند "بورس، رولان بارث، جوليا كرستيفا، أمبرتو إيكو..." لتتضح لنا أبعاد المستوى السيميولوجي للغة في أهم عناصرها وهما الاسم والمسمى، أو ما يُعرف بالدال والمدلول.

لكن إذا أردنا الحديث عن القصد في نشوء ثنائية الاسم والمسمى نتساءل هاهنا عن أثر القصد في نشوء العلاقة بين الاسم والمسمى؟ فهل هذه العلامة مقيدة بقصدية الأداء أو بإرادة من يصطنعها ويستعملها، أم أنها متحررة من هذه القصدية وممتنعة عن إرادة صاحبها؟.

يظهر المعنى عند القدامى ملازما للقصد ولاسيما ما اتصل بالكلام، والذي يعبِّر عن الدلالة القارة في النفس، وهي دلالة قد تُراد لذاتها وقد تُراد لشيء آخر تتمثله في ذهن المخاطَب، وهنا نخرج إلى المستوى البلاغي والتواصلي للغة ضمن التوجه التداولي[11]. كما أن المرجع عامل من العوامل التي يمكن أن نميِّز بها شكل الدال في كل من العلامات الاعتباطية والعلامات التعليلية، فقد أظهرت دراسة "أوجدن وريتشاردز" أهمية المرجع في كتابهما "معنى المعنى"، فقد حاولا مقاربة إشكالية المعنى، وقد رأيا بأنّ «نظرية العلامات عندما أغفلت تماماً الأشياء التي تحل العلامات محلها قطعت أواصرها بمناهج الإثبات العلمي»[12]. فإذا أخذنا علامة لغوية من مثل اسم "زيد" فإننا نجد أن الاسم إنما سمي اسما لكونه علامة على مسماه، قد يدل على صاحبه، لهذا انتهى بعض النحويين إلى تعريف الاسم على أنه ما دلّ على معنى في نفسه غير مقترن بأحد الأزمنة، وفي اللغة نقول: سمة الشيء أي علامته[13] وهنا نجد مجموع أسماء الأشخاص، الأمكنة، البلدان، وكذا عناوين المؤلفات، دون الاكتفاء بالنسق المعجمي أو ما يُعرف بالقاموس أو المفهوم على حد تعبير "أمبرتو إيكو"، وإنما يتوجب الخروج إلى الدلالة بالاقتضاء أو ما يُعرف بالموسوعة أو الماصدق، «إذ تعتبر الموسوعة مسلمة سيميائية، إنها المجموعة المسجلة لجميع التأويلات، ويمكن تصورها موضوعيا على أنها مكتبة المكتبات

حيث تكون المكتبة أيضا أرشيفا لجميع المعلومات غير اللفظية التي تم تسجيلها بطريقة من الطرق، من الرسوم الصخرية وصولا إلى مكتبات الأفلام... ثم إن الموسوعة باعتبارها كلية للتأويلات تتضمن أيضا تأويلات متناقضة»[14].

نجد عند العرب القدامى تنبها إلى الخاصية التداولية التي تتميز بها الأسماء على اختلافها، ومن هؤلاء نجد تنبه الجاحظ إلى الخاصية التداولية للأسماء التي تستعمل من قبل الناس فيما بينهم بغرض تحقيق أغراضهم، فالأسماء تجعل هناك ترتيبا في العملية التخاطبية كما تجعل الدلالة تنتقل من المواضعة إلى الاقتضاء، وهذا ما تحدث عنه البطليوسي في الباب الأول من رسالته في أن الاسم هو غير المسمى وإنما تحقيقاً للمواضعة والاقتضاء وفق الأغراض؛ فاسم العلم مثلا وإن اختص بشخص بعينه "زيد" مثلا أو "عمرو" فإنه قد يدل على أشخاص آخرين، وهنا تصبح علامة اسم العلم مرتبطة بالسياق الذي تظهر فيه فقولنا مثلا "أخي زيد" أو "أبوك عمرو" يقتضي أني خصصت إنسانا معينا يحمل هذا الاسم دون غيره من حاملي هذا الاسم وهذا بالاستناد إلى السياق الذي تم فيه التلفظ بهذه العبارة. إلا أنه بالنسبة للعلاقة بين الشخص الواقعي وبين اسمه تبقى علاقة اعتباطية، وإذا ما تم التفاهم بين الأشخاص لاستعمال علامات معينة من أجل التفاهم فهنا يختص المعنى بالقصد من وراء انجاز ذلك التفاهم، وهذا ما أشار إليه الجاحظ[15]. إذ يبدي الجاحظ إشارة لطيفة بخصوص أفراد الجماعة باستعمالهم أسماء ليجعلوها علامات للتفاهم. وهذا حال ما نجده متداولا فيما يعرف بـــ (كلمة السر mot de passe) وعادة ما تكون العلاقة بين الدال والمدلول (الاسم والمسمى) تعليلية كقولنا: **أبو هريرة لعلَّة حمله القطة/ الجاحظ لعَّة جحوظ عينيه/ هاشم لكونه هشَّم الثريد** ومن ثمة أصبح هذا الاسم يُطلق على هذا الشخص وذلك بكيفية اعتباطية؛ وكذا حال تسمية أسماء الأماكن فمثلا: تسمية "**مكة**" متعلِّقة بالتصور الديني عبر مراحل تاريخية، وهذا يخرجنا إلى مفهوم الموسوعة عند أمبرتو إيكو "فالشيء بوصفه علامة دالة على شيء آخر يكون هو المرجع من حيث هو ذاك الشيء الآخر المعطى ولا يتحدد

بالضرورة بمرجع الشيء الذي كان في البدء علامة دالة، لأنه ليس هو المقصود بذاته كما هو الشأن بالنسبة إلى اسم (زيد) أو (مكة)، فـــ (زيد) في الأمثلة النحوية هو فاعل لا يهم النحويين ما إذا كان شخصا بعينه، أما عند البلاغيين والسيميائيين فإنّ معرفة زيد أمر ضروري للوقوف على مقصدية الخطاب، إن من جهة المخاطِب أو المخاطَب، وذلك بإعمال الذهن وفق سيرورة تأويلية باستثمار آليات مختلفة (الموسوعة، السيميوزيس، التقرير، الإيحاء..."[16]. وإذا كان حديثنا عن التسمية فإنَّ هذه العملية جزء لا يتجزأ من المجاز وبخاصة الاستعارة، هذه الصورة البلاغية التي كان ينظر إليها في القديم على أنها صورة من صور تنوعات المعنى في استخدام الكلمات أو ما يعرف بعملية التسمية، فالاستعارة وعملياتها أشبه باللعبة اللغوية التي تغطي التسمية[17] وهنا يتضح ارتباط التسمية بالمجاز، فغالبا ما تُطلَق التسمية على شيء ما بالاستناد إلى سمة معينة أو بالانطلاق من قصد معين.

نخرج قليلا من إطار التأويل إلى نطاق التأثير لنلمح أن ذلك التأثير يتعدى العلاقة الثنائية بين الاسم والمسمى إلى التأثير في أذن السامع:

فلنتأمل مثلا لفظ "سعيد" كيف تدل الكلمة على معناها، ثم لنتأمل لفظ "شقي" كيف تدل (الشين والقاف والياء) على معنى مكروه من النفس، ولو ذكرنا كلمة خنزير لشخص يجهل معناها ومن ثمّ سألناه عن حسن وقبح هذه الكلمة لكان تأثير تنافر حروف هذه الكلمة في نفسه تأثير قبيح ، وهنا نستحضر ما قام به "رولان بارث" في نظام الطعام، حين طبَّق قواعد الإقصاء والانتقاء المتواجدة في اللغة على نظام الطعام فيما يُعرف بالحلال والحرام في المأكولات –المجتمع الإسلامي مثلا– فكما أنه ليس كل الطعام حلال للإنسان وإنما تحدده مواضعاته الدينية والاجتماعية والثقافية، وأنَّ بنيته تستجيب لقانون التقابل والجمع والتركيب وبلاغة الاستعمال؛ وهذا ملمح اختلافه عن دي سوسير، فكذلك الشأن بالنسبة للأسماء والمسميات، فإنّ الأخلاق والأعمال والأفعال القبيحة تستدعي أسماء تناسبها في حين أنَّ أضدادها

تستدعي أسماء تناسبها أيضا، لهذا يرى أكثر السفلة كما يقول ابن تيمية أسماؤهم تناسبهم كاسم (أبو لهب) وأنَّ أكثر العلية أسماؤهم تناسبهم كاسم (محمد) – صلى الله عليه وسلم– فإذن علاقة الاسم والمسمى لا تنحصر في هذه الثنائية الاعتباطية التعليلية وإنما تعطي مجالا لعامل أساسي لطالما أُغفل في الدراسات المحايثة البنيوية، ألا وهو السامع والمتلقي. ولطالما كان البطليوسي في مقام استحضار دور المخاطَب في تقرير المعنى في نفس المخاطِب.

أخيرا...

تعتبر آراء البطليوسي في رسالته النحوية هذه آراء رجل نشهد له بالنبوغ فقهيا ونحويا، نبوغ نشهده عنده بوقوفنا على رأي له حينما حاول التوفيق بين آراء متضاربة في مسألة الاسم والمسمى؛ قدَّم لها حججا وآراء وشواهد احتكم من خلالها إلى آليات النحو، المنطق، العقل والدين؛ كيف لا وهو الذي لم يتشيَّع لرأي دون آخر وإنما لمحنا لديه نوعا من الموضوعية في سرد آرائه جعلته يلِّم بحيثيات المضمون العام في إطار تداولي، تأويلي جعلاه يكون وفق سيرورة منطقية في الانتقال بين ثنايا الرسالة دون الميل أو التشيّع، مبرزا تمكنِّه من الحجة المقنعة والرأي الصائب بالاستعانة بالآليات المحاججة في الاستشهاد بأمثلة توضيحية، كما لمحنا لديه تفكير سيميائي جعلنا نتقصى من خلاله مواطن التقائه مع الآراء الحديثة في السيميائية وفلسفة اللغة عامة (التداولية، السيميائيات، اللسانيات...) لنقف عند رأي نتبناه أخيرا مفاده يكمن في ضرورة استعمال آليات المناهج الحديثة في قراءتنا لتراثنا خدمة له وتحيينا له مع الدرس اللساني المعاصر.

هوامش البحث:

1– هو عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي نسبة إلى مدينة بطليوس، وكنيته أبو محمد، ولد في بطليوس عام 444 هـــ؛ وقد تلقى فيها علومه وثقافته وبقي فيها حتى نبوغه، توفي سنة 637.

من أهم مؤلفاته:

– الاقتضاب في شرح أدب الكتاب.

– الانتصار ممن عدل عن الاستبصار.

– الحلل في إصلاح الخلل من كتاب الجمل.

– المثلث في اللغة. (ينظر: ابن السيد البطليوسي، الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، تحقيق محمد باسل عيون السود.

2– الاسم والمسمى في حديث ابن بطليوسي يقابل الثنائيات المعروفة في الدراسات اللسانية الحديثة من مثل: الدال والمدلول، التقرير والايحاء...

3– نصر حامد أبو زيد، اشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1 2001م، ص102.

4– المرجع نفسه، ص 185.

5– م ن، ص ن.

6– أحمد يوسف، السيميائيات الواصفة، المنطق السيميائي وجبر العلامات، منشورات الاختلاف ص56.

7– سيزا قاسم، نصر حامد أبو زيد، أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة، مدخل إلى السيميوطيقا، دار إلياس العصرية، القاهرة، ص 117.

8– رولان بارث، مبادئ في علم الأدلة، ترجمة: محمد البكري، دار قرطبة للطباعة والنشر، الدار البيضاء، 1986م.

♦– التعجيل بذكر المسرة غرض بلاغي يتعلق بالتقديم والتأخير في الخطاب –النص–.

9– أحمد يوسف، السيميائيات الواصفة، المنطق وجبر العلامات، ص77.

10– ينظر: جوليا كرستيفا، recherche pour une semanalyse، ضمن مقالات الكتاب.

11– أحمد يوسف، المرجع نفسه، ص83.

12– سيزا قاسم، نصر حامد أبو زيد، المرجع السابق، ص 23.

13– أحمد يوسف، المرجع نفسه، ص 84.

14– أمبرتو إيكو، السيميائية وفلسفة اللغة، ترجمة: أحمد الصمعي، المنظمة العربية للترجمة لبنان، ط1، 2005م، ص 189.

15– أحمد يوسف، المرجع نفسه، ص85.

16– أحمد يوسف، المرجع نفسه، ص 88.

17– بول ريكور، نظرية التأويل، الخطاب وفائض المعنى، تر: سعيد الغانمي، ص 86.

دراسة لسانية في بنية الخطاب عند أحمد المتوكل

أ. خليفي عبد الحق
جامعة أدرار

عُنيت بعض الدراسات البنيوية، بخصائص النص الصورية على أساس أنه نسق من الوحدات والتراكيب المجردة دون أن تهتم بخصائصه الدلالية والتداولية التي تتفاعل بشكل ملحوظ مع الخصائص الصورية. في مقابل ذلك، عنيت مقاربات أخرى بالجانبين الصوري- الصرفي والتركيبي والصوتي. ناتج هذا الصنف من المقاربات ووصف جزئي عُدَّ عند منظريه "نحوا" كاملا للخطاب بل للغة. أما الإشكالية التي يتناولها هذا البحث هي بنية الخطاب في سياقاته المختلفة انطلاقا من خصائص الجملة العربية من خبر وإنشاء، ومن حيث القوة التي يتضمنها معنى الجملة والتي تُفهم سليقةً من خلال السياق.

وما نستحضره، بهذا الصدد المقاربات التداولية التي أغنت الدرس اللغوي بمفاهيم مستقاة من فلسفة اللغة العادية لكنها، على أهميتها وبالرغم من عمق وَوُرُود ما اقترحته من تحليل للخطاب الطبيعي، لم ترق نظرا لخصوصية موضوعها، إلى أن تعد نظرية لسانية متكاملة شاملة.

مع ذلك، "لن يفوتنا أن نذكر بأن جهود رواد المقاربة التداولية وما توصلوا إليه من نتاج شكَّل مرجعا هاما من مراجع بناء وصوغ نظريات لسانية مؤسسة تداوليا (أو وظيفيا) كنظرية النحو الوظيفي، التي نتبناها، خاصة ما تفرع عنها من نماذج لسانية خلال العقد الحالي"[1].

اقترح أحمد المتوكل مقاربة قد تكون بديلا للمقاربات السائدة يمكن تلخيصها كما يلي:

– للخطاب الطبيعي خصائص وظيفية تداولية ودلالية وخصائص صورية صرفية–تركيبية وفونولوجية تتعالق فيما بينها على أساس تبعية الخصائص الثانية لخصائص الأولى.

ويتحتم على المقاربة التي تستشرف إحراز الكفايتين الوصفية والتفسيرية أن ترصد كلا الفئتين من الخصائص دون إغفال أي منهما وأن تقيم وصفها وتفسيرها لهذه الخصائص على أساس تحكم الوظيفة في البنية.

– تقتضي مقاربة أنماط الخطاب نظرية عامة ترصد خصائص الخطاب الطبيعي التي تتقاسمها تلك الأنماط على تباينها.

– ترصد نظرية الخطاب العامة هذه قدرة مستعمل اللغة على إنتاج وتأويل الخطاب باعتبار أن هذه القدرة الخطابية جزء من القدرة اللغوية العامة.

ويعد الجرجاني من الأصوليين الذين ميزوا في دراستهم بين معرفتين: "المعرفة بأوضاع اللغة معجما ونحوا التي يتقاسمها كل المتكلمين وامتلاك ما أسماه "الفصاحة" في إنتاج الخطاب التي ينفرد بها متكلمون دون غيرهم."[2] فالجرجاني يطلب من المتلقي من أجل أن يفهم معنى المعنى، أو المعنى الشأني لعبارة مثل "كثير رماد القدر" أن يكون محيطا بالعلاقات غير اللغوية التي يتوقف عليها فهم المعنى الشأني. وهذه العلاقات ماثلة في أوضاع البيئة العربية البدوية حيث تقضي العادات عندهم بتقديم الطعام لضيفهم الوافد، وحيث يكون طهو الطعام في قدور وذلك عندما تشب النار تحت القدور في الحطب الذي ينتهي إلى رماد فيتكاثر الرماد نتيجة كثرة الطهو، ويكثر الطهو لكثرة الضيوف[3] وهكذا.

فالمتلقي لا بد أن يلم ويحيط بكل هذه الأمور حتى يستطيع أن يدرك المعنى معنى الكرم في مثل تلك العبارة. وهذا هو المقام الحضاري الاجتماعي الذي لا يمكن أن تفضي العبارة إلى معناها الصحيح إلا في إطاره فقط.

والسؤال الذي يطرح هنا أن مثل هذه العبارات "كثير رماد القدر"، "نؤوم الضحى"، "طويل النجاد" التي قد تشتمل في أصلها على كنايات أو استعارات أو تمثيلات أو غير ذلك، ماهي إلا عبارات مبتذلة – من كثرة استخدامها – فهي قد ترددت على الألسن كثيرا فثبت لها معناها الثاني بالتواتر، فلم تعد بالمتلقي حاجة إلى معرفة المقام الحضاري الاجتماعي لمعرفة معناها. وعندئذ لا تبرز أهمية الاتكاء على مثل هذا المقام في فهم المعنى الثاني لمثل هذه العبارات إلا عند الوقوف على عبارات بكر. وهذا معناه أن مجرد معرفة المقام الحضاري والاجتماعي في مجتمع بعينه لا تكفي وحدها للوصول إلى المعنى المقصد خاصة عند مواجهة عبارات بكر لم يبتذلها الاستخدام. عندها لابد أن نأخذ في الاعتبار بعدا آخر هو المقام الذي قيلت فيه العبارة، أهو مقام مدح أو مقام ذم أو مقام سخرية وهذا البعد هو الضابط وصمام الأمان للوصول إلى المعنى المقصود من بين المعاني الممكنة.

والأسئلة التي تطرح نفسها في هذا المقام:

- هل تكون الصورة المجازية أكثر وضوحا من التعبير الحقيقي ؟
- هل يسعى البيان حقيقة إلى الإفصاح ؟
- بل ما الذي يدفع المتكلم إلى الخروج من منطق اللغة والوضوح بصور تنزاح عن الاستعمال الطبيعي للغة ؟
- هل الأساليب البيانية منفصلة على حدود المعنى تماما وعلى الحالة الشعورية التي يمر بها المتكلم ؟

- وهل أتى بها الكاتب أو الشاعر نتيجة وعي منه أو لا وعي ؟
- وهل الأساليب خاطبها العقل ليفهم أم لينفعل ويتأثر ؟؟
- وكيف تحدد هذه الأساليب الأحوال والمقامات الاجتماعية والثقافية والحضارية؟.

إن كل ما يتوخاه مستعمل اللغة من ضروب الأساليب البيانية إنما سببه دقائق المعاني التي في النفس ولطائف المقاصد التي يريد بلوغها باللفظ، فلا معتبر إلا هذا وإلا كان بكثير الألفاظ ضوضاء صوتية لا يعتد بها[4]".

فالهدف من الأساليب البيانية أو الصور البلاغية ليس مجرد إقامة علاقات عقلية بين مشبه ومشبه به، أو افتراض أقيسه منطقية بين حقيقة ومجاز. إن الصورة البلاغية وسيلة الشاعر أو الأديب أو المتكلم ليعبر بها عن حالات لا يمكن له أن يتفهمها أو يجسدها بدونها، فهي الوحيدة القادرة على تقديم المعنى الذي يرومه أو الحالة التي يعيشها، بل هي المخرج الوحيد لشيء لا ينال بغيرها أو هي ترتبط بمستوى التجربة الفنية التي يعيشها فتحتضن هذه المشاعر وتعايشها وتقدمها في قالب جميل تعجز اللغة العادية أن تصل إلى مستوى هذه الأساليب[5]. وباختصار هي أفانين التعبير عن الأحاسيس الكامنة في الصدور بواسطة الكلم، أو وجه من وجوه معاني القول. وبهذا المعنى لا تصبح الصورة شيئا هامشيا ثانويا يمكن الاستغناء عنه أو حذفه وإنما هي وسيلة حتمية لإدراك نوع متميز من الحقائق، أو لتحديد دلالة سيكولوجية خاصة. بالإضافة إلى أنها تمنح اللغة خصوصية إقامة علاقات بين الألفاظ جديدة تتميز بالتفرد، وتصوغ المعاني بطريقة خلابة تستلذها الأنفس وتطرب لها الآذان.

الأفعال الكلامية وتقوية الكلام: التقوية استراتيجية خطابية يروم المتكلم باستعمالها لدعم خطابه في مقام التشكك أو التشكيك أو الإنكار وتقابلها استراتيجية

التقليل لرفع المسؤولية عن المتكلم أو التخفيف منها بنسبة الخطاب إلى الغير أو تنسيبه أو استبعاد تحققه أو إلقائه ملقى مجرد الاحتمال.

وهذه القوة موجودة في سياقات القرآن الكريم المختلفة، فمثلا عندما قال الله تعالى "حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم..." فنجد هذه الآية مطبقة عند أهل الأرض قاطبة ودون أي استثناء من سمع بها أو من لم يسمع بها. أما الآيات القرآنية التي تحوي "لا" الناهية: كقوله "ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا.."، وبالمقابل إذا لم تتجسس على عدوك فأنت آثم عندما نقارن بين الآيتين نجد أن أية التحريم تتضمن قوة في الفحوى أكثر من آية النهي. وعند المقارنة بين القوة الخطابية في المحرمات ومثيلها في المنهيات نجد أن الأولى تتصف بالشمولية والأبدية،

وسائل تقوية الفحوى الخطابي: لتقوية الفحوى الخطابي وبوصفه طبقة من طبقات الفعل الخطابي وسائل معجمية أو صرفية – معززة بالتنغيم.[6]

– يُقوى الفحوى الخطابي معجميا بفعل من أفعال التوكيد (مستعملا استعمال إنجازيا) أو بلاحق من اللواحق التي تفيده، منها على سبيل المثال "بكل تأكيد "وبدون شك" و"فعلا" و"حقا"[7]

التداولية والإنتاج اللغوي في التراث العربي: إن الحديث عن موضوع التداولية في التراث العربي هو ليس تأصيلا للمفاهيم المتناولة عند الغرب بل لبيان الامتدادات المعرفية للمدونة العربية، وكذلك تقديم جانب من وجهات الأفكار الرائدة التي عرضها علماء العربية القدامى.

فالبحث في المجال التداولي" هو مرتبط أساسا بالتواصل اللغوي من جانب الاهتمام بالسامع واعتبار المخاطب، وبيان دور المتكلم في صياغة الخطاب وإنتاجه والإلمام بكل العناصر الفاعلة ي الإبلاغ والأخذ بمعيار الصدق والكذب في الأساليب وفي الشعر، وإمكانية مطابقته مع الواقع"[8].

فدراسة اللغة في التراث العربي تميزها بعض السمات التي هي من أهم المبادئ الحديثة للتداولية، فقد تناول الدارسون القدماء التكلم وبينوا أنه يتم لغايات وأهداف ولإشباع الحاجات والحصول على فائدة. كما أنه يستعمل لأغراض ومآرب اللغة ذاتها.

وعن أسبقية العرب في معرفة أصول هذا الاتجاه يقول: سويرتي إن النحاة والفلاسفة المسلمين، والبلاغيين والمفكرين مارسوا المنهج التداولي قبل أن يذيع صيته بصفته فلسفةً وعلماً (...) فقد وظف المنهج التداولي بوعي في تحليل الظواهر والعلاقات المتنوعة. فمن أهم مصادر التفكير التداولي اللغوي عند العرب: علم البلاغة، علم النحو، والنقد، والخطابة، إضافة إلى ما قدمه علماء الأصول الذين يمثلون إلى جانب البلاغيين اتجاها فريدا في التراث العربي[9]، يربط بين الخصائص الصورية للموضوع وخصائصه التداولية وغيرها من المجالات الأخرى التي تتعدى مجال التداولية المحددة في الجانب اللساني فقط.

وقد عدَّ أحمد المتوكل الإنتاج اللغوي العربي القديم "أنه يؤُول في مجموعه (نحوه وبلاغته وأصوله وتفسيره...) إلى المبادئ الوظيفية التي تخص مختلف العلوم اللغوية العربية كعلوم القرآن مثلا، ولذلك فالوصف اللغوي لم يكن منصبا على الجملة المجردة من مقامات انجازها، بقدر ما نظر إلى النص بعده خطابا متكاملا بالنظر إلى الموضوع المتناول كان الوصف اللغوي يربط المقام بالمقال"[10]، بين خصائص الجمل الصورية وخصائصها التداولية. حيث إن تطبيق المفهوم التداولي على اللغة العربية سيسهم في وصفها ورصد خصائصها وتفسير ظواهرها الخطابية التواصلية، "كما أن استثماره في قراءة الإنتاج العلمي لعلمائنا القدامى سيسهم أيضا في اكتشاف وتثمين جوانب من الجهود الجبارة التي بذلها أولئك العلماء الأجلاء. فاللغة العربية، شأنها شأن غيرها من اللغات الطبيعية

تشتمل على طائفة من الصيغ والأدوات التي يستعملها المتكلم للدلالة على القوة الانجازية التي يريد تضمينها كلامه كالتقرير والاستفهام والتمني والإخبار والنفي والإثبات والطلب والترجي"[11]، حيث كان على طوائف من العلماء العرب، ولا سيما البلاغيين الدارسين لعلم المعاني أن يتعرضوا للقوى المتضمنة في القول بغرض تحديد ما يقتضيه حال معين، نزولا عند قاعدة مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

التمني والتعجب وغير ذلك من الأغراض كلها ترجع إلى الإخبار. والتي تراد لشيء يوجد ومن العلماء العرب الذين عنوا بدراسة أسلوبيْ الخبر والإنشاء والتمييز بينهما، الفيلسوف أبو علي بن سينا، وابن خلدون والسكاكي مع اهتمام خاص بـــ"الخبر" لأنه برأيه "هو النافع في العلوم"، حيث يقسم ابن سينا الكلام إلى "خبر" و"طلب" على أساس معيار الصدق والكذب، ولكنه يثريه ويعمقه عندما يركز في تحليله على البعد التداولي الذي يربط بين قصدية المتكلم ومراده من المخاطب من جهة وبين استجابة المخاطب وردة فعله من جهة أخرى. وعلى الرغم من ملاحظة ابن سينا لهذا المنحى التداولي في الفرق بين الخبر والطلب، فإنه لا يفصل هذه القسمة عن معيار الصدق والكذب، يقول: (وذلك أن الحاجة إلى القول هي الدلالة على ما في النفس، والدلالة إما أن تراد لذاتها، وإما أن تراد لشيء آخر يُتوقع من المخاطَب فيكون منه، والتي تراد لذاتها هي الأخبار، إما على وجهها وإما محرفة كتحريف من المخاطَب.[12]

ويقول "السكاكي" مؤكدا ذلك (اعلم أن علم المعاني هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره).

وقد قسم العرب الكلام إلى كلام خبري وكلام إنشائي وجاء هذا التقسيم مراعيا لما سبق ذكره يقول "ابن خلدون" في الكلام الخبري ما يلي: ألا ترى أن قولهم (زيد جاءني) مغاير لقولهم (جاءني زيد) من قبل أن المتقدم منها هو الأهم عند المتكلم فمن قال: جاءني زيد، أفاد أن اهتمامه بالمجيء قبل الشخص المسند إليه، ومن قال (زيد جاءني) أفاد أن اهتمامه بالشخص قبل المجيء المسند، وكدا التعبير عن أجزاء الجملة بما يناسب المقام، من موصول أو مبهم أو معرفة، وكدا تأكيد الإسناد على الجملة، كقولهم: زيد قائم وأن زيدا قائم وإن زيدا لقائم، متغايرة كلها في الدلالة، وان استوت عن طريق الإعراب.

الخطاب بين المتكلمين: إن ما عرضه "ابن خلدون" من قضايا في هذه المقولة ترتبط بما لخطاب المتكلمين من علاقة بحال الخطاب، والمقام أن استعمل تركيب بدل تركيب آخر لا يعود إلى اعتبارات نحوية، كما يعتقد البعض، إن الكلام في مجمله تتحكم فيه عناصر التداولية كما أشرنا إليها في الفصول السابقة. (إن الخطاب هو مراعاة للخلفيات المشتركة بين المتخاطبين ودور قوانين الخطاب في ذلك لا يمكن استبعاده. أضف إليه دور عناصر السياق المشتركة بينهم، وإلا كيف نفسر اختلاف "ابن خلدون" لعناصر لغوية لا يمكن معرفة دلالاتها ومرجعياتها إلا بالرجوع إلى حال الخطاب الذي قيلت فيها وهي المبهم الموصول)[13]... وقد أكد "ابن خلدون" أنه أياً كانت المعلومات المفهومة التي يحتويها الخطاب، فإنه يتضمن سلسلة كاملة من العناصر تشير إلى درجة حضور المتكلم والصورة التي يكونها عن المخاطب: (...فإن القول عن التأكيد، إنما يفيد الخالي الذهن، والثاني المؤكد بـــ "إن" يفيد المتردد، والثالث يفيد المنكر)[14].

انطلاقاً من هده المقولة، يتوقف تحديد الدلالات على ما يوفره لنا السياق (أو القرينة حسب تحديد القدماء)، إذ يشير "عبد الرحمان الحاج صالح" إلى وجود نوعين من القرائن:

أ- وهو يمثل وضعية أحد المتخاطبين كليهما أثناء الخطاب من جهة، (أو الغرض التبليغي من جهة أخرى ويمكن لهده التبعية أن تدرك أثناء الفعل الخطابي مباشرة، أو من المعارف المسبقة للمتخاطبين).[15]

ب- ما جرى من الذكر المتقدم من أقوال: تؤثر هذه القرائن بصفة فاعلة في تحقيق فعل البث وفي نتاجه (الحديث ذاته). (ولكي يكون هذا الأخير مقبولا ومستقيماً لابد أن يصدر حسب ما يقتضيه الحال إخراج الكلام حسب ما يقتضيه الحال)[16].

فهذا يؤكد من جهة أهمية الإخبار في العملية الأصلية وإن الفعل الكلامي يؤسس بمجرد إصداره علاقة خاصة بين المتخاطبين من جهة أخرى. (إن التخاطب يتأسس على تأدية المتخاطبين لأفعال الكلام لذلك أحاط العرب بظاهرة "الأغراض" أو الأساليب الإنشائية إحاطة شاملة ونظامية حيث يرى البلاغيون أن ثنائية الخبر والإنشاء هي الأصل في اللغة أما ما يتفرع عنها من أساليب قد تبدو خبرية ولكنها إنشائية في المضمون)[17] وهي فروع، مثل: "رحمك الله" التي تقال لشخص عطس والتي تبدو إخبارا، ولكنها تعني الدعاء: أدعو الله أن يرحمك.

خاتمة: مرَّ التمثيل للقوة الإنجازية عند العرب بمراحل أهمها مرحلتان اثنان: مرحلة الثنائية الكلاسيكية التي تقابل بين القوة الإنجازية الحرفية والقوة الإنجازية المستلزمة إلى قوى إنجازيه أصلية (حرفية)، والهدف من هذه الدراسة هو العرض الثاني واستكشاف مدى وروده بالنظر إلى اللغة العربية آخذين بعين الاعتبار آراء النحاة العرب والبلاغيين في التقعيد لأساليب العربية المعروفة.

أما بالنسبة للخطاب فله أنماط تتباين من حيث المضمون ومن حيث الشكل لكنها على تباينها مضمونا وشكلا آيلة إلى بنية خطابية عامة واحدة ثوابتها في التداول والدلالة والتركيب.

كل معنى مستنبط من القرآن غير جار على اللسان العربي، فليس في علوم القرآن في شيء وهو راجع في المعنى إلى ما سبق.

– لا يصح إتباع الفرع مع إلغاء الأصل، فالواجب إتباعهما معا، وإن كان في موضع آخر يرى أن: "كل عاقل يعلم أن مقصود الخطاب ليس هو الثقة في العبارة بل الثقة في العبرة منه وما المراد به.

– كلام العرب على الإطلاق لابد فيه من اعتبار المساق والسياق.

– إذا حصل البيان بالقول والفعل المطابق للقول فهو الغاية في البيان لأن لاجتماع من القوة ما ليس للافتراق.

– الفهم في عموم الاستعمال متوقف على فهم المقصد الذي قصده المتكلم.

*** قائمة المصادر والمراجع:**

– أحمد المتوكل، الخطاب وخصائص اللغة العربية، دراسة في الوظيفة والبنية والنمط 2010 الدار العربية للعلوم ناشرون.

– أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، منشورات عكاظ، 1989.

– إسماعيل علوي، حافيظ، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفة، عالم الفكر2004.

– ابن سينا، الشفاء، المنطق، العبارة، تصدير: طه حسينّ، مراجعة، إبراهيم مدكور، تحقيق: محمود الخضيري وآخرون، بيروت، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ج1.

– أوستين (ج .ل.) نظرية الأفعال الكلامية العامة، ترجمة: قنيني(عبد القادر) دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1991.

– أحمد الطريسي، تحليل الخطاب الشعري، من كتاب قضايا المنهج في اللغة والأدب.1999.

– آن روبول التداولية اليوم علم جديد في التواصل ترجمة: سيف الين دغفوس و محمد الشيباني، مراجعة لطيف زيتوني، المنظمة العربية للترجمة 2006.

– أنور الجندي، اللغة العربية بين حماتها وخصومها، مطبعة الرسالة، بيروت 1996.

– الجرجاني عبد القادر، دلائل الإعجاز: تحقيق: أحمد مصطفى المراغي. المكتبة المحمودية التجارية، القاهرة، ط2 بدون تاريخ.

– صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، مطابع السياسة، عالم المعرفة الكويت 1992، ص152.

***المجلات والدوريات**

– محمد سويرتي: اللغة ودلالاتها، التقريب التداولي للمصطلح البلاغي –مقال– مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت، العدد الثالث مارس 2000.

– حمادي صمود، النقد وقراءة التراث عودة إلى مسألة النظم، المجلة العربية للثقافة، ع24، 1993م

– محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية.. 1996

– عبد الرحمان حاج صالح "الأسس العلمية واللغوية لبناء مناهج العربية في التعليم "في اللغة العربية إصدار: المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر1993.

- ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب منشورات تحليل الخطاب، جامعة مولود فرعون، دار الأمل للطباعة والنشر 2001.

الهوامش:

1- أحمد المتوكل، الخطاب وخصائص اللغة العربية، دراسة في الوظيفة والبنية والنمط. ص13.

2 - الجرجاني عبد القادر، دلائل الإعجاز: تحقيق: أحمد مصطفى المراغي. المكتبة المحمودية التجارية، القاهرة، ط2 بدون تاريخ.

3 - عبد القاهر الجرجاني، دلال الإعجاز، ص 273 - 274.

4 - حمادي صمود، النقد وقراءة التراث عودة إلى مسألة النظم، المجلة العربية للثقافة، ع24 1993م، ص83.

5 - أحمد الطريسي، تحليل الخطاب الشعري، من كتاب قضايا المنهج في اللغة والأدب، ص80.

6- إسماعيلي علوي، حافيظ، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفة، عالم الفكر2004.

7- الوظائف التداولية في اللغة العربية. الدار البيضاء: دار الثقافة .1985.

8- محمد سويرتي: اللغة ودلالاتها، التقريب التداولي للمصطلح البلاغي -مقال-,مجلة عالم الفكر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت، العدد الثالث، مارس 2000. ص30.

9- أحمد المتوكل، لوظائف التداولية في اللغة العربية، منشورات عكاظ، 1989، ص 47.

10- الوظائف التداولية في اللغة العربية، ص 49، مرجع سابق.

11- المرجع نفسه ص51.

12- ابن سينا، الشفاء، المنطق، العبارة، تصدير: طه حسينّ، مراجعة، إبراهيم مدكور، تحقيق: محمود الخضيري وآخرون، بيروت، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ج1، ص31.

13 - محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية. ص56.

14 - المرجع السابق، ص57.

15- عبد الرحمان حاج صالح "الأسس العلمية و اللغوية لبناء مناهج العربية في التعليم "في اللغة العربية إصدار: المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر ص45.

16- ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الحطاب منشورات تحليل الخطاب، جامعة مولود فرعون، دار الأمل للطباعة والنشر، ص58.

17- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، مطابع السياسة، عالم المعرفة، الكويت 1992 ص152.

نشوة(*) النص في البيت الأندلسي
العتبات ومسالك التأويل

أ.نبيلة زويش
جامعة مولود معمري تيزي-وزو

قد يتساءل قارئ هذا المقال عن دلالة العنوان الرئيسي، الذي وضعناه لغاية جمالية فنية للدلالة على الأثر الذي خلفته قراءة الرواية فينا، وقد وسمنا ذلك الأثر بالنشوة الكلمة التي تحيل في أصل كلام العرب إلى «بداية السكر ومقدماته» والحقيقة أني أردت فعلا، أن أعبّر من خلالها عن حالة شعورية، إحساس بالانتشاء ورغبة في تجاوز كل العتبات للوصول إلى نهاية البيت الأندلسي، وكانت العتبات التي ارتبطت بالمقاطع الموسيقية الأندلسية والنصوص الموازية التي صاحبت مسار الحكاية، والتي شكلت الحيّز الذي أنعقد فيه عقد القراءة، تشدني إلى أجواء وعوالم الموسيقي الأندلسية الساحرة.

وأضفنا العنوان الفرعي لتحديد طبيعة دراستنا التي ركزنا فيها على عتبات الرواية التي يبدو أن المؤلف قد انتقاها ووضعها لتشكيل الخلفيات التي تشد انتباه القارئ وتغويه بالموسيقي الأندلسية التي تسهم في تشكل الصورة الذهنية لعوالم هذا البيت، فتتحول العلامات اللغوية ذات الكيان النفسي إلى علامات صوتية، موسيقى تغمر روح القارئ، وتجعله يعرف نشوة تجعل روحه تهيم بتلك الأجواء الأندلسية ويحدث التفاعل مع شخصيات الحكاية وأحداثها.

وهو الأمر الذي يدعمه المؤلف باستراتيجية تلك العتبات وترتيبها على منوال الأغنية الأندلسية: (استخبار، توشية، نوبة، وصلة)، أنها تتأتي شيئا فشيئا ليحدث الانسجام.

لعل الأثر الذي تخلفه هذه العتبات والنصوص الموازية والهوامش التي تصاحب النص هي التي تمكن القارئ، من إدراك، "البيت الأندلسي" ككائن حي، عرف مراحل حياتية مختلفة، وانتهى به المقام إلى الموت كما انتهى المطاف بموت سكانه، ولم تبق سوى حكاياتهم في هذا الكتاب الذي تقول عنه سيكا: «هذا هو الكتاب بلحمه ودمه وأنينه (...) أضعه اليوم بين أيدي عشاق الأبجدية الحية المليئة بأنين الذين مضوا، هم وحدهم يعرفون كشف الآثار الخفية العالقة بكل كلمة وبكل لحظة خوف وسعادة هاربة»[1].

في ضوء هذه العوالم المشحونة في هذه الأبجدية الحية التي تحيل تارة كعلامات صوتية إلى صور ذهنية لموسيقي أندلسية، وتارة أخرى كعلامات بصرية إلى صور ذهنية للبيت الأندلسي الذي يغتصب ويقتل بطريقة بشعة، يرسم السارد في متن لغوي رهيب صورة لموت البيت الأندلسي أو قتله: «مات البيت الأندلسي واندفنت بعض أصدائه»[2]، ويضيف: «كانت الآلة تعري البيت الأندلسي كمن يعري جسد امرأة لاغتصابها»[3]، ويصل إلى صورة الموت من خلال شعوره فيقول: «في لحظة شعرت كأن الأرض كانت تنزف وتنز دما قبل أن تسلم نفسها لقاتلها، كانت هذه التربة تموت، تحت الأسنان القاسية للآلة.

واللافت للانتباه في حديثي عن هذه النشوة أن يعبّر "مراد باسطا" نفسه في آخر مسار الحكاية عن حالة انتشاء حيث نتبين ذلك في قوله: «لأول مرة اسمع هذا من ماسيكا... لا أدري من أين جاءت حالة الانتشاء، من الكلمتين المتعانقتين، من أني أصبحت جدها ومنها؟»[4].

يبدو لي أن قدرة السارد على تصور تعانق الكلمات قد أضفى على لغة سرده شعرية مميزة جعلته يعيش حالة انتشاء.

وعليه، سنحاول أن نتبين كيف برمج النص تلقيه عبر مسالك تأويل عتباته واستراتيجياته السردية التي تشكلت من خلالها صورة البيت الأندلسي.

عتبات الغلاف/ عتبة العنوان: يبدو أن قراءة العتبات النصية وأهميتها قد تجلت من خلال الاهتمام المتزايد بها في نظريات النص الحديثة حتى بلغت مستوى التنظير لها وصار الحديث عن العنونة ونظرية العنوان، لكنها من القضايا القديمة التي شغلت النقاد والمبدعين على حد سواء.

لقد اهتم العرب بالعنونة منذ القديم، فكانت العناوين تنتقي وتكتب في لغة مجازية جميلة ومعبرة، يراعى فيها الجانب الصوتي والدلالي والتزييني، حتى أصبح العنوان تحفة تعلق بالأذهان، وصورة تتجلى للعيان، ونغمة يتغنى بها كل لسان، فكانت تنحو نحو الإثارة عبر صياغات لفظية مميزة مثل (الدر المنثور الأنيس، شرح قطر الندّى وبل الصدّى، الجامع، الكشاف، البحر المحيط،...) واللافت للانتباه التشابه الكبير بين تعريفات العنوان القديمة والحديثة، ودون الرجوع إليها سنكتفي بالتمثيل ببعضها، من ذلك قول السيوطي: «عنوان الكتاب يجمع مقاصده بعبارة موجزة في أوله»[5]، وقول جيرار جنيت: «مجموعة من العلامات اللسانية (...) التي توضع على رأس النص لتحدده وتدل على محتواه»[6]، ومن ثم يكون الاتفاق على أنّه العنصر الذي يحدد هوية النص وهو اختزال وإظهار لما هو خاف في متنه وإيحاء بمقاصده وإثارة للاطلاع عليه.

وما يجدر التنبيه إليه أن النظريات الحديثة قد عمقت البحث في دراسة عناوين الأعمال الإبداعية وركزت بشكل خاص على الخطاب الروائي الذي تحوّل فيه العنوان إلى أهم عتبة تشكل أفق انتظار القارئ، ومن باب التمثيل أيضا نستشهد بقول شارل غريفال: «إذا كانت قراءة رواية هي في الواقع فك سر تخييلي مشيّد يمتصه المحكي نفسه، فإن العنوان بوصفه ملتبسا هو تلك العلامة التي بها يفتتح الكتاب: من هنا يجد سؤال الروائي نفسه مطروحا، وأفق انتظار القراءة معينا والجواب مأمولا من العنوان، يفرض الجهل ومقتضى امتصاصه نفسهما في ذات الآن»[7].

وعليه، نخلص إلى القيمة الاستراتيجية التي يحتلها العنوان وكل ما يرتبط أو يحيط به على مستوى الغلاف الخارجي في النقد المعاصر، الذي واكبته دراسات ونشاط معجمي حاول أن يقنّن وضع المصطلحات ويستصفي منها ما يكون أقرب لتأدية المعنى لإنجاز دراسات دقيقة تمكن الدارس من فهم وولوج عالم النص من جهة والكشف عن الاستراتيجيات السردية ومعمارية النص من جهة أخرى.

ولابد أن نشير إلى أننا لن نعود في هذا المقام للحديث عن كل النظريات النقدية والتعريف بكل المصطلحات، لأنها أولا، ليست غاية دراستنا وقد تكفينا، ثانيا الإحالة إلى كتب جيرار جنيت التي أسهبت في تنظيرها للعتبات وصارت منتشرة في كل الأعمال والمدونات. وعليه، يمكن الرجوع إلى كتاب: (palimpsestes)(*) وكتاب (seuils)(**) وكتاب (introduction à l'architecture)(***)، كما يمكن الإحالة إلى كتاب خالد حسين "في نظرية العنوان مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية"(****) أو الكتيّب الذي اختصر فيه الباحث عبد الحق بالعابد كتاب جنيت وأعطاه العنوان نفسه وأضاف إليه الإحالة إلى صاحبه: «عتبات جيرار جنيت من النص إلى المناص" ومن خلاله نستشهد بما ذهب إليه الناقد المغربي "سعيد يقطين" في المقدمة التي وضعها له "أخبار الدار علي باب الدار" يقول المثل المغربي، ولا يمكن للباب أن يكون بدون عتبة، تسلمنا العتبة إلى البيت لأنه بدون اجتيازها لا يمكننا دخول البيت»[8].

والجميل فيما ذهب إليه يقطين أنه يحدث عن عتبة النص وكأنه يتحدث عن عتبة الدار، وكأن الأمر سيان لدرجة أنه يتعمد في حديثه الجمع بينهما، فلا يفرق بين بناء البيت وبناء النص عندما يضيف: «عندما نبني نصا، بيتا، لنسكن فيه قد نستقبل فيه بعض زملائنا وأقاربنا لكننا عندما نبنيه ليصبح «ملكية مشتركة» لابد له من مناصات متعددة بتعدد الزمان والفضاء الثقافيين»[9].

وفي حديثه عن بناء البيت كما النص يشير إلى الطرف الآخر الشريك الذي يهمنا أمره، والقارئ هو شريك المبدع في عمله ولهذا يشير معجم السرديات إلى

وظيفة النصوص الموازية وقيمتها المرجعية وما تقدمه للقارء من معلومات عن النص وعن مؤلفه، ويؤكد على توجيهها للقراءة الوجهة التي أرادها المؤلف[10] «إنّها موقع ممتاز يكشف مقاما تداوليا وخطة ما وفعلا تأثيريا في الجمهور، يخدم سواء حَسُن فهمه أو ساء، تلقيا جيدا للنص وقراءة ملائمة لمن ينتظر مؤلف النص وحلفاؤه»[11].

ولعل الصدفة هي التي جعلت عنوان الرواية البيت الأندلسي خارقة، فموضوع الرواية قصة بيت وللبيت عتبات تمكن من دراسة مسار الحكاية وتكشف عن استراتيجية الكتابة الروائية عند واسيني.

إنّ أول ما يلفت النظر على مستوى غلاف الرواية تشكله من قسمين على مستوى الصفحة الأمامية (وجه الغلاف)، قسم علوي بلون أخضر قاتم وسفلي يمتد ليُلون كامل الصفحة الخلفية للغلاف.

لكن المتمعن في الصفحة الأمامية يلاحظ أن بين القسمين خط بلون ابيض غير مستقيم، ومشوش، وكأنه أثر تمزيق للورقة العلوية وشقها إلى قسمين: حذف جزؤها السفلي ليكشف عن الورقة الثانية التي تلي الورقة الخضراء، فلا يظهر منها سوى القسم المكتوب عليه اسم الكاتب وعنوان الرواية باللغة العربية ليأتي بعدهما كلمة(memorium) باللغة الأجنبية، الكلمة التي تحيل القارئ إلى العلاقة بين البيت الأندلسي والذاكرة، ومن ثمة ينفتح أمامه أفق انتظار واسع يجعله يسعى لاكتشاف ذكريات هذا البيت، وكأن بالكلمة تتحول إلى منبه شرطي يثير الفضول الإنساني الذي يدفعه لمعرفة ما تخفيه ذاكرة الآخر، واكتشاف الأسرار التي طمرها الزمن مع مرور الأيام، ولكن وقبل أية ردة فعل من القارئ ترد تحت الكلمة كلمة "رواية" وقد نبه جنيت إلى هذه الكلمة بقوله: «إن وضع أحد المؤلفين كلمة "رواية": عنوانا فرعيا على غلاف الكتاب ليس المقصود منها إعلام القارئ بان النص رواية، بل القول له: «احترس على اعتبار النص رواية»[12]، وعليه، ليست الكلمة

إعلامية وحسب وإنما استغلت لتوجيه القارئ وإلزامه بالتصنيف الأجناسي الذي يلزم القارئ بالأخذ بعين الاعتبار كل خصائص الجنس ومحدداته.

كما يلاحظ في أسفل صفحة الغلاف اسم دار النشر الذي هو "الفضاء الحر" فتكتمل جماليات الصدفة ليرتبط عنوان أو اسم دار النشر بعوالم الرواية وفضاءاتها.

لكن ما يشد الانتباه في الجزء العلوي، الأخضر الداكن اللون من الغلاف الصورة التي عليه، وهي صورة لزخرفة تبدو وكأنها على رخامة قديمة فقدت لونها الأصلي نتيجة لما علق بها من آثار خلفتها عوامل الزمن، وبذلك يكون الاخضرار نتيجة للتعفن الذي علق، ومن ثم فاللون لون عفونة (moisissure) ويتوسط النقش الذي على الحواشي مربع واضح الأضلاع بلون بني كتب على مساحته بخط الثلث العربي النص الآتي:

«بسم الله الرحمن الرحيم.
لمالكه السعادة والسلامة.
وطول عمر ما سجعت حمامة
وعزّ يخالطه هوان
وأفراح إلى يوم القيامة»[13].

إن ما يفتح باب أو مسلك التأويل بشأن هذه الصورة التي تمثل القطعة الرخامية التي نقشت عليها هذه الكلمات، احتواء النص في المستوى الذي أحال إليه المؤلف على أنه من «أوراق مارينا بلاثيوس بن خليل» الورقة الحادية عشرة[14]، والتي تشير فيها إلى قصة "صانع الرخام"، الذي نعرف بعد القراءة أنه كان زوج "مارينا" قالت عنه ابنته سيلينا: «... والدي كان منشغلا بعمله في متحفه الرخامي، كان نحاتا رائعا على طريقته، يعطي للحجر حياة غريبة بلمسة سحرية، عندما يسأل عن سر عمله، كان يجيب بتواضع كبير: لم أفعل شيئا سوى أني نزعت الزوائد عن الشكل المدفون في الرخامة»[15].

أما المقطع المكتوب على الرخامة، فبعد البسملة نقرأ شعرا موزونا، من بحر الوافر، مضمونه دعاء لمالك الدار بالسعادة والسلامة وطوال العمر والعز والأفراح إلى يوم القيامة، ودلالة هذا الدعاء تدفع القارئ لطرح السؤال عن حياة الذين عمروا الدار، فهل عرف أهل "البيت الأندلسي" السعادة والسلامة؟ هل عمروا طويلا في هذه الدار؟ هل كان مقامهم مقام عز لم يخالطه ذل وهوان؟ وهل دامت أفراح هذا البيت؟ وكيف كنت النهاية؟ وقد لا نعود إلى كل الأحداث التي جرت في البيت الأندلسي لنجيب عن هذه الأسئلة ونكتفي بما نقلته إحدى الشخصيات عن البيت، وهي عزيزة حفيدة التاجر اليهودي ميشيل كوهين بكري والتي تقول عنها الساردة: «كان ارتباطها بحب البيت ينقص كل يوم قليلا، (...) قالت لن أبقى لحظة واحدة في بيت مات فيه ناس كثيرون وسال فيه دم مظلومين»[16].

وأما أسفل الغلاف الملون بالأصفر، فالمتمعن فيه يرى بعض الأسطر التي خطت كلماتها بلون بني فاتح، وليست جملا مفهومة، فلا يتبين القارئ منها سوى بعض الكلمات (آخر الظل- المقدار-القطب-عملت الرخامة-الحلقة)، يبدو أن مصمم الغلاف قد قصد إبهامها وقد أضمر بعضها وراء اسم الكاتب وعنوان الرواية.

وفي هذا المستوى من الغلاف، يستوقفنا العنوان الذي شكل من كلمتين: "البيت" والأندلسي"، والبيت كما يقول الجوهري معروف، وبيت الرجل داره وبيته قصره وقد يكون البيت لغير الإنسان فيكون للعنكبوت، وأول بيوت العرب من صوف أو شعر فإذا كان من الخباء فهو بيت، ومن ثم فالبيت هو المأوى للإنسان وغيره من المخلوقات ولكل بيت منها اسم، فالطيور أعشاش وأوكار وللأفاعي جحور وللنحل خلية... الخ وجميع البيوت تكون للاستقرار والطمأنينة، والبيت الأندلسي شيده "غاليليو الروخو" الذي قدم إلى الجزائر فارا من محاكم التفتيش المقدس في القرن السادس عشر مخلفا وراءه دياره طلبا للنجاة وحاول أن يعمر دارا أخرى بحثا عن الاستقرار، وكان بذلك ينفذ الوعد الذي قطعه لحبيبته لالة سلطانة قائلا عند رحيله:

«سأبني بيتنا الأندلسي على الأرض الأخرى، وسنسكنه مع بعض، لي يقين بذلك لا يلين أبدا، سنبينه هنا في هذه الدنيا قبل الآخرة»[17].

أنجز غاليليو الروخو وعده والتحقت به حبيبته، وعندما يعرف السارد بالبيت يقول: «استطيع أن أقول إن لهذه الدار، دار لالة سلطانة بلاثيوس الموجودة في القصبة السفلى، ليس بعيدا عن سوق الجمعة أو سوق الزواوش، قصة غريبة تعيدني إلى زمن كم اشتهيت أن أنساه وأن لا أورثه لأحد»[18].

وأما الكلمة الثانية من العنوان فهي: "الأندلسي"، وهنا يطرح السؤال؟ إذا كان البيت في القصبة السفلى، ليس بعيدا عن سوق الجمعة أو سوق الزواوش لماذا ينسب للأندلس؟

ويتبين للقارئ من خلال مسار الحكاية بأنّ البيت الذي بناه غاليليو للالة سلطانة في الجزائر يشبه البيت الذي حلمت به لالة سلطانة، وكان بيتا رأته في مرتفعات غرناطة، يذكر غاليليو وقفة حبيبته مندهشة أمامه، ويحفظ كل الكلمات التي قالتها واصفة البيت، يقول: «أحفظ كل كلماتك (...) أية رقة فكرت في هذا البناء؟ أي ذوق رفيع، أنظر... الأسقف، الحيطان، المداخل، الأبواب المقوسة، الأعمدة؟ النوافذ المفتوحة على هواء الجبال (...) ضحكت، بان إشراق ابتسامتك، ثم قلت وأنت تلتصقين بطولي: هل تدري حبيبي؟ هذا مهري؟ قادر عليه؟»[19].

وعليه، يدرك القارئ بأنّه نسب للأندلس لأنه يشبه ذاك البيت، الآخر الذي يوجد في الأندلس، وهو مثله، لأن غاليليو، بناه وفق هندسة البيت الأندلسي يقول عن ذلك: «حاولت أن استرجع تفاصيل البيت الأندلسي كلها، كما اكتشفناه أنا وسلطانة لأول مرة، كان البيت موجودا على هضبة حي البيازين، وبذلك سميت الرواية "البيت الأندلسي" نسبة للبيت الذي بناه غاليليو الوخو للالة سلطانة وكان يشبه البيت الذي رأته في الأندلس، والحكاية هي حكاية هذا البيت.

أما إذا انتقلنا إلى الصفحة الخلفية من الغلاف فتبدو واضحة المعالم، وضعت أعلاها صورة لواسيني الأعرج وجاء تحتها جملة فيها إشارة إلى أن البيت

الأندلسي آخر نصوص الروائي الجزائري، ولم تعد كذلك فقد صدر له غيرها من الروايات.

يأتي بعد هذه الجملة، مقطع نصي يشبه الملخص، حاول صاحبه أن يتكلم فيه عن محتوى الرواية، يبدأه بإحالة القارئ إلى الفكرة التي تنطلق منها الرواية: «دار أندلسية تريد السلطات والديوان العقاري تهديمها لاستغلال مساحتها الأرضية لبناء برج كبير لكن (...) الوريث الشرعي له، يرفض فكرة التهديم»[20].

ثم ينتقل صاحب هذا المقطع النصي، الذي يبقى مجهولا، ويبقى احتمال نسبته للناشر قائما، إلى القارئ ويخبره بأنه سيعيش من خلال نضال مراد بسطا تاريخ نشوء البيت الأندلسي، ويوجز بعدها التحولات التي عرفها البيت والتي ارتبطت بمراحل تاريخية حاسمة قائمة على مرجعية تاريخية معروفة، وصولا إلى الورثاء الجدد، ورثاء الدم والمصالح الغامضة. ويأتي بعد ذلك لما يعتبره "أهم من ذلك كله" وفي ثلاثة اسطر يقدم قراءة تأويلية، إن صح اعتبارها كذلك، في دلالة البيت الأندلسي، ومفادها انه «استعارة مرة أخرى لما يحدث في كل الوطن العربي من معضلات اجتماعية وثقافية تتعلق بصعوبة استيعاب الحداثة في ظل غياب كلي للديمقراطية والعقل»[21].

وعند حد هذه القراءة التي نعتبرها تأويلا ممكنا، نكتفي بطرح السؤال الآتي: وقد تكون الإجابة عنه مناقشة طويلة لمثل هذه القضية، وهل كل ما يحدث في كل الوطن العربي من معضلات راجع فعلا، إلى صعوبة استيعاب الحداثة في ظل غياب كلي للديمقراطية والعقل؟

وتنتهي الصفحة بمقطع آخر يبدو منفصلا عن سابقه، أولا من حيث اختلاف حجم خطه ولونه القاتم، وثانيا لأنه جزء مقتبس من نص الرواية، من "استخبار ماسيكا" وقد جاء على لسانها، تشير فيه إلى عجزها الكبير أمام فكرة فتح قبر غاليليو الروخو لترميم تاريخ ظل جزؤه المهم غريبا ومبتورا، وترى ماسيكا أن ذلك يحتاج إلى زمن آخر وجرأة أكبر وامرأة أخرى.

وبهذا تنتهي العتبات الخارجية والتي وردت على الغلاف طارحة إشكالية كبيرة على القارئ ترتبط بزمن أخر وجرأة أكبر وامرأة أخرى[22].

وعليه، اذا جمعنا بين العنوان ودلالته المأخوذة مما ورد في متن الحكاية بمعنى أنه بيت لالة سلطانة ويشبه بيت آخر في الأندلس، بناه حبيب لحبيبته بحثا عن الأمان والاستقرار في أرض أخرى، وبين القراءة التأويلية التي تذهب لاعتباره استعارة لما يحدث في الوطن العربي، ونزيد على ذلك ما ذهبت إليه ماسيكا العجز على ترميم تاريخ بقي جزؤه مبتورا، والحاجة إلى زمن آخر وجرأة أكبر وامرأة أخرى، نبلغ نتيجة مفادها ضرورة مراجعة الماضي وإدراكه، استيعابه ومعرفته كاملا لنتمكن لاحقا من تجاوز الأخطاء التي وقعت قبلا وكانت سببا في كل المعضلات التي يعيشها الوطن العربي.

وعليه، يطرح السؤال: "هل البيت الأندلسي" من النصوص الروائية التي تؤثث بوليفونيتها، العتبات والتاريخ، والفضاء بأصوات مختلفة ومتصارعة لتعرية الحاضر الذي أنبنى على مغلطات الماضي.

العناوين الفرعية الداخلية/ تصدير الكتاب: يبدو أن تصدير الكتاب (epigraph) قد أصبح من خصائص أعمال واسيني الأعرج الروائية، حيث لا تكاد تخلو رواية منه، والملاحظ أنه يخصص للتصديرات صفحة خاصة، تكون في غالب الأحيان بعد الصفحة الأولى التي تتكرر فيها عتبات الغلاف السابقة الذكر ولكنها تكتب على ورقة بيضاء، وبخط بارز.

واللافت في التصديرات التي يوظفها واسيني أنها ثنائية ومنتقاة من الحكم والمثال والشعر أو مقتبسة من القرآن الكريم، أو من أقوال بعض الفلاسفة، وهو بذلك يوافق ما ذهب إليه جنيت في تعريف التصدير: «اقتباس بجدارة بإمكانه أن يكون فكرة أو حكمة تتموضع في أعلى الكتاب (...) ويعد التصدير كمقدمة للنص والكتاب عامة، ذو قيمة تداولية»[23]، ويؤكد بعد ذلك على قيمته التلخيصية حيث يمكن أن يكون التصدير وما يذهب إليه بمثابة تلخيص لمحتوى النص، وفي تصدير

رواية "جملكية آرابيا" التي اقتبس تصديرها الأول من القرآن الكريم، من سورة إبراهيم، الآية 42، «ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار» ثم يقتبس الثاني من وصايا ماكيافيلي الأمير: «على الأمير أن يقرأ قصص الأولين من الذين سبقوه، وأن يعتبر أعمال الجيدين منهم، ويرى كيف حكموا في فترة الحروب والقلاقل، أن يتأمل أسباب انتصاراتهم وهزائمهم حتى يهتدي بهذه ويتجنب تلك»[24].

فالمؤكد أن ينتبه قارئ "جملكية أرابيا" للخيط الواصل بين التصديرين ومسار الحكاية في الرواية الذي يدور حول الحاكم بأمره ملك ملوك...

وأما الجديد في تصدير رواية "البيت الأندلسي" فاقتباس التصدير الأول من نصها، جاء فيه: «إن البيوت الخالية تموت يتيمة غاليليو الروخو (سيدي أحمد بن خليل)»[25]، ومن ثم ينتبه القارئ إلى أن صاحب القول هو من الشخصيات الرئيسة التي دارت حولها حكاية البيت، فهو من بناه، والوصية ترجع إليه، وهذه المقولة بالذات، لا يمكن أن يغفلها القارئ المتمعن لأنها ترتبط في مسار الحكاية بالوصية التي تركها غاليليو الروخو لأبنائه، ولعل إدراجها ضمن مبحث التواتر في تقنيات السرد كان الوسيلة الأمثل لتثبيتها وتأكيد أهميتها، فالسرد المكرر الذي يروي أكثر من مرة ما حدث مرة واحدة (...) بمعنى أن نسب تكرار الحدث في الخطاب أكثر من نسب تكراره في الحكاية»[26]، إنّما يكثف نصيا لنقل كل الرؤى تجاه هذا الحدث أو هذه الوصية، خوفا من عواقب عدم تطبيقها أو تنفيذها، ومن ثم تكرارها يمكن السارد من الكشف عن مختلف النفسيات، ومواقف الشخصيات، وأول ما وردت هذه الوصية في "توشية مراد باسطا": «حافظت على نزف جدي الروخو ونداءاته التي أكلتها البحار، وسكنتنا: حافظوا على هذا البيت. فهو من لحمي ودمي. ابقوا فيه ولا تغادروه حتى ولو أصبحتم خدما فيه أو عبيدا»[27]، يوصيهم الجد بعدم ترك البيت، لأن البيوت الخالية تموت يتيمة. ويتكرر المقطع نفسه على لسان الشخصية نفسها "مراد باسطا" ولكن المسرود له قد تغير، فبينما كانت "سيكا"

هي المتلقي الأول، تصبح "سارة" صديقة "سليم" حفيد "باسطا" هي المتلقي، وينتقل السياق السردي إلى مقام آخر، يقول باسطا متحدثا عن حفيده: «... هو الوحدي الذي حمل على ظهره قصة هذا البيت ونفذ وصية جده: حافظوا على هذا البيت فهو من لحمي ودمي، ابقوا فيه ولا تغادروه حتى ولو أصبحتم خدما فيه أو عبيدا؟»[28].

ويتكرر المقطع نفسه مرات عديدة وليبرر السارد حضور هذه الوصية المكثف يصفها بالجملة الأثيرة التي كان يكررها والد "مراد باسطا" على مسمعه، فيسردها مرة أخرى في الفصل الثالث الموسوم بعنوان: "أسرار المخطوطة قديمة"، «لم يمنحني الشيء الكثير سوى أنه كرر على مسمعي جملته الأثيرة التي أصبحت مع الزمن مثل الحبل الذي يوضع على العنق: حافظوا على هذا البيت. فهو من لحمي ودمي. ابقوا فيه ولا تغادروه حتى ولو أصبحتم خدما فيه أو عبيدا»[29].

يبدو أن هذه الوصية التي تكررت عبر مسار كل الحكاية كان لابد أن يخلص منها القارئ إلى حكمة التصدير فـ"البيوت الخالية تموت يتيمة" والبيت الأندلسي عبره ناس كثيرون، وفي كل مراحله هُمش ورثته الحقيقيون، ولكنهم حافظوا على الوصية، فبقوا فيه خدما (مراد باسطا ووالده وجده) ولم يغادروه حتى هدم، يحكي "مراد باسطا" ذلك ويقول: «في البداية عندما غادر الفرنسيون البيت، طلبوا من والدي أن يستمر في الاهتمام به (...) بل إنهم منحونا ورقة تعترف بوجودنا كساكنين وكمحافظين على المكان، حتى عندما توفي والدي: استمررت في أداء مهامه»[30].

ويضيف في مستوى آخر من سرده: «ظللت أسير البيت الأندلسي، إذ كنت الوحيد بعد المرحوم والدي من كان يعرف كل أسراره كنت أدخله من بابه السري الذي كان يفصل دار الخدم عن بقية البيت»[31].

ويأتي التصدير الثاني ليكون بمثابة الخاتمة التي فيها العزاء الجميل لمراد باسطا الذي شهد ردم البيت الأندلسي، وموته على الرغم من كل الجهود التي بذلها

من أجل الحفاظ عليه ليتبين له في الأخير أن الدوام لله وحده وهو الأمر الذي يؤكده واسيني الأعرج بالاستشهاد ببيت الشاعر "أبي البقاء الرندي": وهذه الدار لا تبقى على أحدولا يدون على حال لها شان.

العناوين الفرعية الداخلية/عناوين الأقسام والفصول: لا تختلف وظيفة العناوين الداخلية عموما عن وظيفة العنوان الرئيس الذي يحيل القارئ إلى مضمون النص وهو الأمر الذي أشار إليه جنيت بالرجوع إلى الأعمال الأدبية الكلاسيكية مستشهدا بعناوينها الداخلية والتي غالبا ما تحمل اسم البطل أو اسم المغامرة التي يعيشهـــا[32] غير أنه لاحظ بأن التطور الذي عرفته الأجناس الأدبية عامة وعرفه جنس الرواية بخاصة قد أثر على العناوين الفرعية التي ارتبطت بتقنيات الكتابة الجديدة، حيث أصبحت الرواية قائمة على خطة واضحة الأقسام تحوي فصولا مرقمة معنونة وتنضوي تحتها عناوين أخرى، تمكن من التمييز بين الأقسام، وقد وضح جنيت نفسه الوظيفة الرئيسية التي تسند لهذه العناوين الداخلية والمتمثلة في الوظيفة الوصفية التي تتحقق من خلالها العلاقة التواصلية بين القارئ والنص. وعليه، يمكن لمتصفح الرواية أن يتبين أولا هيكلها الخارجي ويعرف مسبقا محتوى كل فصل على حدة.

و"البيت الأندلسي" من هذه الروايات الجديدة التي اعتمد فيها مؤلفها على نسق مميز وذلك بإتباع تقنيات ومعمارية الموسيقي والأغنية الأندلسية.

لقد وظف واسيني هذه المصطلحات كمسميات لأقسام الرواية، حيث نلاحظ بأنها تبدأ باستخبار فتوشية فنوبة فوصلة ليأتي بعدها الفصل الأول والثاني والثالث ثم الرابع وأخيرا الفصل الخامس، ولتوضيح هذه الخطة، يمكن فهرستها كما وردت في نص الرواية على النحو الآتي:

- استخبار ماسيكا.
- توشية مراد باسطا[33].

الفصل الأول: نوبة خليج الغرباء[34].

- من أوراق سيدي احمد بن خليل المدعو "غاليليو".
- الورقة الأولى: المحروسة شتاء 157.
- الورقة الثانية: المحروسة، خريف 1573.
- الورقة الثالثة.

الفصل الثاني: وصلة الخيبة[35].

- من أوراق سيدي احمد بن خليل المدعو غاليليو.
- الورقة الرابعة، صيف 157.
- الورقة الخامسة.
- الورقة السادسة شتاء 1575.

الفصل الثالث: أسرار المخطوطة القديمة[36].

- من أوراق احمد بن خليل المدعو غاليليو.
- الورقة السابعة، شتاء 1575.
- الورقة الثامنة.
- الورقة التاسعة.
- الورقة العاشرة.

الفصل الرابع: في مهب الرماد[37].

- من أوراق مارينا بلاثيوس بن خليل.
- الورقة الحادية عشرة.
- من أوراق حفيد لالة سلينا.
- الورقة الثانية عشرة.

الفصل الخامس: لمسة سيكا الناعمة[38].

يتبين لنا من خلال فهرس هذه العناوين التي تحيل إلى متن الحكاية، أن المؤلف قد بنى روايته على أساس خطة متوازنة الأقسام، فبعد استخبار "سيكا" و"توشيه

مراد باسطا" وزع المحكي المتبقي على خمسة فصول: خصص الفصل الأول والثاني والثالث لأوراق سيد أحمد بن خليل وقد بلغ عددها عشر أوراق، وأضاف ورقتين في الفصل الرابع، الورقة الحادية عشرة وهي من أوراق مارينا بلاثيوس بن خليل، والورقة الثانية عشرة وهي من أوراق حفيد لالة سلينا، وجعل الفصل الخامس للمسة سيكا الناعمة وبه تنتهي الحكاية.

وأول سؤال يطرح بعد النظر في هذه العناوين يتعلق بالمصطلحات الموسيقية التي وظفها المؤلف وعلاقتها بمتون هذه الحكاية، وعليه، نشير أولا إلى أنها أرفقت بعد ذكرها بهوامش، والتي تعد هي الأخرى من النصوص المصاحبة للحكاية التي بدأت بـــ"استخبار سيكا"، يقول المؤلف في تعريف الاستخبار: «قطعة موسيقية أندلسية افتتاحية صغيرة، وهي مقدمة لما سيأتي لاحقا، القصد من ورائها شد انتباه المستمع وإدخاله في الموسيقى، تعزف فرديا بآلة وترية واحدة، أو جماعيا بمختلف الآلات[39].

يبدو أن بداية الرواية هي الافتتاحية التي أعلنت فيها سيكا بأنّها الساردة التي اجتهدت من أجل تسجيل ما سرده مراد باسطا والذي دونته بعد عمل وجهد كبيرين لتثبيت كل ما ورد في الحكاية، نتبين ذلك من المقاطع التي تتجه فيها إلى القارئ قبل أن تبدأ السرد، تقدم وتعرف بنفسها «أنا ماسيكا وإن شئتم سيكا بنت السبنيولية (...) لم أقم أبدا في البيت الأندلسي ولو يوما واحدا، ولست وريثة لا شرعية، ولا غير شرعية لممتلكاته (...) القصة معقدة جدا، ولكني سأحاول أن أفككها لتصبح مستصاغة ومقبولة»[40]. ومن ثمّ فهي من سجلت ما رواة مراد باسطا، ونقلت عنه ما احتفظت به ذاكرته: «أفتح المسجل الرقمي وأترك صوته يختلط بصوت البحر وحكايته بتمزق الأمواج الممتلئة بالمبهم والأسئلة المعلقة، يستمر ساعات طويلة وهو يسترجع خمسة قرون أفلت مثل النجمة المحروقة»[41]، وتضيف إلى ذلك إشارتها للمجهود الذي قامت به وهي تبحث عن أسرار المخطوطة: «عندما ذهبت إلى إسبانيا، بحثت في وثائق الاسكور يال ومكتبة طوليدو القديمة عما ذكره غاليليو

عن حياته وعن تهجير المورسكيين والمارانيين وحاولت أن أرمم الحكايات وأقوم المزالق لم تكن كثيرة»[42].

والجدير بالملاحظة أن "سيكا" قبل أن تتحول إلى ساردة كانت أول مسرود له فوحدها سمعت وعرفت حكايات مراد باسطا كما رواها، وعلى الرغم من تأكيدها على الأمانة الكبيرة التي تعاملت بها في سرد الحكاية إلاّ أنها تقول: «لم أضف الكثير وأنا أدون بوفاء كل ما قاله مراد باسطا إلا بعض التدقيقات فيما يتعلق بمعاني لغة الخيميادو»[43]، وتشرح للقارئ لماذا فعلت ذلك فتقول: «قمت بهذا الجهد لا لأكون كاتبة، فأنا لست معنية بذلك أبدا ولكن لأكون وفيه للرجل»[44] وتشير في نهاية المقطع لوفائها للرجل "مراد باسطا" الذي جمعتها به علاقة وطيدة تردها في سردها إلى سن الطفولة عندما كانت تلميذة في صف طلابي، قدم من المدرسة في زيارة للبيت الأندلسي: «كان عمي مراد باسطا (كنت أناديه عمي وعندما كبرت قليلا، قال لي ناديني باسمي أحلى) قد شرح لنا قصة البيت الأندلسي»[45]، كما تذكر في مسار الحكاية أنها كانت هي من خلصت المخطوطة من نيران حريق شبّ في البيت.

وعليه، يتضح من هذا "الاستخبار" علاقة سيكا كساردة بالحكايا التي سردتها فبينما كانت غريبة عن حكايا الأولين، بمعنى ساردة خارجة حكائيا متباينة حكائيا لكل قصص الشخصيات التي عمرت البيت الأندلسي قبل أربعة قرون بدءً بقصة غاليليو الروخو الذي بنى البيت الأندلسي لحبيبته لالة سلطانة وصولا إلى قصة لالة نفيسة فدار زرياب، فإقامة الإمبراطور ....الخ.

نفهم من ذلك أن رواية البيت الأندلسي قد تشكلت من مجموعة حكايا وانبت على مسارين حكائيين، مسار حكايا الأولين ومسار حكاية مراد باسطا الوريث الشرعي للبيت الأندلسي، وعلى الرغم من نقل الساردة لتاريخ هذه الدار عبر الأسماء التي عبرتها فإنها لا تنظر لمنتها على أنه تأريخ، الأمر الذي نتبينه من قولها: «ليس المطلوب مني أن أكون وفية للتاريخ، لست مؤرخة ولن أكونها ولكن

لقصة الدار وحكايتها، وأكثر من ذلك كله أن أكون في صلب حلم مراد باسطا»[46].

ولما كانت سيكا في صلب حلم مراد باسطا، –على حد تعبيرها– فقد تحولت إلى ساردة داخلة حكائيا متماثلة حكائيا لأنها شاركت في قصة نضال مراد باسطا للحفاظ على البيت الأندلسي: «يبدو أنني تورطت في البيت الأندلسي وأصبحت أعرفه أكثر حتى من الذين سكنوه وأقاموا فيه، أو حتى الذين توالوا عليه على مدار أكثر من أربعة قرون»[47].

وتخلص هذه الساردة في نهاية الاستخبار للتأكيد مرة أخيرة على أمانتها في تعاملها مع المادة المسرودة، تقول: «هذا هو الكتاب بلحمه ودمه وأنينه، لم أضف إليه شيئا من عندي سوى ما رواه مراد باسطا أو ما أومأ به، لم أتدخل إلا بما يساعد على استقامته (....) هذا الكتاب هو حقيقة غاليليو ومأساته وحقيقة مراد باسطا وخيباته، وحقيقتي أيضا وخوفي أنا التي تبدو غير معنية بما يدور من حولها»[48].

يتضح من خلال هذه المقاطع المقتبسة من "استخبار سيكا" العلاقة، التي يمكن تسميتها بالعلاقة الوظيفية بين ما قالته سيكا في استخبارها وبين استخبار الموسيقي الأندلسية، فإذا كانت وظيفة الاستخبار شد انتباه المستمع وإدخاله في الموسيقى، فإن وظيفة هذه الساردة في استخبارها توضيح علاقتها بالبيت الأندلسي، وبمراد باسطا وعلاقتها، بخاصة، بالسرد وتموضعها بين كل الساردين بدءً بغاليليو الذي كتب المخطوطة إلى والد مراد باسطا، فمراد باسطا نفسه وصولا إلى سيكا وبحثها واكتشافها لآخر ورقتين في المخطوطة، ورقة لالة مارينا ابنة غاليليو وورقة حفيد سيلينا ومعايشتها لنضال هذا الوريث الشرعي للمحافظة على البيت الأندلسي وخيباته حتى موته وتكفلها بدفنه في مقبرة ميرامار مع أجداده.

تلتقي هذه الإضاءة التي قدمتها سيكا في استخبارها في وظيفتها مع الاستبخار الموسيقي، فاستخبارها فيه شد لانتباه القارئ وإغراء بمتون الحكايا وخلق لفضول معرفة حقيقة البيت الأندلسي.

ويرد بعد "استخبار ماسيكا"، "توشية مراد باسطا" فيعود المؤلف ثانية إلى الهامش ويشرح معنى التوشية: «التوشية كما يبدو من اسمها مقطوعة زائدة عن النظام الموسيقي العام، لها وظيفة إيقاعية تجميلية، القصد من ورائها الاستراحة واستعادة الأنفاس، والتحضير الموسيقى لما سيأتي من بعد»[49].

نلاحظ أن مراد باسطا لم يطل كثيرا في توشيته، ومن خلالها يبدو أنه يأخذ هو نفسه، استراحة قبل البدء في السرد كما يعطي للقارئ استراحة ليستوعب من خلالها الأسباب التي دفعت به للتفكير في سرد قصة البيت الأندلسي ومن خلالها قصته.

ويظهر من تسميتها بانها تلتقي مع التوشية الموسيقية في عدة نقاط تشابه نحاول تعينها من خلال ما ورد فيها.

والجدير بالملاحظة، أنها تبدو زائدة عن النظام النصي الذي انبت عليه الرواية وبخاصة اذا أخذنا بعين الاعتبار استخبار ماسيكا الذي شرحت فيه ما يقدم للموضوع، واعتباره بذلك افتتاحية وبخاصة أنها أحالت القارئ إلى "مراد باسطا" كسارد أول، أخذت عنه الحكاية، ولأننا نقرأ في التوشية الإشارة نفسها فيبدو للقارئ أنها زائدة لأنه سبق وعلم بأنّ "مراد باسطا" هو من سرد هذه الحكايا ولكنها تختلف من جهة وظيفتها حيث يبدو جليا أنّ "مراد باسطا" قد استعاد أنفاسه قبل البدء بالسرد، وقد عبر عن ذلك عندما قال مخاطبا سيكا: «تدفعيني للحديث كمن يدفع سيارة معطلة، تتمايل، تهدهد، ولكنها عندما ينطلق محركها، تندلع كقذيفة، بحيث لا قوة في الدنيا توقفها عن جنونها، هذا هو أنا بالضبط، بدأت ولا أدري كيف سأوقف هذا الهدير»[50].

وتتجلى الاستراحة التي أخذها "مراد باسطا: من جهة أخرى على مستوى خفوت وتيرة السرد، الذي تباطأ نتيجة لتقاطعه مع الوصف الذي استعان به السارد لنقل انطباعاته وتأملاته للقارئ، فتبدو التوشية وقفة سردية يفتح من خلالها مراد باسطا فسحة للتأمل فيما مضى من عمره وحياته التي تسريت من بين يديه ويحاول أن يعبر عنها بلغة شاعرية حزينة، ويلخص تجربة الإنسان عامة كحكيم أدرك معنى الحياة من ذلك قوله: «عندما يداهمنا العمر بقسوة نجد في الكف المفتوحة حفنة من الهواء الساخن، وبقايا خطوط جلدية، ترسم تفاصيل حياة اندثرت بسرعة وكأننا لم نعشها أبدا، وحاذيناها فقط، وحنين أشياء مبهمة لا نعرف أسرارها نكتفي بحبها ونمضي ونحن لا ندري لماذا؟[51].

وعليه، نفهم سبب خفوت السرد في هذه التوشية التي لا ينقل السارد من خلالها أحداثا بل يقدم انطباعا عنها ليكشف عن أثرها في نفسه بعد عمر يراه قد تبدد وتحول إلى رماد فيقول: «أكثر من ثمانين سنة مرت عليّ وكأنّها لفحة ريح ساخنة» ليخبر القارئ بعد ذلك بما أدركه وفهمه: «عرفت الآن لماذا؟»[52]، كان جدي غاليليو الروخو الموريسكي الضائع يلح على البقاء ولو في هيئة خادم ملتصقا بحجارة البيت الذي بناه بأنامله مثل الذي يعرف نوبة أندلسية على تلوينات طبوعية مختلفة: رمل المايه، زيدان، سيكا، جاهاركا، موال، مزموم، عرق، غريب البيوت في هذه البلاد، كانت تعزف ولم تكن تبنى»[53].

ونلاحظ بأن السارد يكرر للقارئ بأنه فهم، من ذلك «أفهم الآن لماذا أنسحب الذين كنت أحبهم بسرعة نحو الموت»[54]، ويضيف في مستوى آخر: «أدرك أيضا لماذا انسحبت الشمس مبكرا (...) لا اعتقد أن الشيطان هو من خان الأمانة (...) وليس هو من عمق سحر غواية التفاحة في عيني حواء»[55].

وبعد أن يعرض السارد خلاصة ما استوعبه من حياته وتجربته يعلن للقارئ أنه لم يبق من عمره الكثير: «ربما رمشة عين... خفقة قلب... همسة... لمسة... ثوان (....) وسيكون الطلب كبيرا وربما مستحيلا[56] ويأتي ليخبر بأنه قرر الكتابة:

«احتاج اليوم وأنا أملأ الفجوات البيضاء التي بدأ يأكلها نداء القلب، والرجع البعيد وداء الخرف، إلى أن أدون شهوتي المتقدة، وأكتبها قبل فوات الأوان، تماما مثلما فعل أجدادي الأوائل»[57]، وفي هذا المستوى يعود مراد باسطا ليكرر ما سبق وأن ذكرته سيكا في استخبارها ولكن من وجهة نظر أخرى، إنها وجهة نظر خيبة الأمل التي عرفها في نضاله من أجل الحفاظ على البيت الأندلسي ولهذا يذكر من سبقه للكتابة قبلا، وكأنها كانت الأمل الوحيد المتبقي: «لقد فعل ذلك جدي الأول غاليليو الروخو، تبعته ابنته مارينا (...) وتبعتها سيلينا التي عاشت خراب التبدد والخوف ثم تتالى أفراد السلالة (....) كانت الصدفة الغريبة... ربما كنت آخر من عرف العلامة، وحفظ السرد بعد أن اندثر الجميع»[58].

ويعتمد المؤلف على صيغة التواتر ويستعين بتقنية السرد المكرر ليؤكد على رغبة مراد باسطا في الكتابة، «بقي لي شيء واحد وعظيم، حقي في الاستقامة والكتابة مثلما فعل السابقون (...) كانوا كلما أظلمت الدنيا في عيونهم يعودون نحو أقلامهم، وتنتهي التوشيه كما بدأت بخفوت سردي، يُشعر القارئ بالاستراحة التي أعطيت له قبل بدء الحكاية.

وتنطلق الحكاية من فصلها الأول بعد استخبار "ماسيكا" و"توشية مراد باسطا" ويعنون الفصل بـــ "نوبة خليج الغرباء" ويشرح المؤلف كما فعل قبلا مفهوم النوبة: «مقام موسيقي أندلسي معروف، هناك عدد معين من النوبات جاء بها المورسكيون واليهود أثناء عمليات التهجير القسري في القرنين السادس عشر والسابع عشر نحو بلاد الغرب وغيرها، الكثير منها موجود متوارث عن طريق السماع، لكن الكثير منها ضاع»[59].

ويبدو ارتباط العنوان بالمتن واضحا، وذلك لأن القارئ لا يقف في هذا الفصل على مقام/حدث بعينه وينتقل به السارد من مقام قصة إلى أخرى، وبينما يبدأ من حاضره، الذي يرتبط بشخصية "موح الكارتيل" أو الحاج كما يسميه الأقرباء[60] الذي كان يسكن في البيت الأندلسي وينتقل منه إلى قصة سارة عشيقته، ومن

خلالها يدخل سليم حفيده ليعود بعد ذلك للمخطوطة وقد احتلت مقام الشخصية الأكثر حضورا في الحكايات وقد ساهمت في أغلب التحولات التي عرفها مسار الحكاية، ومن خلالها كان ارتداد السارد إلى ماضي جده غاليليو وجدته لالة سلطانة، وتعود به ذاكرته إلى عطر الياسمين الذي كان يقوم بتقطيره جده، وسمي بعطر "لالة سلطانة" وكان يهديه لأحبة، ومن خلال قصته يرتد راجعا من ذلك الماضي البعيد إلى ماضي جده والد أبيه الذي فتح دكان عطور لالة سلطانة، وكان خليج الغرباء بمثابة واجهة الفضاء الذي تنتقل منه الذاكرة إلى فضاءات أخرى.

وعليه، يتبين للقارئ بأن نوبة خليج الغرباء لا تستوقف القارئ عند حد قصة بعينها وينتقل فيها من مقام إلى آخر ولذلك يستغل المؤلف المفارقات الزمنية التي تمكنه من الانتقال من إحداث آنية إلى أحداث ماضية ينتج عنها تركيب زمني يخلقه توالد الحكايا الذي يرتبط بدخول الشخصيات سرح الأحداث بدأت بـــ (موج الكارتيل /فـــ: سارة/ فـــ: سليم)[61] ولهذا تكثف الأحداث وتتراكم القصص ومن ثم ينتقل السرد الذي بدا خافتا في التوشية إلى سرد سريع يسعى من خلاله السارد إلى بلوغ أكبر عدد من الأحداث قبل أن ينتقل إلى حكايا الماضي، التي تضمنتها أوراق جده غاليليو الروخو.

ويعود المؤلف إلى أوراق سيد أحمد بن خليل غاليليو ونلاحظ بأنها شكلت بمتونها أكبر حجم من نص الرواية عشر أوراق كتبها غاليليو ورقة لسيلين كتبتها عن والدتها مارينا وأخيرا ورقة حفيد لالة سيلينا.

تستوقف القارئ هذه الأوراق التي جعل لها المؤلف عتبات تمكن القارئ من فهم متونها، بل وتعطيه فكرة عن مضمونها قبل أن يبدأ القراءة.

واللافت للانتباه أنّ المؤلف قد أشار أولا إلى أنّ القارئ سيتعرض لأوراق غاليليو ولهذا يضع العنوان الداخلي الشامل: «من أوراق سيد أحمد بن خليل المدعو "غاليليو"»[62]، ويفهم القارئ من الهامش الذي جاء تحت هذا العنوان، أنه كتب على أول أوراق المخطوطة.

وعليه نفهم بأن هذا هو المستوى الذي عادت فيه الساردة إلى المخطوطة وأوراقها، كما نلاحظ بأن الساردة "سيكا" هي التي وضعت الهوامش التي تشرح فيها وتصف ما ورد في هذه الأوراق، ولهذا يكون الهامش الأول لأول ورقة في المخطوطة، فتبدأ "سيكا" بوصفها وكأنها تقدم للقارئ عتبة غلاف تلك الأورق: "كتب على الورقة الأولى بالخط الأحمر المغربي (...) ثم كتب تحتها التاريخ الميلادي، شتاء ١٥٧٠ بخط أحمر أيضا لكي يصبح بارزا .."[63] وتنتقل في الهامش الثاني للتعريف بغاليليو الذي أشير إلى اسمه بالرقم المكرر في الهامش للإحالة : ١٨[64] ثم تنبه القارئ إلى التشويه الذي عرفه اسمه على ألسنة الإسبانيين بسبب اللكنة التي في ألسنتهم وهو التحريف الذي تمثل له بأسماء غيره من العرب تستشهد ببعضها ثم تحيل القارئ إلى كتاب "ميمون البيلنسي" الموسوم بعنوان: "ترحيل الخلف نحو بلاد السلف" وتذكر أنه احتوى في متنه إشارة إلى السيد أحمد بن خليل وعليه يدرك القارئ قيمة الهامش الذي كان بمثابة المرجعية التاريخية التي اعتمدت عليها "سيكا" للإحالة إلى ما ورد في التاريخ، ويثبت ما رواه "غاليليو الروخو" في أوراقه.

ونقرأ بعد الورقة الأولى عناوين كل الأوراق مرتبة حسب تتابعها من الورقة الأولى إلى الورقة العاشرة، تبعت في كل مرة بملخص عن مضمونها، والجدير بالملاحظة أنه يمكن جمعها للحصول على ملخص شامل لكل الأوراق وتفاديا للتكرار نظرا لكثرة عددها، سنعمد في تحليلنا للتمثيل بما ورد في الرقة الأولى:

" الورقة الأولى

المحروسة شتاء ١٥٧٠[١٩]

وفيها ظروف اعتقال سيد أحمد بن غاليليو الروخو، وطرده من حاضرة غرناطة الجريحة وترحيله إلى منافي وهران بعد موقعة البشرات وتعدي محاكم التفتيش المقدس على حرمة جسده ولقاؤه مع مالك روحه ومنقذه الكاهن الطيب "أنجيلو ألونصو"[65]

ويبدأ بعد هذا الملخص متن المحكي ونلاحظ أن المؤلف قد قسمه إلى قسمين ورقمهما للفصل بينهما، ولهذا كان الرقم (01) أعلى المتن كفاصل بينه وبين الملخص. وبعد ثلاثة أسطر لا أكثر يرد الهامش الذي يظهر أنه يشغل نصف المساحة المتبقية، ويتضح بأنه الهامش المرقم برقم (١٩) وقد وضع عند نهاية التاريخ بعد رقم الورقة ليحيل القارئ إلى مكان وتاريخ كتابتها: المحروسة شتاء بتاريخ ١٥٧٠.

كما يتبين للقارئ بأن "سيكا" هي فعلا واضعة الهامش، ولهذا ورد اسمها آخره بين قوسين. وعليه تبدأ سيكا بالإشارة إلى الصعوبة التي واجهتها في ترتيب هذه الورقة لأنها جاءت مفصولة عن بقية الرحلة الأولى لـــ "غاليليو"، كما تذكر بأن الورقة كانت مكتوبة بلغة الخيميادو وتشير إل أن الثقوب التي خلفتها دودة الورقة لم تأكل إلا قليلا من جنباتها، ولهذا بقي خطها واضحا مقروءا وبأن فضل ترجمتها إلى اللغة العربية يعود إلى "سليم" حفيد "مراد باسطا" وعليه تتقدم له بالشكر.[66]

وتتوالى أوراق غاليليو الروخو على المنوال نفسه، حيث يسبق المؤلف كل واحدة منها بعد تحديد رقمها بملخصها، لكننا نلاحظ بأن الساردة لا تهمش لكل الأوراق، حيث اختفى بعد أول ورقتين وعادت لاستخدامه في آخر ورقتين لتقدم للقارئ مجموعة معطيات حولهما، فتخبره أولا بتفردهما، وبأنها كانت هي من عثرت عليهما في متحف باريس، بينما كانت تبحث عن المخطوطة الضائعة فتذكر بأن الورقة الحادية عشرة لم تكتبها مارينا وإنما سيلينا الحفيدة وعنونتها كذلك لأنها تتحدث عن "مارينا" وتشير إلى يقينها من هوية كاتبتها بينما تذكر شك "مراد باسطا" فيها.[67]

وأما هامش الورقة الثانية عشرة فتبدأه "سيكا" بالإشارة إلى مجهولية كاتبه الذي لم يضع اسمه على الورقة، لكنها تذكر بأنها فهمت من محتواها ما يحيل إلى أن كاتبها كان من أصحاب البيت الأندلسي، ثم تنتقل للحديث عن مضمونها الذي أشار فيه صاحب الورقة إلى تحول البيت الأندلسي إلى قصر بعد أن نزعت مقصورته

وأضافت له "خداوج العمياء" طابقا، بالإضافة إلى اختصار والدها "الخزناجي" حدائقه لبناء مخازن كان يستعملها لمصالحه التجارية.[68]

ويرد بعد ذلك الفصل الخامس المعنون بـــ : "لمسة سيكا الناعمة"، وعليه تكون بداية الرواية باستخبارها وتنتهي بلمستها، وبينما يتوقع القارئ أن تكون هي الساردة، يأخذ "مراد باسطا" الكلمة ويرتد بذاكرته لسرد قصة حريق البيت الأندلسي وتخليص "سيكا" للمخطوطة من النيران، إل أن يصل خبر قرار إخراجه من البيت وانتقاله إلى سكنه الجديد، ليختم سرده بمشهد تدمير البيت، قتله أو موته لتبقى صورة "سيكا" آخر ما تحدث عنه.

وتختتم الرواية بوضع المؤلف لأسماء ثلاثة بلدان « فرنسا، الجزائر، إسبانيا شتاء 2010»[69] وهو بذلك يحيل إلى أماكن وتاريخ كتابتها.

وآخر عتبات البيت الأندلسي الهوامش التي صاحب المتن، وكانت ذات وظيفة مفيدة، لأنها وضعت لإلقاء الضوء على ما يمكن أن يتصور الكاتب غموضه بالنسبة للقارئ، فيعود للهوامش من أجل الشرح أو التعريف أو الترجمة أو رد الكلمة الغامضة إلى لغتها الأصلية، من ذلك إحالة القارئ للتعريف ببعض الأعلام المذكورين مثل بن بلة ومحمد خميستي وحاكم الجزائر الفرنسي وبعض الحكام العثمانيين ...إلخ بالإضافة إلى شرح بعض الكلمات الإسبانية مثل "فالسو" و"باسطا" ...إلخ، وغيرها مما ذكر آنفا. والملاحظ أنها كانت ضرورية توخى الكاتب من خلالها الإيضاح وإزالة كل غموض يمكن أن يعرقل القارئ.

وعليه تكون رواية "البت الأندلسي" شبيهة في جانبها الفني وتقنيات كتابتها بفن العمران الذي يحتاج المهندس فيه، بالإضافة إلى الموهبة والذوق الفني، إلى علم في الهندسة لضمان أسس عمرانه.

يبدو لي أن "واسيني الأعرج"، من خلال متابعتي لرواياته الأخيرة قد تحول إلى عالم بفن كتابة الرواية، وقد صقل بعلمه موهبته الفذة، وربما يمكن أن أقول إنه تحول من كاتب مبدع إلى كاتب عالم بفن الكتابة.

الهوامش:

* - تختلف النشوة التي نتحدث عنها عن "لذة النص" التي تحدث عنها "رولان بارت"، وبخاصة لأنه يردها إلى اللذة التي يكتب فيها المؤلف ويتساءل إن كانت تضمن له متعة القارئ، هذا الأخير الذي يبحث عنه، ولا يعرف أين يجده. وعندئذ يخلق فضاء متعة أو لذة. وللرجوع إلى هذه الفكرة يمكن الرجوع إلى كتابه: "لذة النص"، منشورات سّوي، 1973، ص ص 11-12.

1- واسيني الأعرج، البيت الأندلسي [memorium]، منشورات الفضاء الحر، الجزائر، 2010 ص24.

2- المصدر نفسه، ص47.

3- المصدر نفسه، ص49.

4- المصدر نفسه، ص450.

5- السيوطي: **الإتقان في علوم القرآن**، دار الكتب العلمية: بيروت، ط2، ج2، 1991، ص231.

6-Gérard Genette, **Seuils,** éd. Seuil, Paris, 1987, p. 65.

7 -voir : Charles Grivel, Production de l'intérêt romanesque, Paris, La Haye, Mouton, 1973, p.173.

* - Gérard Genette, **Palimpsestes,** ed. seuil, Paris, 1982.

- Gérard Genette, **Seuils, ed. seuil, Paris, 1987.

***- Gérard Genette, **introduction à l'architexte**, ed. seuil, Paris, 2004.

****- خالد حسين حسين، **في نظرية العنوان مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية**، التكوين للنشر والتوزيع، 2007.

8- عبد الحق بلقايد، **عتبات جيرار جنيت من النص إلى المناص**، دار العربية للعلوم الاختلاف 2008، ص13.

9- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

10- ينظر: محمد القاضي وآخرون، **معجم السرديات**، دار محمد علي للنشر، تونس، 2010 ص63.

11-المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

12- محمد القاضي وآخرون، **معجم السرديات**، ص463.

13- الرواية، ص الغلاف.

14- الرواية، ص391.

15- الرواية، ص396.

16- الرواية، ص424.

17- الرواية، ص93.

18- الرواية، ص64.

19- الرواية، ص161.

20- غلاف الرواية.

21- غلاف الرواية.

22- غلاف الرواية.

23- عبد الحق بالعابد، **عتبات (جيرار جنيت من النص إلى المناص)**، ص107.

24- واسيني الأعرج، "**جملكية رابيا**"، **أسرار الحاكم بأمره ملك ملوك العرب والعجم والبربر ومن جاورهم من ذوي السلطان الأكبر، حكاية ليلة الليالي**، منشورات الجبل، 2011، ص5.

25- الرواية، ص5.

26- محمد القاضي وآخرون، معجم السريدات، ص324.

27- الرواية، ص31.

28- الرواية، ص43.

29- الرواية، ص202.

30-الرواية، ص338.

31- الرواية، ص339.

32- الرواية، ص7.

33- الرواية، ص27.

34- الرواية، ص35.

35- الرواية، ص103.

36- الرواية، ص198.

37- الرواية، ص311.

38- الرواية، الصفحة نفسها.

39- الرواية، ص7.

40- الرواية، الصفحة نفسها.

41- الرواية، ص7.

42- الرواية، ص9.

43- الرواية، ص17.

44- الرواية، ص24.

45- الرواية، ص7.

46- الرواية، ص22.

47- الرواية، الصفحة نفسها.

48- الرواية، ص24.

49- الرواية، ص27.

50- الرواية، ص28.

51- الرواية، ص ص28-29.

52- الرواية، ص28.

53- الرواية، ص32.

54- الرواية، ص31.

55- الرواية، الصفحة نفسها.

56- الرواية، ص30.

57- الرواية، الصفحة نفسها.

58- الرواية، ص ص 30-31.

59- الرواية، ص36.

60- ينظر: الرواية، ص38.

61- ينظر: الرواية، ص ص54-55.

62- الرواية، ص61.

63- الرواية، الصفحة نفسها.

64- الرواية، الصفحة نفسها.

65- الرواية، ص63.

66- الرواية، الصفحة نفسها/الهامش.

67- ينظر: الرواية، ص391.

68- ينظر: الرواية، ص 413.

69- ينظر: الرواية، ص455.

ملامح العرفنية وعلاقتها بالتداولية الغرايسية

أ. فليسي آمين
جامعة مولود معمري تيزي-وزو

تمهيد: لا يمكن الحديث عن المشروع التداولي الغرايسي وتشرباته الكثيرة في الاتجاهات التداولية المعاصرة (أوستين/ سيرل/ فان دايك/ غوفمان) دون الحديث عن إطار كلي ونظري يحكمه ويؤطر تحركاته النظرية والإجرائية كما يحرك نظريات لسانية أخرى، وغير لسانية، على مستوى متذبذب في جميع مستويات الفهم والتأويل والإجراء؛ فهذا الإطار يشكل رافدا أساسيا يكرس لنوعية التأويل داخل مختلف المجالات الإنسانية البحثية، ويسهر على تحديد مستويات التأويل ونوعيته مقارنة بدرجات الفهم والإدراك العقلي. وبالتالي، سيكون بحثنا محاولة للعودة إلى النتائج والمحصلات التي حققتها التداولية عموما، والغرايسية، على وجه الخصوص، في مجال فلسفة التواصل الإنساني على جميع الأصعدة والمستويات من اجل إيجاد التأثيرات العرفنية على المشروع الغرايسي بطريقة منهجية دقيقة دون إطالة في الكلام عن النظريات التداولية الأخرى. وكذلك، بالنظر إلى القيمة التي بدأت تكتسبها العلوم العرفنية، نتيجة المحصلات والنتائج التي جاءت بها ضمن تجاربها التي يشتغل فيها باحثون وعلماء متخصصون من كثير من المجالات العلمية والفكرية والمعرفية. ولعل أهم تحول ومنعرج حاسم في الدراسات التداولية كان ذلك النزوع نحو الأسس العقلية والاستدلالية (المنطق الأرسطي) عوض الدراسات التي كانت تكتسي بنزعات تجريبية محضة، كالنظريات التي كانت قائمة على الرؤية البافلوفية، والتي كرست لها النظرية التوزيعية بزعامة بلومفيلد وواطسن وهاريس في عهد اول من أبحاثه.

لعل هذا التحول نحو النزعة العقلية في دراسة اللغة واللسان بدأ يتطور مع فكر اللساني (أفرام نعوم تشومسكي) (Avram Noam Chomsky) الذي بدأ يكرس لأنظمة العقل ويبتعد عن النزعة البلومفيلدية التي ظل إلى عهد قريب ينتمي إليها. وجعل النظام العقلي الأساس الذي تسير وفقه الأنظمة البحثية وتنصاع إلى الرؤية المعيار الذي هو القدرة العقلية على الاستدلال الصحيح، حيث اقترح تشومسكي مقاربة توليدية للمسائل اللغوية كما تقدم جورج ميلر بنتائج تجاربه (غير السلوكية) حول الذاكرة والتي تبين أن الذاكرة القصيرة المدى (ذاكرة العمل التي نستعملها عندما نفكر في المهام البسيطة) لا يمكن أن تشتمل على أكثر من خمسة عناصر (مع إضافة عنصرين أو إنقاصهما).

لقد عرضت مداخلة نيوال Newell وسيمون Simon النتائج الأولى للذكاء الاصطناعي، وقطعت مقاربة تشومسكي Chomsky العلاقة بالبنيوية (الأوروبية أو الأميريكية) في اللسانيات واقترحت مقاربة رياضية للغة تُمكن من تصور معالجة آلية تفضي إثر ذلك إلى نظرية نفسانية ومعرفية، فيما بينت محاضرو ميلر خصوبة المقاربات التجريبية غير السلوكية في مجال قضايا الاستدلال والقدرات الذهنية واستخداماتها.

كما تجدر الإشارة إلى أن ظهور العلوم المعرفية (علم النفس واللسانيات وفلسفة العقل والذكاء الاصطناعي وعلوم الأعصاب) جاء رداً على التيار السلوكي، حيث يمكن القول أن العلوم المعرفية حددت طريقة اشتغال العقل/الدماغ وبيان كيف أن العقل – البشري خصوصا– يكتسب معارف ويطورها ويستعملها اعتمادا على الحالة الذهنية. ومن هنا يمكن إرجاع هذا البرنامج المعرفي إلى الخمسينيات من القرن الماضي، وبالتحديد إلى سنة 1956 أي مع ظهور أولى مقالات تشومسكي Chomsky، وميلرMiller ونيوال Newell، وسيمون Simon، ومينسكي Minsky، وماك كولوك McCulloch

وهذا في الحقيقة، يأتي، كمحاولة لربط أطروحاتهما بالتداولية المعرفية؛ التي اشُتهر فيها كل من دان سبيربر(Dan Sperber)، وديردر ولسن(Deirdre Wilson) .

1- الفعل اللغوي والحالات الذهنية: حسب آن ربول وجاك موشلار فإن نظرية الأعمال اللغوية زامنت نشأة العلوم المعرفية، ورغم ذلك، فإن التداولية المنبثقة من الأفعال اللغوية لا تبدو لنا إطلاقا نظرية معرفية، فهي في بعض الوجوه أقرب إلى السلوكية منها من العلوم المعرفية. وما يفصلها عن السلوكية أنها تُقر بوجود الحالات الذهنية، إذ ليست المقاصد المعبر عنها في نظرية الأفعال الكلامية سوى الحالات الذهنية. ومن هنا يتجلى لنا تلك العلاقة الموجودة بين الحالات الذهنية واللغة بحد ذاتها وهذا ما أدى بسيرل إلى القول بمبدأ الإبانة والذي يعني أن كل حالة ذهنية (فكرة أو اعتقاد أو رغبة...) تقبل الإبانة عنها بصراحة وحرفية بواسطة جملة، حيث يمكن القول أنه لا توجد حالة ذهنية لا يمكن أن تكون موضوع تعبير صريح، وبالتالي يمكن الحديث عن شفافية الحالات الذهنية أي يمكن ملاحظة السلوك اللغوي للأفراد، وهذا ما يجعلنا أقرب إلى السلوكية منه من العلوم المعرفية.

وبالتالي يمكن القول أن هذا التصور للعلاقات الموجودة بين الأعمال اللغوية والحالات الذهنية هو الذي جعل التداولية تتطور بمعزل عن العلوم المعرفية حيث أن هذه الأخيرة ستساعد كثيرا على إتمام النقائص الموجودة في المقاربات اللسانية[1].

2- علاقة السياق بالعمليات الذهنية:

أ- **تأويل الخطاب وبناء الافترضات المسبقة:** إن القضية المطروحة هو كيف بإمكان المخاطِب أن يبني افتراضات مسبقة حول المقصدية الإجمالية للمخاطَب وهل تأويل الأقوال هو تأويل للخطاب أو بمعنى آخر، هل تأويل الخطاب هو مجموع تأويلات الأقوال التي تكونه؟ وعلى أي مستوى تحدث هذه التأويلات؟ يقول جاك موشلار وآن روبول أن تأويل الخطاب مثله مثل تأويل الملفوظ (القول) يقوم على آليات مستقاة من نظرية الملائمة، ويحدث هذا على مستوى النظام

المركزي للذهن وذلك عن طريق آلية الاستدلال الاستنباطي وهذا على أن تكون الأولوية للملفوظ (القول) مع الأخذ بعين الاعتبار للافتراضات السياقية المأخوذة من عدة اتجاهات أي المحيطة بتلك الأقوال.

إذا فتأويل الأقوال أو الملفوظات مع مراعاة السياق ومراعاة المعلومات الموسوعية يؤدي إلى تأويل الخطابات، وبالتالي يمكن بناء افتراض مسبق حول المقصدية الإخبارية الإجمالية.[2] إنه وكما سبق التطرق إليه فيما سبق حيث تمت الإشارة إلى أن صاحب خطاب ما (l'auteur) يمكن أن يستغل (يستثمر) الافتراضات المسبقة للقارئ بطريقتين أو بكيفيتين:

الأولى: أن الكتاب يمكن أن يؤكد هذه الافتراضات من خلال بقية ما يلي (تتمة) من خطابه. وعلى سبيل المثال قدم مؤلفي هذا الكتاب مثال للكاتب **ستاندال:** وهو عبارة عن قصة شيقة ويعطي فيها مثل جيد عن الطريقة التي يستغل بها كاتب ما بنجاح العمليات التأويلية البشرية ونزعتها أو جنوح هذه العمليات التأويلية للقارئ إلى الاستباق يقول **ستاندال:** "هل أتجرأ على رواية هذه الحادثة التي أسر إليَّ بها بعضهم ونحن نتفيأ ظل حائط مقبرة في حقل برسيم ذي خضرة ساحرة؟ لم لا أرويها؟ لقد جلبت لنفسي العار لفضحي الحقائق التي تصدم الذوق العام سنة 1838:

لم يكن القس طاعنا في السن البتة وكانت الخادمة جميلة وكثر القيل والقال ولكن هذا لم يمنع أحد شبان قرية مجاورة من مغازلة الخادمة.

وفي يوم من الأيام أخفى ذلك الشاب ملاقط المطبخ الصغيرة في سرير الخادمة وعندما عاد بعد ثمانية أيام سألته الخادمة: "هيا، قل لي أين أخفيت الملاقط الصغيرة؟ لقد بحت عنها منذ رحيلك في كل مكان. كف عن هذا المزاح الثقيل .....".[3] **قبلها عشيقها وقد اغرورقت عيناه بالدموع ورحل.**

إن القارئ ومن الوهلة الأولى سيجنح إلى تأويل ساذج وهو أن **ستاندال** سيعلل سود سمعته ويحاول أن يبرئ نفسه، أو يمكن عرض افتراض آخر وهو أن **ستاندال** سيحكي قصة صادمة، ولكن وبمواصلة القراءة فإن القارئ سيتأكد بأن

ستاندال سيروي بأن القس ينام مع الخادمة وبأن الشاب العاشق هو الذي سيكشف الحادثة، وبالتالي فعملية إخفاء الشاب للملاقط (ملاقط المطبخ) سيتيح للقارئ لوضع افتراض أو فرضية لما سيكون عليه باقي النص، وهي: لو أن الخادمة نامت في سريرها لعثرت على الملاقط، وإلا فهي تنام في غير سريرها وهو سرير القس.

بالتالي تتأكد افتراضات القارئ لهذه القصة في آخر النص وهو أن الخادمة تخون حبيبها مع القس.

الطريقة الثانية: أن الكاتب يمكن أن يلغي أو يبطل افتراضات مسبقة من خلال بقية ما يلي من خطابه:

حيث يعرض مؤلفي الكتاب نصا **لكالفينو** وهو نص من كتابه Les villes invisibles وهذا النص منقسم إلى جزئين الجزء الأول يصف فيه **كالفينو Calvino** مدينة **Sophronia** وهي متكونة من قسمين، القسم الأول من المدينة يوجد فيه مكان للتنزه ويحتوي على كل مستلزمات وضروريات التنزه الموجودة مثلا في السرك، والقسم الآخر من المدينة هو عبارة عن عمارات من الاسمنت وجدران من الرخام ومدرسة ومستشفى....أي هي مدينة مجهزة بكل لوازم الراحة.

إن القارئ وللوهلة الأولى يفترض مسبقا أن **كالفيو Calvino** يريد أن يصف مدينة **Sophronia** في خطابه هذا ولكن وبمواصلة قراءة الجزء الثاني من النص (الخطاب) حيث يقول الكاتب **كالفيو Calvino:**"...إنه وفي كل سنة، يشرع العمال في إزالة المداخل المزخرفة بالرخام وإسقاط أسوار الحجارة وأعمدة الاسمنت وتحميلها على العربات والتنقل من مكان إلى آخر..."، إلى هنا القارئ سيستبق الأحداث وسيتصور في ذهنه افتراضا مسبقا يقول بموجبه أن الكاتب أراد أن يصف لنا كيفية إزالة **عيد سوقي.**[4]

ويواصل **كالفينو Calvino:** "... ويسرع العمال كذلك في إزالة المستشفيات ومصفاة البترول والوزارة، وتواصل هذه المدينة المفككة والمعبأة فوق العربات مسيرتها وكم يوم وكم من شهر سننتظر لتعود هذه القافلة لكي تنطلق حياة أخرى".

إذا يقول ج. موشلار وآن ربول أنه وبمواصلة القراءة، سيدحض القارئ الفرضية السابقة ويصل إلى حقيقة مفادها أن الكاتب أراد العكس مما كان قد استبقه القارئ بافتراضاته المسبقة وهي أن الكاتب أراد أن يبطل أو أن يلغي افتراضات القارئ، وبالتالي فالكاتب **كالفينو Calvino** أراد أن يصف مدينة حيث يحصل كل شيء فيها عكس الحقيقة أو عكس الواقع، حيث أن العمارات والمنشآت البترولية والوزارة والمباني تُهدم وتُزال وتُنقل إلى مكان آخر ويتم تنصيبها من جديد أي *المدينة المثالية الموجودة في الخيال.*

ب- افتراضات مسبقة داخل الملفوظات: إن هذا العنصر يقول **جاك موشلار وآن ربول** أن الافتراضات المسبقة تلعب دورا في تأويل الملفوظات وإزالة الغموض، كما هناك جملا غامضة من حيث التركيب والدلالة، ويقترح المؤلفان بعض الأمثلة،

1- la petite brise la glace.
2- le vieux singe le masque.[5]

1- الجملة الأولى:

تقبل تأويلين:

أ- نسمة الهواء البحرية جمدتها.

ب- الصغيرة كسرت المرآة.

La glace→C.O.D / brise →verbe / la petite → sujet →

أو

La glace→ verbe / la petite brise→sujet

2- الجملة الثانية:

Le masque → C.O.D / singe → verbe le vieux →sujet

أو

Le masque →verbe / le vieux singe → sujet

إذا ما يمكن استخلاصه أن هذه التأويلات الأربعة للجملتين السابقتين 1 و2، هي تأويلات خارج السياق Hors context، وسيزول الغموض طبعا إذا وضعت هذه

الجمل داخل السياق (سياق معين). وبالتالي ففي الجملة الأولى La petite brise la glace، فيمكن لكاتب ما أن يتحدث عن طفلة صغيرة أمسكت في يدها آلة حادة وقامت بتكسير مرآة أو قطعة زجاج. ويمكن أن يتحدث الكاتب أو يعني أنه رأى طفلة صغيرة، وهو على شاطئ البحر وهي ترتعد من شدة البرد تحت ملابسها الممزقة. وفي الجملة الثانية Le vieux singe le masque، فيمكن لكاتب ما أن يتحدث عن شيخ داخل مقهى وهو يشاهد شخصا مقنعا يرقص حول الطاولات فقام الشيخ بتقليد المقنع. أو يمكنه أن يتحدث عن قرد في حديقة الحيوانات وهو يحمي صغيره فيتساءل الناس أين القرد الصغير؟ فتكون الإجابة: **القرد العجوز يخفيه.**

وفي الأخير، فالكاتبان **آن ربول وجاك موشلار**، وبعرضهما لهذين العنصرين، أرادا أن يقدما لنا طريقة معينة لكيفية الوصول إلى معنى موحد وجامع سواء داخل الملفوظات أو داخل الخطاب ككل وهذا طبعا بمراعاة السياق الخارجي بمفهومه الواسع.

3- خصوصيات مصطلح العرفنية: قبل أن نشرع في الحديث عن العلاقة الكامنة بين مجالي الدراسات العرفنية والأبحاث التداولية التي كان يشتغل وفقها غرايس ويحاول أن يبني نظرية متماسكة المبادئ والمفاهيم الكلية. ارتأينا أن نعرج أولا إلى شرح مصطلح العرفنية وعلاقته ببعض المصطلحات القديمة والمعاصرة التي تتشابه معه من حيث الشكل والدلالة ولعل أهم مصطلح هو: الدراسات المعرفية/ الابستيمولوجية.

ينطلق جاك موشلار وآن روبول في كتابهما التداولية اليوم، علم جديد في التواصل، من تحديد فكرة جوهرية مفادها أن تاريخ ميلاد العلوم المعرفية يتطابق إلى حد معين مع تاريخ ظهور التداولية. إذ ألقى "أوستين" محاضراته سنة (1955)، وفي سنة (1957) صدرت مجموعة من المقالات، شكّلت أساس انطلاقةً العلوم المعرفية، لعلّ أهمها المقالة التي ألقاها ألان نيوال (Allen Newell) وهربرت سيمون (Herbert Simon) حول الإثبات الآلي للبرهنات الرياضية (ضمن حقل الذكاء الاصطناعي)[6]، وقد جرت في لإطار ندوة أقيمت في جامعة مساشوتس للتكنولوجيا. وقد تم الوصول فيها إلى عدّ نتائج مهمة، من بينها[7]:

- اقترح "تشومسكي" مقاربة توليدية، عقلية للمسائل اللغوية، ومن ثم قطع الصلة بالبنيوية السلوكية التوزيعية التي يتبناها بلومفيلد، والتي كانت تجنح إلى الصبغة الآلية في البحث فغيبت قدرة الإنسان العقلية والاستدلالية على فهم اللغة وديناميتها المتسارعة.
- قدم "جورج ميللر" نتائجه وتجاربه حول الذاكرة التي اعتمد فيها على المنهج التجريبي غير السلوكي. (في مجال قضايا الاستدلال، والقدرات الذهنية) بحيث خرج هو الآخر عن العرف التوزيعي الذي كرس له بلومفيلد في طروحاته اللسانية، فاعتمد جورج ميللر على التجريب غير الآلي، وإنما التجريب العقلي.

وقد صدرت هذه النزعة العرفنية حسب ما يقوله مصطفى الحداد: "عن تصور عقلاني يقضي بّأن الإنسان يولد مزودا بجهاز فطري مخصص تخصيصا عاليا يمكنه من اكتساب المعارف. وترى أن المحيط لا يلعب إلا دورا هامشيا في هذا المسلسل الاكتسابي. وتؤمن بإمكان تخصيص محتويات هذا الجهاز الفطري تخصيصا علميا على النحو الذي تخصص به الفزياء بالمعنى العام موضوعاتها[8]. وهذا الجهاز الفطري هو ما يسمى بالذهن الذي يمكننا من أن نرى العالم ونتصرف فيه بطريقة إرادية وجميع الحواس: كالسمع و البصر واللمس، وغيرها من الحواس الأخرى تحدث في الذهن. وقل مثل ذلك في التفكير والتذكّر والتخطيط، فهي كلها تنبع من الذهن؛ كما يشتمل الذهن كذلك على الإحساس بالذات، والإحساس بحرية الإرادة[9]. وكما هي الحال في كل أجزاء الجسم، فقد لحق التطور بالمخ وجعله يتأقلم على بيئات وطرق الحياة المختلفة، إذ تطور المخ الذي يمثل وسيلة الذهن كي يتكيف مع الحياة ويساير مختلف التطورات.

لقد حاول الأزهر الزناد أن يتطرق إلى مصطلح العرفنية مدافعا عنه كونه مفهوما ومصطلحا جاريا في بعض ما كتب ونشر،وما كتبه آخرون، وفي ما يلي بعض الحجج التي قدمها ليدافع عن مصطلحه هذا[10]:

- قد تختلف المقابلات العربيّة للمصطلح الأجنبيّ الواحد باختلاف الأقطار أو المجموعات من الباحثين أو الباحثين فرادى وما إلى ذلك، وهو أمر طبيعيّ إذ من

الواجب أن تكون حركة البحث والتّأليف إطارا لاقتراح ما يراه الفرد صالحا في ضوء معرفته بالعربيّة وبسائر اللّغات وبحال المعرفة دون شكّ.

• خذ مثلا ما اقترحناه في تعويض المصطلحات التّالية (العلوم العرفانيّة علم المعرفة، العلوم المعرفيّة، علوم الإدراك، العلوم الإدراكيّة، إلخ)– وقد راجت في تواريخ ومؤلّفات متنوّعة في أزمنة واحدة أو متعاقبة– بمصطلح (عَرْفَنَة) مقابل (cognition) ، وذلك – دون شكّ– ليس من قبيل "خالف تعرف"، وإنّما هو مؤسّس على رويّة وحجج متنوعة.

• كلمة (عرفان) مشتركة في الاستعمال القديم وفي الاستعمال الحديث، إذ تدلّ على معنى الشّكر ولها جريان واسع في مجال التّعبّد والتّصوّف وفي مجال البحوث الفلسفيّة الماورائيّة (الغنوصيّة)، وكلمة (معرفة) مقابلة لمفهوم (knowledge, connaissance) كما أنّ (إدراك) تقابل مفهوم (perception) ، وجميعها – كما هو معلوم– ذو مرجعيّات نظريّة كلاسيكيّة. وفي هذا يوافقنا كلّ من نعرف من المشتغلين بالفلسفة، على الأقلّ في حدود ما دار فيه النّقاش بيننا في هذا الموضوع.

• العرفنة هي نشاط الذّهن في عموم مظاهره، يشمل التّذكّر والتّعقّل وحلّ المسائل والتّخيّل والحلم والتّخطيط والإحساس والشّعور والتّعلّم والتّبرير والتّكلّم والرّسم والرّقص وجميع ما تتصوّرون من الأنشطة الذّهنيّة الحسّيّة العصبيّة ممّا له صلة بالذّكاء الطّبيعيّ.

• عندما نأخذ الجدول الاشتقاقيّ في الإنجليزيّة الدّائر حول (cognition) – مثلا– تجده منسجما: الفعل هو (to cognize)، واسم الفاعل هو (cognizer) والنّسبة هي(cognitive (system, ability, faculty, etc) أو (metacognitive) وما إلى ذلك ممّا يتعلّق بالجذع (cogn) .

فلمَ لا تكون مراعاة ذلك في الخطاب العلميّ العربيّ؟

وليس في ذلك تبعيّة ولا تقليد، إنّما هي ضرورة أكاديميّة علميّة.

وهناك حجج أخرى يضيق هذا المجال عن ذكرها، فيكون الحلّ – في ما نرى – أن نحافظ على الحروف الأصول من الثّلاثيّ (ع ر ف) وننشئ جدولا اشتقاقيّا مقبولا في العربيّة قياسا وسماعا منطلقه: عرفن (to cognize) والمضارع منه (يعرفن) (cognizes) والمصدر (عرفنة) (cognition) فهو معرفن (cognizer) وذو ملكة عرفنيّة (cognitive faculty) ويلحق بذلك الميتاعرفنة (metacognition).

وهذا – في ظنّنا– أحسن من أن نقول فكّر يفكّر فهو مفكّر وما إلى ذلك وننتقل إلى عرفان أو معرفة أو إدراك، بما فيها من الاشتراك الّذي أشرنا إليه في عبارة تتعلّق بالعلوم أو باللّسانيّات المهتمّة بما يجري عليه المصطلح الواحد منها.

• يبدو أنّ العرفنيّات عندما وصلتنا فهمَت بتصوّرات أرسطيّة ونفسيّة قديمة، هي عندنا نحن كما هي عند الغرب، دون شكّ، ولم ننتبه (على الأقلّ ممّن سبقونا في الكتابة في هذا المجال) إلى أنّ العرفنيّات خرجت عنها وفي ذلك كانت استعاضتهم بمصطلح (cognition) عن الثالوث المعروف: (knowledge, connaissance, perception) .

ومن النوادر الّتي جعلتني أعدل عن (عرفان) وما إليها أنّ بعض الباحثين في بعض البلدان العربيّة كان يراسلني ويهاتفني ساعيا إلى إنجاز بحث في موضوع يقترحه، وأجد فيه عناية بعلَم من أعلام الصّوفيّة أو بفرقة من فرقها فأجيبه أنّني لست مهتمّا

4– **ملامح العرفنية في مشروع غرايس:** عندما نتحدث عن العرفنية في مشروع غرايس اللساني التداولي يجب علينا أولا أن نحدد المبادئ الأساسية التي تأسس وفقها مشروع غرايس، وهي كالآتي:

أ– **الدلالة غير الطبيعية عند غرايس:** يقسم غرايس دلالة الأفعال الكلامية إلى نوعين، هما: الدلالة الطبيعية والدلالة غير الطبيعية أما آن روبول وجاك

موشلار، فيفضل شرحهما عبر المقارنة بينهما، من خلال أمثلة توضيحية وتفسيرية، هي[11]:

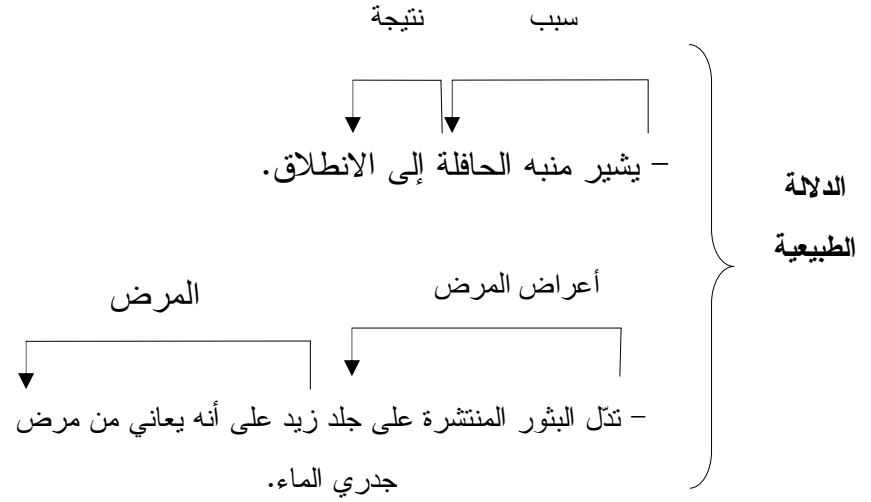

ب– منطق المحادثة عند غرايس:

سجل "غراس" تطورا كبيرا في تحليله لمفهوم الدلالة غير الطبيعية، فقد أدخل مفهومين مهمّين، استفاد كثير من الباحثين منهما أيّما استفادة، وهذان المفهومان هما*:

1– الاستلزام الخطابي. 2– مبدأ التعاون.

أكد، كذلك، على فكرة مهمة حكمت الفكر الإنساني منذ الأزل، بطريقة ضمنية أحيانا وصريحة، أحيانا أخرى، وهي أنّ تأويل جملة ما غالبا ما يتجاوز الدلالة التي نعزوها إليها بالمواضعة. ولهذا السبب يمكن يقول بالتمييز بين الجملة والقول. فالجملة هي سلسلة من الكلمات التي يمكن لزيد أو عمرو التلفظ بها، وهي تابعة لنظام اللسان، أما القول، فهو حاصل التلفظ بجملة وهو يتغيّر بتغيّر الملابسات الخارجية والقائلين. وهذا مثال توضيحي:

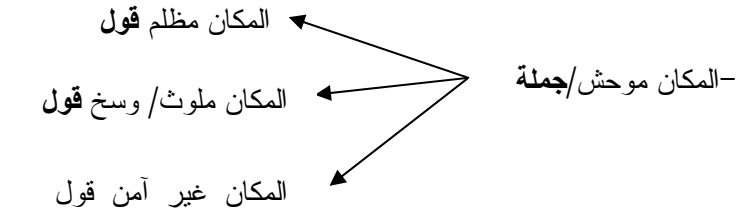

إن مبدأ التعاون يشرحه "غرايس" بأنه عندما يكون المشاركون متوقعين من بعضهم أن يساهم كل واحد منهم في عملية المحادثة بطريقة عقلانية ومتعاونة لتسيير تأويل الأقوال. وهذا المبدأ ينقسم إلى أربع قواعد يجب على المشاركين أن يحترموها ويستغلوها لضمان حسن سير العملية التواصلية وهذه المبادئ كالآتي[12]:

- ✓ **قاعدة الكم:** هي أن يساهم المتكلم بالمعلومات التي هي ضرورية في المقام فلا يزيد عليه ولا ينقص.
- ✓ **قاعدة النوع/ الصدق:** تفرض نزاهة القائل الذي ينبغي ألا يكذب وأن يملك الحجج الداعمة لفكرته.
- ✓ **قاعدة العلاقة المناسبة:** تفرض أن يكون حديثنا داخل الموضوع (ذا علاقة بأقوال القائل السابقة والآخرين).
- ✓ **قاعدة الكيف / الصيغة:** تفرض أن نعبر بوضوح وبلا لُبس قدر الإمكان ونقدم المعلومات بطريقة منطقية.

أما مفهوم الاستلزام الخطابي، فيمكن فهمه من خلال مفهوم الدلالة غير الطبيعية، فهو يفرض علينا عدم تأويل قول ما، بالنظر فقط، إلى الدلالة اللغوية التواضعية، فلا يجب يختزل التأويل فيها. لأن هنالك فرق بين ما قيل "dit" (الدلالة اللغوية التواضعية للجملة)، وما تمّ نقله "transmis" الذي هو في الغالب أكثر مما قيل وما جرى تبليغه. فالدلالة هي **ما قيل** والاستلزام الخطابي **ما تم تبليغه**. هذا التمييز أهمله "سيرل" في مؤلفه الصادر سنة 1972 حين ركّز فقط على الدلالة التواضعية. ومن ثم، يقول "غرايس" أن الطرائق التي نقول بها عن شيء ما ليست واحدة في جميعها وإنما تختلف عن بعضها، وقد حصر جميع تلك الطرائق في اثنتين هما [13]:

- ➢ طريقة تواضعية تستدعي استلزاما تواضعيا.

- طريقة محَادثية (غير تواضعية) تستدعي استلزاما محادثيا.

خاتمة: نقدم في هذه الخاتمة بعض النتائج التي توصل إليها روبول وموشلار في تحليلهما لغرايس من منظور معرفي، كما نعرض نتيجة من نتائج اجتهادنا الخاص في هذا البحث، وهذه النتائج في كليتها هي:

إن العرفنية تتأسس على مبدأين أساسيين هما[14]:

- **الوظيفية:** مفادها أنّه لا يوجد مبدئيا ما يمنع من الحصول من النتائج من خلال الدماغ والآلة (بمعنى الحصول على كيفية اشتغالها). وإذا توصلنا إلى هذا فسيكون حينئذ تكافؤ **وظيفي** بين العقل والآلة.
- **التمثيلية:** تتمثل في مقدرة الدماغ والحاسوب على معالجة التمثُّلات ذات الصورة الرمزية؛ أي تأويل الرموز وفهم دلالاتها يقول موشلار في مقاربة هذين الاساسين مع مشروع غرايس فيما معناه أنه يوجد بعد تمثيلي في نظرية غرايس لأنّ النظام الذي يقترحه يستند إلى معالجة التمثّلات الرمزية (صياغة فرضيات والتثبيت منها) إذ هي قراءة بالمماثلة. لأنّها ليست صورية مجردة. لكنهما ينفيان البعد الوظيفي في قولهما:"على الرغم من أنّها متقدمة – يقصدان مقاربة غرايس– إلا أنّها من العسير إدراجها في حساب معلوماتي. كذلك لا نعلم كيفية إجراء المقدمات، من أين يتم استخلاصها، ومتى يتم إيقاف الاستدلال وكيفية اعتبار التأويل مرضي"[15].

قائمة المصادر والمراجع:

- ✓ **آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم، علم جديد في التواصل، تر: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، مراجعة: لطيف زيتوني، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، بيروت لبنان، 2003.**
- ✓ **أنجوس جيلاتي وأوسكارزاريت، الذهن والمخ، ترجمة: جمال الجزيري مرجعة وإشراف وتقديم، إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الأعلى للثقافة، 2001.**
- ✓ **مصطفى الحداد، اللغة والفكر وفلسفة الذهن، منشورات جمعية الأعمال الاجتماعية والثقافية بكلية الآداب تطوان تطوان، المغرب 1995**
- ✓ Anne Reboul et J. Moeschler : pragmatique de discours, de l'interprétation de l'énoncé à l'interprétation du discours, armand colin, Paris 1998.

✓ الأزهر الزناد، في مصطلح العرفنة ومشتقاتها، من موقع، http://lazharzanned.blogspot.com/2012/04/blog-post_22.html

الهوامش:

1- ينظر: آن ربول وجاك موشلار: التداولية اليوم، علم جديد في التواصل، تر:سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، مراجعة: لطيف زيتوني، دار الطليعة للطباعة والنشر ط1، بيروت لبنان، 2003، ص53 ص54.

2- Voir : Anne Reboul et J. Moeschler : pragmatique de discours, de l'interprétation de l'énoncé à l'interprétation du discours, armand colin, Paris 1998, p163.

3 - Ibid : P 166.

4- Ibid : P 168.

5- Ibid : P 168.

6 – آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم، علم جديد في التواصل، ط1، تر: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني مراجعة: لطيف زيتوني، المنظمة العربية للترجمة بيروت، 1998 ص52.

7 – ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

8 – مصطفى الحداد، اللغة والفكر وفلسفة الذهن، منشورات جمعية الأعمال الاجتماعية والثقافية بكلية الآداب تطوان تطوان، المغرب 1995، ص2.

9 – ينظر: أنجوس جيلاتي وأوسكارزاريت، الذهن والمخ، ترجمة: جمال الجزيري مرجعة وإشراف وتقديم، إمام عبد الفتاح إمام، المجلي الأعلى للثقافة، 2001، ص05.

10 – ينظر: الأزهر الزناد، في مصطلح العرفنة ومشتقاتها، من موقع http://lazharzanned.blogspot.com/2012/04/blog-post_22.html

11 – ينظر: آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم، علم جديد في التواصل، تر: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، مراجعة: لطيف زيتوني، دار الطليعة للطباعة والنشر ط1، بيروت لبنان، 2003، ص 53، ص 54.

12 – ينظر: آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم، علم جديد في التواصل، ص 55.

13 – ينظر: آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم، علم جديد في التواصل، ص ص 56،57.

14 – ينظر: آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم، علم جديد في التواصل، ص 65.

15 – ينظر: آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم، علم جديد في التواصل، ص ص 65، 66.

الحجاج والمغالطة في أدب المناظرة
(مناظرة الحيدة والاعتذار أنموذجا)

أ. مراد ليتيمي
جامعة بومرداس

أولا. مناظرة الحيدة كأنموذج للممارسة الخطابية في التراث العربي: تُعدّ مناظرة الحيدة والاعتذار التي دارت بين الإمام **عبد العزيز بن يحي بن مسلم الكناني المكّي**[1] و**بشير بن غياث المريسي**[2] حول قضية خلق القرآن الكريم في مجلس **المأمون** الخليفة العباسي، من أشهر المناظرات في التاريخ الإسلامي وأكثرها اثارة للاهتمام، رغم أنّها لم تنل من الدّراسة ما هي حقيقة به. وهي مناظرة حجاجية دارت بين قطبين من الفكر العربي الإسلامي، يمثل كلّ واحد منهما منظومة فكرية تختلف عن المنظومة الفكرية التي ينتمي إليها الآخر، حيث يمثل **الكناني** المنظومة المعرفية المتعلقة باللّسان العربي، ومنهج علم الكلام البرهاني الحجاجي القرآني، أمّا **بِشر** فيمثل المنظومة المعرفية العرفانية المرتبطة بالتأويل الباطني والتصوف والاستشراق. ما يجعل الخلاف واضحا في الخلفيات الفلسفية والأسس الفكرية لكلّ واحد منهما. فالصراع بين **الكناني** و**بِشر** هو صراع منظومات فكرية تجلى في مناظرات بين أشخاص. والاختلاف في الأسس الفكرية يستلزم الاختلاف في المذاهب العقدية، فكان **الكناني** سنيّ المذهب يؤمن بكفاية النص القرآني، ودور العقل فيه للإضاءة والاستنباط، وهو المذهب الذي يقول أنّ القرآن كلام الله تعالى[3]. أمّا **بشر** فهو معتزلي المذهب متشبع بالقيم الشيعية، متأثر إلى حدّ كبير بالفلسفة الفارسية، والعقائد الإلحادية القديمة[4]، التي حاول أن يجد لها إسقاطات على الدين والعقيدة الإسلاميين. وبحثنا هذا سيكون محاولة لاستنباط

الاستراتيجيات الحجاجية، الموظفة من طرف المتناظرين، وكذا السفسطة في الحجاج أو الحجاج المغالط.

ثانيا. الاستراتيجيات الحجاجية في أدب المناظرة ودور الكفاءة اللّغوية:

أ. الاستراتيجيات التمهيدية للمناظرة:

1. استراتيجية تجريح الشخص: ويكون بإبراز عيب من عيوب الخصم الخَلقية الخُلقية أو الفكرية[5]، وقد لجأ أحد أنصار المعتزلة إلى هذه الحجة، حتى يؤثر على مشاعر **المأمون**، ويقضي ببطلان مقالة الخصم، قبل بداية المناظرة، حيث سمع **عبد العزيز الكناني** أحد الحضور يقول **للمأمون:** «يا أمير المأمون يكفيك من كلام هذا قبح وجهه، فوالله ما رأيت خلقا لله أقبح وجها منه»[6].

2. الحجاج بالمثل: يستعمل المثل كحالة ملموسة[7] لإثبات أطروحة أو تفنيد أطروحة الخصم[8]، ويكون بضرب مثل للقضية المراد إثباتها، فهو يضم تجارب الشعوب وخبراتها المتراكمة عبر مسيرتها التاريخية، ممّا يجعل منها منظومة من المعتقدات المشتركة بين أفراد الجماعة[9]. فكي يبطل **الكناني** دعوة أحد جلساء **المأمون** بمعاقبة **الكناني** قبل سماع مقالته، استعمل حجة من القرآن، وأخرى من العيان لذلك. فكان المثل من القرآن الكريم، قصة سيّدنا يوسف عليه السلام، الذي سجن واضطهد، رغم حسنه وجماله وأُخرج من السجن لمّا عُلم بعلمه وحكمته حيث قال: «يا أمير المؤمنين فوالله ما أُعطي يوسف على حسن وجهه جرادتين ولقد سُجن وضُيّق عليه ... فكان ما بلغه يوسف كله من عِلمه»[10]. أمّا المثل من العيان فكان، بِعيب **المأمون** صانعَ الجبس، وعدم عيبه على الجبس، لمّا رأى فيه انتفاخا، حيث قال **المأمون:** «العيب لا على الشيء المصنوع إنّما العيب على صانعه»[11]. وردّ عليه **الكناني**، بقوله: «فهذا يعيب ربي لم خلقني قبيحا»[12]. وهي حجة تمهيدية وظفها **الكناني** ليقوّي من مركزه أمام **المأمون**، قبل بداية المناظرة.

ب. الاستراتيجيات الحجاجية في المناظرة: تنقسم مناظرة "الحيدة" في سيرها إلى قسمين رئيسيين:

القسم الأول: كان التحاجج فيه بين المتناظرين بنص التنزيل، دون تأويل أو تفسير، إنّما بالتلاوة فحسب، وهذا بطلب من **الكناني:** «فقلت يا أمير المؤمنين، كلّ متناظرين على غير أصل يكون بينهما يرجعان إليه إذا اختلفا في شيء من الفروع فهما كالسائر على غير طريق»[13]. «قلت بنص القرآن بالتلاوة»[14]. ففي هذا القسم يستضيء العقل بالنص، فيكون هذا الأخير هو الأداة المركزية، التي يعمل داخلها العقل، ليبرر هذا الأخير شرعيته، حيث يكون في هذا القسم حضور العقل قويا لكنه حضور غياب كونه يظهر من خلال ما يسمح به النص، ويبدو أنّه تحت سلطته، لذلك نجد العقل يأتي بالفكرة ويدعمها بالنص، أو يبحث عن الفكرة ويدعمها بالنص، أو يبحث عن الفكرة في النص.

أمّا القسم الثاني: يتحول التحاجج بالنص والتلاوة إلى التحاجج بالنظر والقياس وقد كان ذلك بطلب من **بشر**، وقبول **الكناني،** الذي أفحم هذا الأخير، فقال **بشر:** «يا أمير المؤمنين عندي أشياء كثيرة إلاّ أنّه يقول بنص التنزيل، وأنا أقول بالنظر والقياس، فليدع مناظرتي بنص التنزيل وليناظرني بغيره»[15]. وهي المرحلة التي تنقلب فيه المعادلة، ويصبح النصّ هو الذي يستضيء بالعقل، فيعمل النص داخل إطار العقل، ويكون هذا الأخير أداة لإثبات ما هو موجود في النص.

1. الاستضاءة بالنص:

1. الحجاج بالبرهان ذي الحدين: وهو البرهان الذي يجبر الخصم على اختيار أحد احتمالين، كلاهما ليس في صالحه[16]. فلكي يضع **بشر** خصمه في مأزق ربط هذه الحجة باستفهام يلزمه أحد الخيارين، كلّ خيار ليس في صالحه، ومحتوى الاستفهام: هل القرآن شيء أم غير شيء؟

حيث قال **بشر:** «تقول يا عبد العزيز القرآن شيء أم غير شيء؟ فإن قلت شيء فقد أقررت أنّه مخلوق، إذ كانت الأشياء كلّها مخلوقة بنص التنزيل، وإن قلت أنّه ليس بشيء فقد كفرت، لأنّك تزعم أنّ حجة الله على خلقه ليس بشيء»[17]. وقد وظف **الكناني** هذه الاستراتيجية مرّة أخرى لمّا أصرّ **بشر** على أنّ **(كلّ)** لفظة

تجمع الأشياء جميعها، حيث عرض عليه **الكناني** مجموعة من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلاّ بما شاء ﴾ سورة البقرة، الآية255 وقوله: ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه ﴾ سورة النساء، الآية166 وقوله: ﴿ فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنّما أنزل بعلم الله ﴾ سورة هود، الآية14 وقوله: ﴿ وما تحمل من أنثى ولا تضع إلاّ بعلمه ﴾ سورة فاطر، الآية11.

ثمّ سأله هل يقرّ أن لله تعالى علما كما أخبر عن نفسه؟ ممّا جعل **بشر** في حرج فإن قال ليس لله تعالى علما، يكون قد خالف نص القرآن ويثبت ضلاله، وإن أقرّ أنّ لله تعالى علما، يكون قد جعل علم الله داخلا في هذه الأشياء المخلوقة، لأنّ حسبه (كلّ) لفظة تجمع الأشياء جميعا، ممّا جعله يحيد عن الجواب، ويقول أنّ الله تعالى لا يجهل، وهو جواب لا يتلاءم مع السؤال[18]، قال **الكناني**: «إذا أقرّ أنّ لله علما سألته عن علم الله هل هو داخل في الأشياء المخلوقة حين احتج بقوله: ﴿الله خالق كل شيء﴾ سورة الرعد، الآية16، وزعم أنّه لم يبق شيء إلاّ وقد أتي عليه هذا الخبر، فإن قال علم الله داخل في الأشياء المخلوقة فقد شبه الله بخلقه الذين أخرجهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئا، وكلّ من تقدم قبل علمه فقد دخل عليه الجهل، فيما بين وجوده إلى حدوث علمه، وهذه صفة المخلوقين، والله أعظم وأجلّ أن يوصف بذلك أو ينسب إليه، ومن قال ذلك فقد كفر وحلّ دمه، ووجب على المؤمنين قتله، وإن قال إن علم الله خارج عن جملة الأشياء المخلوقة وغير ذلك داخل فيها، فقد رجع عن قوله وأكذب نفسه[19].

2. استراتيجية الأشباه: يخضع الأشباه إلى نفس المعالجة أو إلى معالجة مماثلة[20]. لذلك عمد **الكناني** إلى هذه الحجة عندما اتهمه **بشر** بأنّه أتى بأشياء متباينات وادعى أنّ الله تعالى خلق بها الأشياء، فوضّح أنّ هذه الأشياء مسميات لمسمى واحد، كما أنّ الله تعالى واحد وسمى نفسه بأسماء عديدة، حيث قال **الكناني**: هذه أربعة أشياء لشيء واحد، لأنّ كلام الله هو قوله وقول الله هو كلامه وأمر الله هو كلامه وكلام الله هو أمره وكلام الله هو الحق والحق هو كلام الله

فهذه أسماء لكلام الله وقد قدمت ذكر هذا فقلت: «إنّ الله سمى كلامه نورا وهدى وشفاء ورحمة وفرقانا وبرهانا وسماه الحق، وهذه أشياء شتى لشيء واحد هو كلام الله، كما سمى نفسه بأسماء كثيرة وهو واحد صمد فرد»[21].

3. الحجاج باللّغة: لمّا قال **بشر**: «قال تعالى الله خالق كلّ شيء». فهذه لفظة لم تدع شيئا إلاّ أدخلته في الخلق ولا يخرج عنها شيء ينسب إلى الشيء[22]. ردّ عليه **الكناني** بحجة من القرآن تثبت أنّ (كلّ) لا تشمل جميع الأشياء في الحكم عند استعمالها، قال تعالى في: ﴿تدمر كلّ شيء بأمر ربها﴾ سورة الأحقاف، الآية25. وقال: ﴿فأصبحوا لا يرى إلاّ مساكنهم﴾ سورة الأحقاف، الآية25. فقد بيّن تعالى أنّ مساكن الأقوام التي دمرهم تعالى لم تدخل تحت كلّ في الآية الأولى، ولم تشملها. وقد قال تعالى في قصة **بلقيس**: ﴿أوتيت من كل شيء﴾ سورة النمل الآية23، والثابت أنّ النبيّ **سليمان** عليه السلام أُوتي كمثل ملك **بلقيس** ألف مرّة ممّا يدل على أنّ كلّ في الآية لم تشمل الأشياء جميعها، لأنّها لم تشمل ملك النبي **سليمان**.

4. الحجاج بالاستقراء: والاستقراء تتبُّع مجموعة من العناصر للوصول إلى حكم وتعميمه على العناصر الأخرى[23]. لمّا حاد **بشر** عن إجابة **الكناني** عن علم الله تعالى، وقال أنّه لا يجهل، ورفض الإقرار أنّ له علما، بيّن له باستقراء مجموعة من الآيات أنّ نفي الجهل لا يثبت العلم، رغم أنّ إثبات العلم ينفي الجهل والمولى تعالى لم يمدح أحدا من ملائكته أو رسله أو عباده المتقين بنفي الجهل عنهم، إنّما مدحهم أجمعين بالعلم، فقد مدح تعالى ملائكته بقوله: ﴿كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون﴾ سورة الانفطار، الآية 11، وقال لنبيّه صلى الله عليه وسلم: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبيّن لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾ سورة التوبة الآية 43، وقال جلّ وعلا في مدحه للمؤمنين: ﴿إنّما يخشى الله من عباده العلماء﴾ سورة فاطر، الآية 28. فعن طريق استقراء هذه الأمثلة من القرآن بيّن **الكناني** أنّ إثبات العلم لا يكون بنفي الجهل.

ومن الحجاج بالاستقراء –لكن دون تعميم– أي استقراء قرائن مرتبطة بحكم في ذاته، ما قام به **الكناني** للتدليل على نهي الخوض في علم الله تعالى أو ادعاء معرفته، حين سأله **بشر**: «قد زعمت يا عبد العزيز أنّ لله علما فأي شيء هو علم الله، وما معنى علم الله؟»[24].

حيث ساق **الكناني** مجموعة من الآيات التي تدل على بطلان ادعاء معرفة علم الله تعالى والنهي عن ذلك، ومنها قوله تعالى: ﴿ولا يحيطون بشيء من عمله إلاّ بما شاء﴾ سورة البقرة، الآية 255، وقاله: «عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلاّ من ارتضى من رسول﴾ سورة الجن، الآية 26، وقاله: ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلاّ هو ويعلم ما في البرّ والبحر﴾ سورة الأنعام، الآية 59، وقاله: ﴿ولو أنّ ما في الأرض من شجر أقلام والبحر يمده من سبعة أبحر ما نفذت كلمات الله إنّ الله عزيز حكيم﴾ سورة لقمان، الآية 27، وقال: ﴿قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددّا﴾ سورة الكهف الآية 109، وقال: ﴿إنّ الله عنده علم الساعة وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إنّ الله عليم خبير﴾ سورة لقمان، الآية 34، وقد جاء في القرآن قول الملائكة: ﴿سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علمتنا إنّك أنت العليم الحكيم﴾ سورة البقرة، الآية 32، ولمّا سُئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة تلا قوله جلّ وعلا: ﴿إنّ الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام﴾ سورة لقمان، الآية 34. فباستقراء نص التنزيل تبيّن أنّ علمه تعالى مما اختص هو بمعرفته وحجبه عن خلقه جميعا حتى المقربين منهم.

5. الحجاج بافتراض مسألة مشابهة للمسألة المتناظر عليها: لمّا رفض **بشر** الإقرار بحرمة ادعاء معرفة علم الله تعالى، افترض مسألة علّه يجعل بها **الكناني** في حرج، مفاد المسألة أنّ اثنين تنازعا في علم الله، وقد حلف أحدهما أنّ علم الله هو الله وحلف الآخر أنّ علم الله غير الله. وسأل **الكناني** عن جوابه في المسألة إذا

استفتياه. فردّ عليه **الكناني** بافتراض ثلاث مسائل أخرى، ليقيس مسألة **بشر** على حكم مسائله، ومفادها كالآتي:

مسألة 01: أنّ ثلاثة أفراد تنازعوا في الكوكب الذي أخبر الله أنّ إبراهيم – عليه السلام– رآه، فحلف أحدهم أنّه المشتري، وحلف الثاني أنّه الزهرة، وحلف الثالث أنّه المريخ[25].

مسألة 02: ثلاثة أفراد تنازعوا في الأقلام التي أخبر تعالى عنها في قضية كفالة مريم، فحلف أحدهم أنّها من نحاس وحلف الثاني أنّها من فضة، وحلف الثالث أنّها من خشب.

مسألة 03: ثلاثة أفراد تنازعوا في المؤذّن الذي أخبر الله تعالى عنه في قوله جلّ وعلا: ﴿فأذّن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين﴾ سورة الأعراف الآية 44، فحلف الأول أنّ المؤذن من الإنس، وحلف الثاني أنّه من الجن، وحلف الثالث أنّه من الملائكة. فلمّا صحّ أن يسكت المرء عن سؤال هؤلاء في المسائل الثلاث لأنّ المولى تعالى لم ينزل بها من علم وجعلها في غيبه، صحّ أن يسكت المرء عن مسألة السائلين التي افترضها **بشر** لأنّها تنطوي على نفس الحكم مع ما افترضه **الكناني**.

6. الاستدراج: جعل المناظر خصمه يوافقه على مسألة تستلزم مسألة أخرى تبطل دعواه. حيث جعل **الكناني بشرا** يوافقه على أنّ لله تعالى نفسا، كي يبطل ادعاءه أنّ (كلّ) تشمل الأشياء جميعا. فبعد إقرار **بشر** أنّ لله تعالى نفسا وهذا وارد في قوله: ﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾ سورة المائدة، الآية 116، مما يلزمه أن يقر أنّ (كلّ) في الآية ﴿كلّ نفس ذائقة الموت﴾ سورة آل عمران الآية 185، لا تشمل نفس الله تعالى، وهذا يستلزم بطلان قوله أنّ كلّ في الآية ﴿الله خالق كلّ شيء﴾[26]، تشمل الأشياء جميعها بما فيها القرآن الكريم.

7. استراتيجية المداخل اللّغوية: ويكون باعتماد المداخل اللّغوية في إثبات مسألة ما، واستثمار القواعد النحوية والبلاغية لتأكيدها، وهي طريقة درج عليها

العلماء وأهل النظر من العارفين باللّغة، لإثبات مزيّة أحدهم على غيره،[27] فلمّا أدرك **الكناني** جهل **بشر** بالقواعد النحوية، والمداخل اللّغوية، أوقعه في مسائل لغوية جعله يتخبط فيها، وليظهر ذلك جعله ينتقل معه في آيات القرآن الكريم ويعرض عليه النصوص التي يستدل بها **بشر** دون العودة إلى عرف العرب ولغاتهم. ومن بين المسائل التي أظهر بها **الكناني** تفوقه على **بشر**، قضية العام والخاص في أحكام النص القرآني، وقد بسطها **الكناني** بسطا منهجيا مشفوعا بالآيات الواضحة.

1- خبر مخرجه مخرج الخصوص ومعناه معنى الخصوص: ويظهر في قوله تعالى: ﴿إني خالق بشرا من طين﴾[28]، وقوله تعالى: ﴿إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم﴾ سورة آل عمران، الآية 59، فلمّا قال تعالى: ﴿يا أيّها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾ سورة الحجرات، الآية 13، أدرك المؤمنون أنّه تعالى لم يعن في هذه الآية آدم وعيسى، لأنّه قدم خبرهما[29].

2- خبر مخرجه مخرج العموم ومعناه معنى الخصوص: ويظهر في قوله تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كلّ شيء﴾ سورة الأعراف، الآية 156، حيث أدرك المؤمنون أنّ رحمته تعالى لم يلعن بها إبليس، لأنّه تقدم فيه من الخبر الخاص ما يدل على لعنه، وهو قوله تعالى: ﴿لأملأنّ جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾ سورة ص، الآية 85، حيث صار ذلك الخبر العام خاصا لخروج إبليس ومن تبعه من رحمة اللّه تعالى.

3- خبر مخرجه مخرج الخصوص ومعناه معنى العموم: ويظهر في قوله تعالى: ﴿وأنّه هو ربّ الشّعرى﴾ سورة النجم، الآية 49، فقد كان مخرج الخبر خاصا لكنه يدل على العموم، فعلم المؤمنون أنّه تعالى رب كلّ شيء.

4- خبر مخرجه مخرج العموم ومعناه معنى العموم: فلما فرغ **الكناني** من شرح كلّ ذلك، وعقله **المأمون** ومن حضر المجلس ممن كانت له القدرة على التتبع، بيّن أنّ في قوله تعالى: ﴿خالق كل شيء﴾، لم تشمل (كلّ) في هذه الآية

الأشياء جميعها، وقد عقل المؤمنون ذلك لما تقدم من خبر في قول تعالى ﴿إنّما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ سورة النحل، الآية 40، حيث فرّق تعالى بين الشيء المخلوق والقول الذي يكون به الخلق[30]، مما جعل القول خارجا عن الخلق.

8. المحاصرة: وهي الحجة التي تحاصر الخصم في وضعية يستحيل حلّها منطقيا، ممّا يدفعه إلى قبول نتيجة الاستدلال. فلمّا أصرّ **بشر** على القول بخلق القرآن واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿إنّا جعلناه قرآنا عربيا﴾، مدّعيا أنّ جعلناه بمعنى خلقناه، فالجعل حسبه ترادف الخلق في هذه الآية، وفي القرآن كلّه[31]، حيث قال **بشر**: «هل في الخلق أحد يشك في هذا أو يخالف عليه، إن معنى (جعلناه) خلقناه»، وقد ساق **الكناني** مجموعة من الآيات التي تبطل مقالة **بشر**، وتجعله لا يستطيع أن يواصل دعواه والدفاع عنها منطقيا، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا﴾ سورة النحل، الآية 91. وقوله: ﴿ويجعلون لله البنات سبحانه﴾ سورة النحل الآية57. وقوله: ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم﴾ سورة البقرة، الآية 224. مما جعل **بشرا** في مأزق، فلو أصرّ على دعواه كان عليه الإقرار أنّ جعلتم الله بمعنى خلقتم الله، ويجعلون لله بمعنى يخلقون لله، ولا تجعلوا الله بمعنى لا تخلقوا الله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

9. التّوكيد: وهي الحجّة الّتي يسعى من خلالها المناظر إلى توكيد قضية، قد تمكن من إثباتها بالحجة، فلمّا فرغ **الكناني** من بسط بعض الآيات التي وردت فيها لفظة (جعل) بمعنى غير الخلق، وتبين بطلان مقالة **بشر** بشهادة **المأمون** طلب **الكناني** من هذا الأخير أن يسمح له ببسط آيات أخرى تؤكد بطلان مقالة **بشر**[32]. ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله﴾ سورة إبراهيم، الآية 30، وقوله: ﴿وجعلوا لله شركاء الجن﴾ سورة الأنعام، الآية 100 وقوله: «وجعلوا لله شركاء قل سموهم﴾ سورة الرعد، الآية 33 وقوله: ﴿فلما أتاها

صالحا جعلا له شركاء فيما أتاهما﴾ سورة الأعراف، الآية 190، وقوله: ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا﴾ سورة الزخرف، الآية 19، وقوله: ﴿على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين﴾ سورة الحجر، الآية 91، وقوله: ﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا﴾ سورة الأنعام، الآية 91. لو كان لفظ (جعل) بمعنى خلق في سائر القرآن كما ادعى **بشر**، لكان قوله تعالى: جعلوا لله أندادا بمعنى خلقوا لله أندادا. وقوله وجعلوا لله شركاء بمعنى خلقوا الله شركاء. وقوله جعلا له شركاء بمعنى خلقا له شراء. وقوله: وجعلوا الملائكة، بمعنى خلقوا الملائكة وقوله: جعلوا القرآن بمعنى خلقوا القرآن. وقوله تجعلونه قراطيس بمعنى تخلقونه قراطيس. فما أعظمها فرية على الله تعالى وعلى كتابه العزيز، مما جعل **بشرا** في مأزق، ومحاصرا بكم من الآيات التي يستحيل تأويلها على النحو الذي أراد.

10. حجة الفصل بين الملتبسين: وهي حجة تنبني على الفصل بين شيئين مختلفين يعبر عنهما بلفظ واحد، ويدرك معناهما من السياق. فلمّا حاول **بشر** أن يصر على أنّ (جعل) تأتي دائما بمعنى خلق، وأبطل **الكناني** ادعاءه بنص التنزيل في آيات كثيرة، انتقل **الكناني** إلى رفع اللّبس الذي حاول **بشر** أن يروجه، عن طريق الفصل بين (جعل) التي تحتمل معنى خلق، و(جعل) التي تحتمل معنى صيّر: حيث قال **الكناني:** « يا أمير المؤمنين إنّ جعل في كتاب الله يحتمل عند العرب، معنيين، معنى خلق، ومعنى صيّر»[33].

1- الجعل الذي بمعنى خلق: يكون في القول المفصل، الذي تفهم فيه اللّفظة في ذاتها دون ربطها بما يليها من القول، قال **الكناني:** «فأمّا جعل الذي هو على معنى، خلق، فإن الله عز وجل جعله من القول المفصل، فأنزل القرآن به مفصلا وهو بيّن لقوم يفقهون، والقول المفصل يستغني السّامع إذا أخبر به عن أن توصل له الكلمة بغيرها من الكلام، وإذ كانت قائمة بذاتها على معناها»[34]. وقد ساق **الكناني** في ذلك عدّة آيات قرآنية منها قوله تعالى: ﴿الحمد لله الذي خلق السموات

والأرض وجعل الظلمات والنور﴾ سورة الأنعام، الآية 1. وقوله: ﴿وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة﴾ سورة النحل، الآية 72. وقوله: ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ سورة السجدة، الآية 09. حيث عقلت العرب أنّ جعل في هذه الآيات بمعنى خلق، لأنّه جاء من القول المفصل الذي يفهم في ذاته دون وصله بما بعده فسواء قال تعالى جعل أو قال خلق فهم العرب أنّه بنفس المعنى.

2- الجعل الذي بمعنى صيّر: يكون في القول الموصل، الذي لا يظهر إلاّ إذا وصلت فيه الكلمة بما بعدها، حيث يقول **الكناني:** «وأمّا جعل الذي هو على معنى التصيير لا معنى الخلق فإنّ الله تعالى أنزله من القول الموصل الذي لا يدري المخاطب به حتى يصل الكلمة بكلمة بعدها فيعلم ما أراد بها، وإن تركها مفصولة لم يصلها بغيرها من الكلام لم يفهم السامع لها ما يعنى بها، ولم يقف على ما أراد بها»[35]. من الآيات التي استدلّ بها **الكناني** على ذلك قوله تعالى: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾ سورة ص، الآية 26. وقوله: ﴿وجاعلوه من المرسلين﴾ سورة القصص، الآية 07، وقوله: ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك﴾ سورة البقرة الآية 128، ففي هذه الآيات لا يستطيع السامع أن يفهم معنى جعل إلاّ إذا ربطها بما بعدها، حيث فهم **داود** ما خاطبه به تعالى لما وصل جعل بخليفة وعقلت أم موسى ما أراد تعالى، لمّا وصلته بالمرسلين، وعقل السامع ما أراد تعالى بقوله (واجعلنا) لمّا وصله بمسلمين.

11. الحجاج بالاستقراء: لمّا حاول **بشر** أن يشبّه على **المأمون** والحضور بإدعائه أنّ **الكناني** حطّ من قيمة القرآن لمّا قال أنّه مفصل وموصل، ردّ عليه **الكناني** باستقراء مجموعة من الآيات التي تبطل ادعاء **بشر**[36]. ومن الآيات التي جاءت في القول الموصل قوله تعالى: ﴿ولقد وصلنا لهم القول لعلّهم يتذكرون﴾ سورة القصص، الآية 51. وقوله: ﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾ سورة الرعد، الآية 21، وقوله: ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾

سورة البقرة، الآية 27. أمّا الآيات التي جاءت في القول المفصل، فمنه قوله تعالى: ﴿الر كتاب أحكمت آياته ثمّ فصلت من لدن حكيم خبير﴾ سورة هود الآية01، وقوله: ﴿حم تنزيل من الرحمن الرحيم، كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا﴾ سورة فصلت، الآية 02، وقوله: ﴿وقد فصلنا الآيات لقوم يفقهون﴾ سورة الأنعام الآية 98. وبعد استقراء هذه الآيات وغيرها من القرآن التي تدل على أنّه تعالى سمى القرآن موصلا ومفصلا، وقد امتدح من وصل ما أمر الله به أن يوصل، وذم من قطعه. تبيّن بطلان ادعاء **بشر** في المسألة.

12. الحجاج بالقياس: القياس هو الرّبط بين شيئين على أساس جملة من الخصائص المشتركة بينهما[37]. فلمّا ادعى **بشر** أنّ المولى تعالى لم يُلزم العجم بلغة العرب، ولم يجعل تعلمها عبادة له، ردّ عليه **الكناني** ونقض دعواه من جانبين[38] **الجانب الأول** هو أنّ الذي يجهل لغة العرب ما من حق له أن يتأوّل القرآن، لأنّ الذي يفسر القرآن هو الذي يعقل لغته، أمّا **الجانب الثاني**، فإنّ معرفة الموصل والمفصل عبادة لله تعالى، لأنّ معرفته تفتح العقول لفهمه.

وفيما يخص **الجانب الأول** وهو التقوّل على الله تعالى عن جهل بلغة العرب ولغة القرآن، فقد ساق **الكناني** لذلك مجموعة من الآيات التي تنهى النبيين عن القول عن الله تعالى بغير علم ومن ذلك قوله تعالى للنبي –صلى الله عليه و سلم–: ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾ سورة الإسراء، الآية 36، وقال **لنوح** –عليه السلام–: ﴿فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ سورة هود، الآية 46 فقد نهى المولى تعالى أنبياءه وهم من أشرف خلقه عن قول ما ليس لهم به علم فما بالك بغيرهم من العباد، وهي نتيجة يصل إليها الإنسان عن طريق قياس حكم الآية على الأنبياء على غيرهم من الناس.

13. الحجاج بالتوكيد: بعد أن فرغ **الكناني** من بسط الحجج الدالة على تعبد الخلق لله تعالى بمعرفة الموصل والمفصل من القرآن، وإقرار **المأمون** بذلك[39] بقي **بشر** في تعنته، ورفضه قبول الحق رغم بيانه، وبقي يطالب **الكناني** بتوضيح

ذلك، ولكي يؤكّد **الكناني** دعواه زاد على ما ذكره، بمجموعة من الآيات التي تحقق ذلك.

1- آيات الوصل: وهي الآيات التي تقرأ بالوصل، فإن قرأها القارئ بالقطع متعمدا، يكون كافرا لما يتغير من معناها، ومنه قوله تعالى: ﴿شهد الله أنّه لا إله إلاّ هو والملائكة وأولوا العلم﴾ سورة آل عمران، الآية 18، وقوله: ﴿الله لا إله إلاّ هو الحي القيوم﴾ سورة البقرة، الآية 255، وقوله: ﴿إنّ الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضه فما فوقها﴾ سورة البقرة، الآية 62، وقوله: ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلاّ هو﴾ سورة الأنعام، الآية 49. فلو توقف القارئ في الآيتين الأوليتين في قوله تعالى (لا إله) وتوقف في الآية الثالثة في قوله (لا يستحي)، وتوقف في الآية الرابعة في قوله (لا يعلمها)، لتغيّر معنى الآيات، فنفى عن الله تعالى الربوبية والاستحياء والعلم تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

2- آيات الفصل: وهي الآيات التي تقرأ بالفصل، فإن قرأها القارئ بالوصل متعمدا، يكون كافرا لما يتغير من معناها، ومنه قوله تعالى: ﴿للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء، ولله المثل الأعلى﴾ سورة النحل، الآية 60. وقوله: ﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلي، وكلمة الله هي العليا﴾ سورة التوبة، الآية 40. فلو وصل القارئ قوله تعالى: ﴿للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء﴾ بقوله (ولله) وقطع الكلام، ووصل قوله تعالى: ﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى﴾ بقوله (وكلمة الله) وقطع، معتمدا جعل لله مثل السوء وكلمته السفلى، وما أعظمها فرية على المولى تعالى.

14. الحجاج بالشاهد: يتميّز الشاهد في الثقافة العربية بسلطة حجاجية خولتها له طبيعة الفكر العربي، خاصة الشاهد الشعري الذي غلب على غيره من أنواع الشواهد، ولمّا دخل العرب في الإسلام أصبحت الشواهد الدينية على رأسها القرآن الكريم أكثر النصوص مقبولية من حيث الاستشهاد، "فالاستشهاد بالنصوص ذات القيمة السلطوية على المخاطب كالمقولات الدينية أو كلمات القادة الخالدين في نظر الجماعة المقصودة، لأنّ قيمة الشخص المعترف بها سالفا من قبل السامعين

يمكن اعتبارها مقدمة حجاجية"[40]. ولمّا فطن **الكناني** لهذه القضية قام بعرض بعض الشواهد الشعرية، إلى جانب كثير من الشواهد القرآنية، ليكسب موقفه قوة ويثبت مزيته على **بشر** وهو فارق مهم بالنسبة للثقافة العربية. من بين هذه الشواهد قول **أمرئ القيس:**

تــقول وقد مال الغبيط بنا مــعا عقرت بعيري يا امــرأ القيس فانزل

فقلت لهــا سيري وأرخي زمامــه ولا تبــعديني عن خبـــاك المحلل

15. استراتيجية التكرار: يلعب التكرار دورا مهما في إقناع المخاطب بفكرة ما وذلك بإعادة تلك الفكرة صراحة، أو بملفوظ ينوب عنها، حتى لا يحس المخاطب بثقله، هذا لكون الإنسان يرتاب من الفكرة التي تلقى له أوّل الأمر، بيد أنّ التكرار يجعله يقبلها، خاصة إذا طرحت عليّه بأشكال مختلفة، لهذا تقول الباحثة سامية الدّريدي: "التكرار يساعد أولا على التبليغ والإفهام ويعين المتكلم ثانيا على ترسيخ الرّأي أو الفكرة في الأذهان فإذا ردّد المحتجّ لفكرة حجّة ما أدركت مراميها وبانت مقاصدها ورسخت في ذهن المتلقي، وإن ردّد رابطا حجاجيا أقام تناغما بيّنا بين أجزاء الخطاب وأكّد الوحدة بين الأقسام"[41]. وقد وظفت أنواع عديدة من التكرار من طرف المتناظرين، حسب حاجة كلّ واحد منهما ليجعل الحضور يقتنع بانسجام خطابه.

16. الحجاج بالصورة البيانية: تعتبر الصورة البيانية على اختلاف أنواعها من الأدوات الحجاجية التي يوظفها الناس لتدعيم أفكارهم وإقناع مخاطبيهم بتوضيحها. "فمن وظائف المجاز الحجاجية التي اقترنت بفكرة الاستبدال تجسيد المعاني وجعلها مرئية مشاهدة وجعل حضورها في السّامع أقوى ووقعها عليها أشد"[42]. فبنية الصورة البلاغية تجعل هذه الأخيرة تجذب السامع وتحرك خياله لاستيعاب الأفكار المقدمة إليه[43].

17. استراتيجية الاستفهام الحجاجي: إن هذا النوع من الاستفهام لا يعتبر سؤالا حقيقيا، بل يستخدم كأداة حجاجية للتدليل. فهو يحلّ محلّ جملة خبرية تكون منفية[44].

2. **الاستضاءة بالعقل:** بعد فشل **بشر** في إثبات إدعائه بخلق القرآن الكريم وبيان الحجة عليّه بنص التنزيل دون تفسير أو تأويل. ادعى أنّ له من الحجج ما يدحض به ادعاء **الكناني**، لكن بالنظر والقياس، وطالب **بشر** أن يدع **الكناني** مناظرته بنص التنزيل ويناظره بالنظر والقياس، حيث قال **بشر:** "يا أمير المؤمنين عندي أشياء كثيرة، إلاّ أنّه يقول بنص التنزيل وأنا أقول بالنظر والقياس، فليدع مناظرتي بنص التنزيل وليناظرني بغيره"[45]. رغم أنّ **المأمون** عارض ذلك معتبرا إيّاه ممّا لا يجوز، بيد أنّ **الكناني** طلب الإذن من **المأمون** بالسماح لهما للتناظر بالقياس والنظر والاحتكام إليهما. وفي هذا الفصل من المناظرة، يتغيّر الأصل الذي يتم الاحتكام إليه، حيث كان الاحتكام في الفصل الأول من المناظرة إلى نص التنزيل دون تأويل أو تفسير، أمّا في هذا الفصل وهو الفصل الثاني من المناظرة فقد أصبح الاحتكام إلى النظر والقياس، وهذا الفصل بدوره ينقسم إلى شقين، كان التناظر في الشقّ الأول بالنظر، أما الشقّ الثاني فكان التناظر فيه بالقياس.

2.1 – استراتيجيات الحجاج بالنظر:

1. استراتيجية الحصر: سأل **الكناني بشرا** سؤالا يحتمل ثلاثة أجوبة، كلّ جواب يضع **بشرا** في مأزق منطقي، ممّا جعله يحيد عن الإجابة. حيث قال **الكناني:** يا بشر تقول إنّ كلام اللّه مخلوق؟ ثمّ أضاف: يلزمك في قولك هذا واحدة من ثلاث أن تقول إنّ اللّه خلق كلامه في نفسه، أو خلقه في غيره أو خلقه قائما بنفسه وذاته فقل ما عندك"[46].

2. استراتيجية البيان: وهي الحجة التي يستعملها أحد المناظرين لبيان لبس أو توضيح مسألة، تؤكد مذهبه. فبعد أن حاد **بشر** عن إجابة **الكناني**، طلب **المأمون**

من **الكناني** توضيح مسألة ما يستلزم عن القول بخلق القرآن من جهة النظر وفصل **الكناني** ذلك كما يلي:

1) "**إن قال: إنّ اللّه خلق كلامه في نفسه،** فهذا محال باطل لا يجد السبيل إلى القول به من قياس ولا نظر ولا معقول، لأنّ اللّه لا يكون مكانا للحوادث، ولا يكون فيه شيء مخلوق ولا يكون ناقصا فيزيد بشيء إذا خلقه، ومن قال هذا فقد كفر باللّه العظيم"[47].

2) "**إن قال: خلق كلامه في غيره،** فذا أيضا محال باطل لا يجد السبيل إلى القول به من قياس ولا نظر ولا معقول لظهور الشناعة والكفر من قبله، لأنّه يلزم قائل هذه المقالة في القياس والنظر المعقول أن يجعل كلّ كلام خلقه اللّه في غيره هو كلام اللّه، فيجعل الشعر وقول الزور والفحش والخنا، وكلّ كلام ذمه اللّه وذمّ قائليه من الكفر والسحر وغيره للّه، تعالى اللّه عن ذلك"[48].

3) "**إن قال: خلق كلامه قائما بنفسه وذاته،** فهذا هو المحال الباطل الذي لا يجد السبيل إلى القول به لا من قياس ولا نظر ولا معقول لأنّه لا يكون الكلام إلاّ من متكلم كما لا تكون الإرادة إلاّ من مريد، ولا علم، ولا قدرة إلاّ من قدير"[49]. وببطلان كلام **بشر** من كلّ الجهات، ثبت أنّ الكلام صفة من صفات اللّه تعالى وأنّ القرآن كلامه عزّ وجلّ.

3. الاستدراج: في هذه المرّة، قام **الكناني** بجعل **بشر** يوافقه على بعض القضايا ليستدرجه إلى إبطال دعواه، حيث قال **الكناني:** يا بشر قول إنّ اللّه كان ولا شيء وكان ولم يفعل شيئا، وكان ولم يخلق شيئا؟، فردّ عليه **بشر:** نعم هكذا أقول، فسأله **الكناني:** بأيّ شيء، حدثت الأشياء بعد أن لم تكن شيئا، حدثت بنفسها أم اللّه أحدثها؟ فأجاب **بشر** بل اللّه أحدثها، فسأله **الكناني:** بأيّ شيء أحدثها؟ فقال **بشر** بقدرته، فسأل **الكناني:** تقول لم يزل قادرا؟ قال **بشر:** كذلك أقول، قال **الكناني:** إنّه لم يزل يفعل؟ فردّ **بشر:** لا أقول هذا. فقال **الكناني:** لابدّ أن تقول إنّه خلق بالفعل الذي كان عن القدرة، وليس الفعل هو القدرة، لأنّ القدرة، لأنّ القدرة

صفة من صفات اللّه ولا يقال لصفات اللّه هي اللّه ولاهي غير اللّه، وهذا يلزمك القول به[50]. وقد واصل **الكناني** في شرح المسألة حتى يقف كلّ من في المجلس على كذب دعوى **بشر** ومن قال بقوله، حيث قال: قد تبيّن أنّ ههنا إرادة ومريدا ومرادا وقولا وقائلا ومقولا له، وقدرة وقديرا ومقدورا عليّه، وذلك كلّه متقدّم قبل الخلق وما كان متقدما قبل الخلق فليس هو من الخلق في شيء. ما يثبت أنّ صفة الكلام كانت قبل وقوع الفعل.

2.2 استراتيجيات الحجاج بالقياس: بعد عجز **بشر** عن إجابة **الكناني** حول خلق الأشياء وبأيّ شيء حدثت بعد أن لم تكن شيئا. انتقلا إلى التحاجج بالقياس وهي المرحلة الأخيرة التي تنتهي بها مناظرة "الحيدة".

1. الحجاج بافتراض مسألة مشابهة للمسألة المتناظر عليها: افترض **الكناني** مسألة وعرضها على **بشر**، وهي أنّ **لبشر** غلامان، أحدهما اسمه خالد والآخر يزيد وكان **بشر** غائبا، وكتب **للكناني** ثمانية عشر كتابا يقول ادفع هذا الكتاب إلى خالد غلامي، وكتب أربعة وخمسين كتابا وقال ادفع هذا الكتاب إلى يزيد دون أن يذكر (غلامي)، وكتب كتابا وقال ادفع هذا الكتاب إلى خالد غلامي وإلى يزيد ولم يقل (غلامي)[51]. وأشهد **المأمون** على من هو المفرط هل الذي كتب الكتاب ولم يذكر أنّ يزيد غلامه، أم من تلقى الكتاب ولم يعلم أنّ يزيد غلام **بشر**. فأقرّ **المأمون** أنّ المفرّط هو كاتب الكتاب لأنّه لم يصرح أنّ يزيدا غلامه، رغم أنّه صرّح في مرات عديدة أنّ خالدا غلامه. والقياس من هذا أنّ المولى تعالى أخبر في ثمانية عشر موضعا بخلق الإنسان، فما ذكر الإنسان إلاّ وأخبر بخلقه، وذكر القرآن في أربعة وخمسين موضعا ولم يخبر بخلقه، ولا أشار إليه بشيء من صفات الخلق[52]، وجمع بين القرآن والإنسان في آية فأخبر بخلق الإنسان ولم يذكر خلق القرآن، وهذا في قوله تعالى: ﴿الرحمن علم القرآن، خلق الإنسان علّمه البيان﴾ سورة الرحمن، الآيتان 02/01. فهذه الآية قد أثبتت الخلق للإنسان ونفته عن القرآن.

ثالثا- المغالطة في الحجاج:

1. الغصب: قيام أحد المتناظرين بالاستدلال على بطلان دعوى خصمه، قبل أن يسمح له بإقامة الدليل[53]. وقد وقع **بشر** في الغصب في مطلع المناظرة، عند طرحه سؤالا على **لكناني** بغية إيقاعه في الحرج حيث سأل وأعطى احتمالين للإجابة دون أن يعطي فرصة **للكناني**، لهذا ردّ عليه هذا الأخير قائلا: «ما رأينا أعجب من هذا تسألني وتجيب عن نفسك»[54]، وقد سمي كذلك لأنّ المناظر يغصب حق مناظرة.

2. المكابرة: وتكون المنازعة لا لإظهار الحق، ولا لإلزام الخصم، إنّما لإظهار الفضل[55]. وقد وقع **بشر** في المكابرة بنقض دليل بلا شاهد عندما قال: «ما أدري ما تقول ولا أفهمه ولا أعقله ولا أسمعه ولا بد من جواب يعقل ويفهم إنّه شيء أم غير شيء»[56]. كما وقع **بشر** في المكابرة بعد أن بسط له **الكناني** الآيات التي تدل على أنّ كلام الله، هو أمره، وأمره هو قوله، وقوله هو الحق، وأنّها أسماء لشيء واحد وهو الكلام الذي خلقت به الأشياء، وهو غير الأشياء ولا يدخل فيها، وليس كمثلها. حيث قال: «يا أمير المؤمنين هذا يحب أن يخطب بما لا أسمعه ولا أعقله ولا ألتفت إليه وما أتى بحجة ولا أقبل من هذا شيئا»[57].

3. الحيدة: هي انصراف الخصم عن الإجابة على السؤال الذي يطرحه المناظر ليجيب عن سؤال آخر، عندما يدرك وقوعه في حرج، ووقوعه في مسألة يستحيل حلّها منطقيا. وقد وقع **بشر** في الحيدة عدّة مرات منها: لمّا حاصره **الكناني** ببرهان ذي حدين، يتعلق بـــ(كلّ) هل هي لفظة تجمع الأشياء جميعها أم لا؟ (تمّ شرح ذلك في البرهان ذو حدين)، حيث سأله هل تقرّ أنّ الله تعالى علما؟، فأجاب **بشر** إنّ الله تعالى لا يجهل وهذا معنى العلم، فما كان للجواب علاقة له بالسؤال، إنّما اجتلب كلاما ليشغل المناظر والحضور عن السؤال الحقيقي. حيث قال **الكناني:** «أتقر يا بشر أنّ لله علما كما أخبر، أو تخالف التنزيل»[58]. فأجاب **بشر:** «الله لا يجهل وهذا معنى العلم»[59]. وليحقق **الكناني للمأمون** أنّ **بشرا** وقع في الحيدة ضرب له

ثلاثة أمثلة، أحدها من القرآن، والثاني من سنة المسلمين والثالث من كلام العرب فالمثال من القرآن الكريم ضربه بقصة سيدنا **إبراهيم** -عليه السلام- لمّا قال لقومه: ﴿هل يسمعونكم إذ تدعون؟ أو ينفعونكم أو يضرون﴾ سورة الشعراء الآية73، فأجابوه: ﴿بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾ سورة الشعراء، الآية74 والمثال من سنة المسلمين، فضربه بقصة **عمر بن الخطاب** رضي عنه لمّا رأى **معاوية** يكاد يتفقأ شحما، فقال **لمعاوية** ما هذه؟ لعلّها من نومة الضحى وردّ الخصوم فقال معاوية: يا أمير المؤمنين علمني وفهمني"[60]. أمّا من كلام العرب فقد ضرب مثلا ببيتين **لامرئ القيس:**

تقول وقد مال الغبيط بنا معـــا عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل

فقلت لها سيري وأرخي زمامه ولا تبعدينـــي عن خباك المحلل[61].

فقوم **إبراهيم** أجابوا عن غير السؤال الذي طرحه **إبراهيم**، و**معاوية** اجتلب كلاما لا يمت بصلة لسؤال **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه، و**أمرؤ القيس** حاد عن إجابة محدثته في البيتين وردّ عليها بكلام لا علاقة له بسؤالها. وقد أقرّ **المأمون** بحيدة **بشر** بقوله: «أحسنت يا عبد العزيز وإنّما فرّ بشر أن يجيبك في هذه المسألة»[62] ولمّا سأل **الكناني بشرا** عن مكان خلق القرآن حاد عن الإجابة، واجتلب كلاما غير الذي سُئل عنه، فقال: "أنا أقول إنّه مخلوق وأنّه خلقه كما خلق الأشياء كلّها"[63]. وقد تعنّت في ذلك ورفض الاجابة عن السؤال مدّعيا أنّ هذا هو الجواب وليس هناك غيرة، رغم إصرار **الكناني** على الجواب بشهادة **المأمون**.

4. الجواب الجدلي: هو جواب يعطيه المجيب مع معرفته ببطلانه[64]، ولا يقصد به إظهار الحق، إنّما التعنت. ومثال ذلك الجواب الذي ساقه **بشر للكنان** حول علم الله تعالى، فأجاب **بشر** أنّه لا يجهل، ولمّا أبى عليه **الكناني** قال: «قد أجبته عن معنى العلم أنّه لا يجهل»[65]. فلم يكن القصد من جواب **بشر** البحث عن الحقيقة إنّما الجدال فقط وإبطال مقالة خصمه حتى ولو كان على صواب.

5. تأويل قول الخصم: ويكون بتأويل أحد المناظرين كلام خصمه على غير النحو اللائق، لإثبات دعواه، وقد وقع **بشر** في ذلك عندما قال **الكناني:** لا بدّ أن تقول إنّه خلق بالفعل الذي كان عن القدرة، وليس الفعل هو القدرة، لأنّ القدرة صفة من صفات اللّه ولا يقال لصفات اللّه هي اللّه ولا هي غير اللّه، فقال **بشر:** ويلزمك أن تقول إنّه لم يزل يفعل ويخلق وإذا قلت ذلك تبيّنا أنّ المخلوق لم يزل مع الخالق[66]. فردّ عليه **الكناني:** إنّي لم أقل هذا، وليس لك أن تحكي عنّي ما لم أقل[67].

6. تدخل الحضور في مجريات المناظرة: من الأخطاء التي وقعت في مناظرة الحيدة تدخل **محمد بن الجهم** في مجريات المناظرة، فبعد عن سكت **بشر** وبطل ادعاءه تدخل، وسأل **الكناني** دون أن يطلب الإذن من الحكم أو المتناظرين[68].

7. منع ما سبق إثباته: وتكون بمحاولة أحد المتناظران أن يبطل ما سبق أن أثبته خصمه، وانتهت المناظرة فيه، وهي الحيلة التي لجأ إليها **بشر** لكي يغطي فشله في مناظرة **الكناني،** فبعد أن شرح هذا الأخير للحضور كيف يتعبد الناس المولى تعالى بمعرفة الموصل والمفصّل من القرآن الكريم، تعنّت **بشر** ورفض الحقّ على وضوحه، وأعاد سؤاله: وما يضرّ الخلق ألاّ يعرفوا المفصل والموصل؟[69].

8. التمويه: وهي محاولة المناظر إخفاء حقيقة شيء ما بجعله مشابها لآخر. وقد سعى **بشر** إلى ذلك عندما أراد أن يجعل سكوت **الكناني** عن الإجابة عن صفة العلم الإلهي، كسكوته هو عن الإقرار بأنّ لله تعالى علما، ويظهر ذلك في قول **بشر:** واحدة بواحدة يا أمير المؤمنين، سألني عبد العزيز أن أقر أنّ لله علمًا فلم أجبه وسألته عما هو علم الله فلم يجبني، فقد استوينا في الحيدة[70]. والحقيقة أنّهما ليسا في سكوتهما سواء، لأنّ **بشر** سكت عمّا أقره تعالى لنفسه بنص التنزيل، وإنّما سكت مكابرة، أمّا **الكناني** فقد سكت عمّا أمره المولى تعالى بنص التنزيل أن يسكت عنه.

9. التشبيه (التغليط في المعنى): وهي الحجّة التّي يسعى من خلالها صاحبها إلى إظهار شيء بصفة، غير صفته على أساس شبهة. ومثل ذلك سعى **بشر** إلى الاستدلال على خلق القرآن بقوله تعالى: ﴿إنا جعلناه قرآنا عربيا﴾، مدّعيا أنّ جعل

وردت في هذه الآية بمعنى (خلق) رغم أنّها وردت بمعنى (صيّر)[71]، وسبب ادعائه هذا أنّه جعل وردت في القرآن بمعنى (خلق) مما دفعه إلى التشبه على الناس في الآيات التي وردت فيه اللّفظة بمعنى (صيّر). ومن حجج التشبيه التي سعى **بشر** إلى المغالطة بها، لمّا ادعى أنّ **الكناني** قلّل من قيمة القرآن وحطّ من قدره عندما قسمه إلى موصل ومفصل، والموصل هو الملفق غير الصحيح، حيث قال: «قد وضع من شأن القرآن... إذ كان الموصل عندهم جميعا هو الملصق الذي وصل بعضه ببعض... فسمى عبد العزيز كتاب الله اسما ناقصا ذميما»[72]. فقد قام **بشر** بقياس مغالط على الموصل والمفصل المذكور في القرآن بنص التنزيل، من لغات العرب، علّه يشبّه على **المأمون** والحضور.

10. التلاعب العاطفي: يسعى أحد المتناظرين من خلال هذه الاستراتيجية إلى صرف الحضور والحكم عن القضية المحورية، عن طريق استثارة عواطفهم فيقوم المناظر بمخاطبة عواطفهم، لجعلهم يعتقدون لصحّة رأيه[73]، ومثل ذلك ما قام به **بشر** لمّا ذمّ **الكناني** الجاهلين باللّغة، حيث قال: «يا أمير المؤمنين يذمنا ويكفرنا ويقول إنّا نحرف القرآن عن مواضعه»[74]، فحاول استثارة عواطف **المأمون** بدعوى أنّ **الكناني** يكفّرهم ويذمهم، خاصة أنّ **المأمون** أخواله من العجم.

11. المراوغة: وهي حجة يسعى من خلالها أحد المتناظرين مراوغة خصمه بإثارة إشكالية تبعده عن الإشكالية الجوهرية المتنازع عليها، ومثل ذلك ما قام به **بشر**، لمّا أقام عليه **الكناني** الحجة أنّ القرآن منه قول مفصل، ومنه قول موصل و**بشر** جاهل لذلك وجاهل بلغات العرب، فادعى **بشر** أنّ الله تعالى لم يطالب العجم بتعلم لغة العرب، حيث قال: «أو على الخلق أن يتعلموا لغات العرب؟ ما تعبد الله الخلق بهذا ولا أمرنا به، وكلّ إنسان يتكلم بما علّمه الله، وما كلّف الله فوق طاقتهم ولا طالب أولاد العجم بلغة العرب»[75]. وهي مسألة أثارها **بشر** لا علاقة لها بما كانا فيه **فالكناني** كان يتحدث عمن يدعي علم القرآن ويؤوله بغير علم، ويقول على الله

بجهالة، ويظلّ الناس ويفتنهم في دينهم، مدعيا العلم والفهم، وهو جاهل بالقرآن جاهل بلغات العرب.

12. التخويف: وتقوم على إرهاب وتخويف الخصم لإضعاف حجّته، وفرض الرأي بالقوّة[76]، قبل المناظرة و بعدها كان أتباع **بشر** يحاولون إرهاب **الكناني** وتخويفه من العقاب، أمّا **بشر**، فقد كان يذكّر **الكناني** مرارا وتكرارا بما سيلحقه من عذاب، كي يخيفه ويربكه عن المناظرة.

13. التعميم المتسرع: وهي تبرير نتيجة عامة اعتمادا على عيّنات غير كافيّة فيحاول أحد المناظرين أن يوهم بصدق قضيّته عن طريق جعل بعض العيّنات غير الكافية دليلا على صدق دعواه بعد تعميمها وجعلها قانونا عاما[77]، كما حاول **بشر** أن يثبت أنّ (جعل) تأتي دائما بمعنى (خلق).

14. السخرية: عادة ما تقوم هذه الاستراتيجية على السخرية والاستهزاء من الخصم، بدل التدليل والحجاج[78]، بيد أنّ **الكناني** إلى جانب اعتماده على الحجج والبراهين، كان يميل إلى الاستهزاء **ببشر** في كثير من الأحيان، وهي استراتيجية تقابل استراتيجية التخويف والترهيب التي كان يميل إليها **بشر**.

15. الاحتجاج بالسلطة: لا يقصد هنا السلطة كنظام سياسي أو ما هو متعارف عليه، فيما يرتبط بالحكم، إنّما يقصد به "أن تكون للشخصية المتكلمة – مرسل الخطاب– قدم راسخة وباع طويل في المجال الذي يتحدث فيه"[79]. إذ يستمد هذا النمط من الحجاج فعاليته من مكانة المناظر في العلم المتناظر حوله، ونجد أنّ **الكناني** ركّز كثيرا على هذه الاستراتيجية ففي معرض مناظرته مع **بشر** أكثر من القدح في جهل هذا الأخير باللّغة العربية ومداخلها اللّغوية، والإشارة ضمنا على قدرته في هذا المجال وتفوّقه، محاولا أن يكسب نفسه نوعا من السلطة على الخطاب وعلى الموضوع المتناظر عليه، خاصة وأنّ المناظرة كانت تجعل من المداخل اللّغوية سبيلا للاستدلال.

16. التغليط من جهة اللّفظ: وهي حيلة يسعى من خلالها أحد المتناظرين إلى تغليط الخصم والحضور، بجعل اللّفظ يدل على غير المعنى الذي وضع لأجله أصلا[80]. وهي الحيلة التي سعى من خلالها **بشر** بأن يشبه على الحضور بأن يجعل لفظ (جعل) يدل على معنى الخلق. حيث قال **بشر:** «هل في الخلق أحد يشك في هذا أو يخالف عليه، إن معنى (جعلناه) خلقناه» سورة الزخرف، الآية03.

17. القياس الجدلي: ويقصد به القياس الذي يستمد شرعيته من شهرة مقدماته وليس من صدقها، "إنّه القياس الذي يستمد شرعيته من مقدمات ذائعة وجدليته نابعة من شهرة مادته لا من خصوصيته في صورته"[81].

الهوامش:

1- جاء في شذرات الذهب: عبد العزيز بن يحي الكناني المكي سمع عن سفيان بن عيينة وناظر بشرا بن غياث المريسي، في مجلس المأمون مناظرة عجيبة غريبة فانقطع بشر وظهر عبد العزيز ومناظرتهما منشورة مسطورة وعبد العزيز هو صاحب كتاب الحيدة وهو معدود في أصحاب الشافعي.

2- جاء في شذرات الذهب: بشر المريسي الفقيه المتكلم، وكان داعية للقول بخلق القرآن هلك في آخر سنة مائتين وثمانية عشر، ولم يشيعه أحد من العلماء وحكم بكفره طائفة من الأئمة، وروى عن حماد بن سلمة وعاش نيفا وسبعين سنة قاله في العبر، وقال ابن الأهدل كان مرجئا داعية الإرجاء وإلية تنسب طائفة المريسية المرجئة، كان أبوه يهوديا صباغا في الكوفة وكان يناظر الشافعي، وهو لا يعرف النحو فيلحن لحنا فاحشا.

3- أبي الفلاح عبد الحيّ بن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مج01، ج02 المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بدون طبعة، بيروت، بدون سنة، ص95.

4- ينظر المرجع نفسه، ص44.

5- ينظر رشيد الراضي، الحجاج والمغالطة من الحوار في العقل إلى العقل في الحوار، دار الكتاب الجديد، ط01، بنغازي، 2010، ص19.

6- الحيدة، ص12.

7- محمّد طروس، النظرية الحجاجية من خلال الدّراسات البلاغية و المنطقية واللّسانية، ط01 دار الثقافة للنّشر والتّوزيع، الدّار البيضاء،2005، ص32.

8- محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة (بحث في بلاغة النقد المعاصر)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط01، 2008، ص131.
9- ينظر أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج، ط01، الأحمدية للنشر، الدار البيضاء، 2007 ص81.
10- الحيدة، ص 15.
11- المرجع نفسه، ص 16.
12- المرجع نفسه، ص 16.
13- المرجع نفسه، ص 16.
14- المرجع نفسه، ص 12.
15- المرجع نفسه، ص 73.
16- محمد طروس، النظرية الحجاجية، ص 30.
17- الحيدة، ص 18.
18- ينظر المرجع نفسه، ص 32/31.
19- ينظر المرجع نفسه، ص 36.
20- محمد طروس، النظرية الحجاجية، ص 32.
21- الحيدة، ص 26.
22- المرجع نفسه، ص 30.
23- ينظر محمد طروس، النظرية الحجاجية، ص 25.
24- الحيدة، ص 37.
25- المرجع نفسه، ص 41.
26- المرجع نفسه، ص 46.
27- ينظر علي الشبعان، الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل (بحث في الأشكال والاستراتيجيّات) ط01، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2010، ص 301.
28- الحيدة، ص 71.
29- المرجع نفسه، ص 47.
30- ينظر المرجع نفسه، ص 49.
31- ينظر المرجع نفسه، ص 50.
32- ينظر المرجع نفسه، ص 49.
33- المرجع نفسه، ص 59.
34- المرجع نفسه، ص 60.

35- المرجع نفسه، ص 61.
36- ينظر المرجع نفسه، ص 64.
37- عبد الرحمن طه، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ط02، المركز الثقافي العربي، الدّار البيضاء، 2000، ص 98.
38- الحيدة، ص 67
39- ينظر المرجع نفسه، ص 66.
40- محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 132/131.
41- سامية الدّريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم (من الجاهلية إلى القرن الثّاني للهجرة بنيته وأساليبه)، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط01، 2008، ص 168.
42- عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ج02، منشورات كليّة الآداب منوبة، تونس، 2001، ص 558.
43- ينظر محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 136.
44- المرجع نفسه، ص 487.
45- الحيدة، ص 73.
46- المرجع نفسه، ص 74.
47- المرجع نفسه، ص 76.
48- المرجع نفسه، ص 76.
49- المرجع نفسه، ص 76.
50- المرجع نفسه، ص 77.
51- ينظر الحيدة، ص 80/79.
52- ينظر المرجع نفسه، ص 80.
53- ينظر عبد الرحمن حسن حنبكـــة الميداني، ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة ص 452.
54- الحيدة، ص 19.
55- ينظر عبد الرحمن حسن، حنبكة الميداني، ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة ص 454.
56- الحيدة، ص 19.
57- المرجع نفسه، ص 29.
58- المرجع نفسه، ص 31.
59- المرجع نفسه، ص 32.

60- الحيدة، ص 33.
61- المرجع نفسه، ص 33.
62- المرجع نفسه، ص 36.
63- المرجع نفسه، ص 75.
64- ينظر عبد الرحمن حسن، حنكبة الميداني، ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة ص 454.
65- الحيدة، ص 34.
66- المرجع نفسه، ص 79.
67- المرجع نفسه، ص 79.
68- ينظر المرجع نفسه، ص 72.
69- ينظر المرجع نفسه، ص 67.
70- ينظر المرجع نفسه، ص 43.
71- ينظر المرجع نفسه، ص 49.
72- المرجع نفسه، ص 64.
73- ينظر رشيد الراضي، الحجاج والمغالطة من الحوار في العقل إلى العقل في الحوار، ص28.
74- الحيدة، ص 63.
75- المرجع نفسه، ص 66.
76- ينظر رشيد الراضي، الحجاج والمغالطة من الحوار في العقل إلى العقل في الحوار، ص32.
77- ينظر المرجع نفسه، ص 41.
78- ينظر المرجع نفسه، ص 30.
79- محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 198.
80- ينظر حمو النقاري، منطق الكلام من المنطق الجدلي الفلسفي إلى المنطق الحجاجي الأصولي، دار الأمان، ط01، الرباط، 2005، ص203.
81- حمو النقاري، منطق الكلام من المنطق الجدلي الفلسفي إلى المنطق الحجاجي الأصولى ص299.

أنماط الكلمة الرّوائية عند واسيني الأعرج
فاجعة اللّيلة السّابعة بعد الألف أنموذجا

أ. سيد علي شطي
جامعة يحي فارس – المدية– الجزائر

ملخص:
إنّ أنماط الكلمة الروائية عند واسيني الأعرج، اتّخذت مجموعة من الأشكال المتنوعة داخليا وخارجيا، في محاولة لبناء صورة البطل التي لا تتحدّد – إطلاقا – عبر الكلمة الغيابية التي تُقدّم خلاصة نهائية عن الشّخصية، لهذا فإنّ كلمة المؤلف لا تستطيع أن تُحيط بالبطل وتحصره من جميع الجهات، ولا أن تكمله من الخارج ولهذا أيضا لم نجد – في الرّواية – صورة ثابتة للبطل قادرة على أن تُجيب عن سؤال "**من يكون ؟**"، فقد نجد فقط أسئلة "**من أنا؟**" و"**من أنت؟**". وكل هذه الأسئلة تتردّد أصداؤها في حوار داخلي غير منجز ومستمر... .

Résumé :
Les motifs du mot fiction chez wasini al araj, ont pris un groupe de diverses formes internes et externes, dans une tentative de construire une image du héros, qui est déterminé à ne pas - du tout - sur le sol par contumace offrant conclusion définitive sur le personnel, c'est le mot de l'auteur ne peut pas entourer un héros et le monopole de tous les côtés, et de ne pas être complétée de l'extérieur, et cela n'a pas non plus trouver - dans le roman - une image statique du héros est capable de répondre à la question: «Qui est-il", nous pouvons constater que des questions et "Qui êtes-vous?" "Qui je suis ?". Et toutes ces questions résonnent dans un dialogue interne inachevé et continue ... .

تمهيد:

لقد كانت الرّواية – خلال حقبة زمنية عريضة – موضوعًا لتحليلات أيديولوجية بطريقة تجريدية، ومجالاً لأحكام يصدرها الإعلاميون. فكانت تُدرس بطريقة سطحية فجّة دون انتهاج أي مبدأ تحليلي واضح، حيث " كان خطاب النّثر الأدبي معتبَرا وكأنّه خطاب شعري بالمعنى الضّيق، فكان يُطبّق عليه بدون أي حسّ نقدي، مقولات الأسلوبية التّقليدية المرتكزة على دراسة الوجوه البلاغية، أو أنّه كان يقع الاكتفاء بمصطلحات جوفاء لتوصيف الخصائص المميزة للّغة" (ميخائيل باختين، الخطاب الروائي ص 31). وقد اتسع هذا المجال النّظري بشكل لافت خلال القرن العشرين تزامنيا وتعاقبيا، فلم يعد البحث يقتصر في مجال نظرية الرّواية على النّقد الروائي، أو على الأبحاث ذات المنحى التّنظيري الخالص، بل أضيف إلى ذلك المتن الرّوائي ذاته، وصار البحث ينصب أكثر على استخلاص نظرية الرّواية من تشكيلات النّصوص الرّوائية ذاتها. فمن جهة ظهرت مجموعة تحليلات أسلوبية لنثر الرّواية، ومن جهة أخرى "بدأنا نشهد محاولات جذرية لفهم وتحديد التّفرد الأسلوبي للنثر الأدبي انطلاقا مما يميّزه عن الشّعر". (ميخائيل باختين، الخطاب الروائي ص 32). وهنا يعتبر **باختين** الرّواية شكلا تلفيقيا مختلطا وتشكيلا هجينا، يقبل دخول عناصر شعرية محضة إلى جانب عناصر بلاغية متعدّدة، ولذلك يمكننا اعتبار الرّواية هي "التّنوع الاجتماعي للّغات، وأحيانا للّغات والأصوات الفردية، تنوعا منظما أدبيا. وتقضي المسلمات الضّرورية بأن تنقسم اللّغة القومية إلى لهجات اجتماعية وتلفّظ متصنع عند جماعة ما، ورطانات مهنية ولغات للأجناس التّعبيرية وطرائق كلام بحسب الأجيال والأعمار والمدارس والسّلطات، والنّوادي والموضات العابرة وإلى لغات للأيام الاجتماعية والسّياسية." (ميخائيل باختين، الخطاب الروائي ص 33).

1 – مبدأ الحوار في رواية الفاجعة: لقد تأسّس الخطاب الرّوائي في نص فاجعة اللّيلة السابعة بعد الألف من خلال مبدأ الحوار الذي كرّسه **باختين** عبر كتاباته النّظرية المتعدّدة، حيث جُسّد ذلك عبر عدّة نصوص متداخلة فيما بينها لدرجة أنّه يصعب – في كثير من الأحيان – الفصل بين نص مُدرج وآخر، إذ جاء

البناء – فيها – محكم السّبك، متعدّد الأصوات والعوالم. واللاّفت للانتباه أنّ أوّل علامة للحوار أقامها الرّوائي مع لغة الآخر، كانت عبر استثماره للنّص التّراثي "ألف ليلة وليلة"، بداية من العنوان ومرورا بالشّخصيات وانتهاء بالزّمكان.

إنّ هذه العلاقات الحوارية كانت بمثابة المدخل لمجموعة من الحوارات الأخرى التّي خلقت نسيجا من التّبادلات الدّلالية والرّمزية، ذات الأهمية البالغة في التّخييل الرّوائي الذي تكوّن اللّغة مجاله وفضاءه. فإذا كان أساس الصراع على مستوى نص "ألف ليلة وليلة" يكمن في التّمسك بالحياة عن طريق تزييف التّاريخ وإخفاء الحقيقة أو السّكوت عن أهمّ جوانبها، فإنّ وجه الصّراع الحقيقي في نص **الفاجعة** يأخذ طابع الموت عن طريق سرد الحقيقة وكشف الزّيف التّاريخي "ها قد عدنا إليك نسأل مجلداتك التي كتبت بماء الذهب وجلدت بالقاطيفا والمخمل بألف لون ولون. ماذا فعلت بالحرف الوهاج ؟؟؟ إنّه يقف عاريا خجولا بعد أن سقطت عنه كل الألوان التي خبأته وراءها. هي الحقيقة يا صاحبي التي تأكل كل شيء ولا تؤكل بسهولة. نجّرت قلمك القصبي تماما كما كان يفعل معظم وراقي الدّواوين كتبت وأنت تضع كيس النّقود الذّهبية في جيبك." (واسيني الأعرج، فاجعة الليلة السابعة بعد الألف ج 1 ص 25).

ويواصل واسيني خطابه الروائي الذي يتجسد– غالبا– في ثنائية الحياة / الفناء كمحاولة لتحطيم عنفوان الموت الذي يحاصره ويطوق كيانه، فيعمد إلى السخرية من الوقائع التاريخية المزيفة. محاولا – في الوقت نفسه– تلميع بعض الزوايا المغيبة والسكوت عنها بعيدا عن سلطة التاريخ الرسمي. "واتّفق الوراقون والبراقون والسراقون، والوراقون والصفاقون، يسندهم الحاكم الرابع من بعيد بظلاله الوافرة ومسحة يده الكريمة التي لا تطالها النار الحارقة. تآمر الجميع على حذف حرف الواو، حرف الفقراء من الآية فتقطع الصلة بينها وبين السابق أي القسم الأول من الآية، وشكّلت لجنة من الوراقين الكبار الذين تخرّ الأمة لكلامهم المرصّع بالصدق كما يقولون." (واسيني الأعرج، فاجعة الليلة السابعة بعد الألف ج 1، ص 26). كما ينتقل هذا الصّراع من مستوى الخطاب إلى مستوى الأفعال والشّخصيات، وفي هذا المستوى ترتكز الرّواية على صوتين مختلفين:

– أ / **صوت خارجي** يمثّله الآخر المجسّد لقوى الشّر والطّغيان وتزييف الحقائق وتكريس مبادئ التّاريخ المعطوب "ما الذي تغيّر داخل هذه المدينة التي ينخرها الحزن والخوف من المجهول. لا شيء. السّرقة. القتل العلني. الاختطافات التي لا تتوقف. الكلاب تغض الغادي والرّائح. النّباح يزداد ضراوة، الصراخات تزداد وكلّما نزلت الظلمة تزداد اقترابا بشكل غريب. ماذا بقي ؟؟ التاريخ ملّ من تدوين الكذب والحزن والجراح التي تعفنت. لا شيء تغيّر في هذه البلاد. نفس الرّتابة ونفس القلق." (واسيني الأعرج، فاجعة الليلة السابعة بعد الألف ج 1 ص 218 – 219).

– **ب / صوت داخلي** تُمثّله الذّات التي صُدمت بالواقع المرّ فكانت الفاجعة التي استمرت طويلا ولم تتوقف ! نعم إنّها صرخة البشير الموريسكي الذي وجد نفسه وحيدا يُصارع في اتجاه الموت المحتوم، لا أمل له سوى ذاكرته المتجدّدة: "بدأت خيبة الأمل تزحف باتجاه قلبي وانطفأت فجأة الصورة القديمة التي صنعتها للبلاد الأخرى. في لحظة واحدة انسحق الفردوس المفقود الذي ظلّ يملأ الأسواق زمنا من الدّهر. حي البيازين الغرناطي يحفظ كل التّفاصيل (...) لا أستسلم لهذا الموت البطيء الذي بدأ يسيل على الجسد كالقطران السّاخن. الزمن يجب أن لا يتوقف عند هذه الحدود الضّيقة مثل خُرم إبرة عمياء."

(واسيني الأعرج، فاجعة الليلة السابعة بعد الألف ج 1 ص 30).

هذا، واستنادا إلى وضع الكلمة الاجتماعي في علاقتها مع غيرها من الكلمات يتحدث **باختين** عن حياة الكلمة في الرواية، إذ أنّ "الكلمة تعيش خارج ذاتها في توجّهها الحي إلى الموضوع، فإذا غفلنا عن هذا التّوجه حتى النّهاية، لن يبق بين أيدينا إلاّ جثة الكلمة عارية، لا نستطيع أن نعرف منها شيئا، لا عن وضع الكلمة الاجتماعي ولا عن مصير حياتها." (Mikhaïl Bakhtine, Le marxisme et la philosophie du langage, p 31) ذلك أنّ اللّغة ليست نسقا مطلقا وبنية ثابتة، بل هي اللّغة الملفوظ، تلك اللّغة التي تنأى عن دلالة المعجم، لتحتضن معاني المتكلمين داخل الرّواية، فتقوم بوظيفة الكشف عن أنماط العلاقات القائمة بين الشّخوص وعن الغاية التي يبطنها كلامهم وأفعالهم. يقول **باختين** في هذا الصّدد: "إنّ الرواية

ككل، ظاهرة متعدّدة الأسلوب واللّسان والصّوت، يعثر المحلل فيها على بعض الوحدات الأسلوبية اللاّمتجانسة التي توجد أحيانا على مستويات لسانية مختلفة وخاضعة لقواعد لسانية متعدّدة." (ميخائيل باختين، الخطاب الروائي ص 32). ومن هنا فإنّ أهمّ شرط لوجود اللّغة واستمراريتها عبر التّاريخ يكمن في الممارسة اللّغوية، فإذا كانت الكلمة لا تُنجز إلاّ من خلال توجهها إلى الآخر" فإنّ اللّغة لا تعيّن إلاّ في أشكال تبادلها الاجتماعية. فالفرد لا يتكلّم إلا من خلال كلام آخر والآخر لا يرسل الكلام إلاّ بسبب كلام وقع عليه. تأخذ اللّغة في حقل التّبادل الكلامي الملازم لها، شكل سيرورة مفتوحة قوامها التّنوع الكلامي الصادر عن بشر أحياء، لهم شروطهم الاجتماعية المشخصة المختلفة." (فيصل دراج، نظرية الرواية والرواية العربية، ص160).

2 – أنماط الكلمة في رواية الفاجعة: إنّ أوّل نمط نثري من أنماط الكلمة التي استخدمها الرّوائي **واسيني الأعرج** في روايته **الفاجعة** يكمن في مختلف أوجه **الأسلبة البارودية**، والتي وظّفها بغرض خلخلة النّمطي / السّائد والرّتابة المُقرفة التي تسكن الكثير من الوقائع التّاريخية المغلوطة أحيانا، أو المسكوت عنها أحايين أخرى، وهوما جعله يعقد الكثير من المقارنات الضّدية التي تُبرز دائرة الصّراع بين مختلف الشّخصيات التي تتطاحن أفكارها وتتصارع رؤاها على مستوى الحدث / الفعل الروائي، وِفق ثنائية ضدية تتجلى مثلا بين معاوية وأبي ذر الغفاري، يقول البشير الموريسكي: "آه يا معاوية، أنت تعرف أكثر من غيرك أنّك لا تستطيع أن تغيّر من مجرى الأحداث أبدا، ولا حتى أن تنّقذ نفسك من التّهلكة الحتمية. سيبقى كل شيء يواجهك بحضوره الأبدي. أنت نفسك لم تتصوّر فيها اللّحظات الأخيرة وهي تسلل منك حياتك خيطا خيطا، تصوّر هذا الزّمن الذي لا يرحم وقد قادك بسرعة البرق إلى آخر أيامك" (واسيني الأعرج، فاجعة الليلة السابعة بعد الألف ج 1 ص31). هذه الثّنائية الضّدية التي عُقدت بين معاوية وأبي ذر – كإحدى المحطات الهامة في سرد أحداث الرّواية – سليلة ثنائيات ضدّية أخرى، أُقيمت بين عدّة شخصيات فاعلة على مستوى الحركة السّردية، ومن أهمها ما جاء بين الشخصيات: شهرزاد / دنيا زاد / شهريار، إذ أنّ التّعلق النّصي الذي تمّ عند هذا المستوى في النّص اللاّحق، هو كون

رواية "فاجعة اللّيلة السّابعة بعد الألف" تُحيل منذ البداية إلى دنيا زاد وإلى الملك شهريار، لكن الموضوع الذي يتم عرضه يتمثّل في حالة انفصالية أولى، وهي عدم معرفة شهريار بما خبأته شهر زاد من أخبار، وتحوّلها إلى حالة اتّصالية وهي حكي دنيا زاد وكشفها لهذا الأمر المخفي والمجهول. ويتّضح لنا هذا من خلال ما جاء على لسان شهريار الحفيد: " كلّ شيء يقف ضدّه. كان يجب أن يتوقف سرد الحكاية عند اللّيلة الألف، لكنّه أصرّ على تمديدها ليلة أخرى لسماع النّهاية. شُغف باللّيلة الواحدة بعد الألف لكنّه ظلّ حزينا، لأنّه شعر في لحظة من اللّحظات، أنّ شيئا كان مُخبئا عليه. دابة الغواية في ذلك الزّمن البعيد، شهر زاد لم تحك ما كان يجب أن يُحكى. خبّأت عن سابقي الحقيقة التي كان يجب أن يعرف." (واسيني الأعرج، فاجعة الليلة السابعة بعد الألف ج 2 ص258). كما ورد على لسان الرّاوية دنيا زاد – كمعارضة ساخرة – ما روته شهر زاد التي تمثّل في النص السّابق قيم الكذب والتّلفيق، حيث قامت بإخفاء الحقيقة وتزييفها "في الحقيقة يا سيدي، تقول دنيا زاد التي جفّ ريقها، هذه القصص لم تروها شهر زاد لأنّها كانت تخاف من عظيمها أن يسمل عينيها، لأنه كان يتعطّش طلعة الحاكم الرابع (؟؟؟). كانت تحفظها عن ظهر قلب، لكنّها عندما تصل إليها، تختم الجلسة وتؤجّل التّتمة إلى الغد، وفي اللّيلة الموالية تسترسل في كذبة جديدة بعيدا عن الحقيقة." (واسيني الأعرج، فاجعة الليلة السابعة بعد الألف ج 1 ص38). هذا، وتتعارض هذان الشّخصيتان مع شخصية الملك شهريار، والذي يُعتبر **كمري له** من الدرجة الأولى، سواء في حكاية ألف ليلة وليلة : "قالت دنيا زاد لأختها: يا أختي اتممي لنا حديثك قالت حُبّا وكرامة إن أذن لي الملك في ذلك، فقال لها الملك أحكي. فقالت: بلغني أيها الملك السعيد أنّه لما ... " (ألف ليلة وليلة، ج 1، ص 10). أو ما جاء في النص اللاّحق 'الفاجعة' حيث يحتل شهريار الحفيد نفس المرتبة من المشاركة في الأحداث: "ينظر شهريار بن المقتدر، بعيون جاحظة إلى وجه دنيا زاد، المنغمس في تفاصيل الرّواية التي بدأتها وهي مُصرة على إنهائها، حتى وإن كانت في النهاية نهايتها. دابة الغواية أختها، اختصرت من الحكاية ما كان يجب أن يُروى." (واسيني الأعرج، فاجعة الليلة السابعة بعد الألف، ج 1، ص152).

هذه الشّخصية المروي لها – في النّص اللاّحق – تتّخذ طبيعة المعارضة الساخرة مع الشّخصية المركزية في الرواية / البشير الموريسكي، هذا الاسم الذي يحمل رموز البشر ودلالات الانتصار، يبحث عن الحقيقة المدفونة وعن أسرار الحروف الوهاجة، لهذا فهو يكوّن مع ثنائية ضدّية مع الملك شهريار بن المقتدر الذي كان "يحلم بأن يُظهره مجنونا أمام المشاهدين، وكان يُطبّق حرفيا تعاليم أصدقائه، في محاولة لاستثمار حضوره ديمقراطيا. ولكن يبدو أنّ النتائج كانت عكسية تماما، بل دفعت بالكثير من النّاس في اليوم الموالي إلى الوقوف في محيط القصر، والمطالبة بإطلاق سراحه." (واسيني الأعرج، فاجعة الليلة السابعة بعد الألف ج 1 ص152).

لننتقل الآن إلى نمط آخر من أنماط الكلمة النّثرية عند الكاتب الرّوائي واسيني الأعرج عبر روايته الفاجعة، ونقصد بذلك **الكلمة المباشرة الموجّهة** إلى ما هو ملموس ومباشر، الكلمة التي تُصوّر وتُخبر وتُعبر من زاوية وظيفتها المباشرة، "إنّ الكلمة المباشرة والموجهة إلى ما هو ملموس، تعرف نفسها فقط ومادتها الملموسة التي تحاول هذه الكلمة أن تكون مكافئة لها. وإذا ما كانت الكلمة في مثل هذه الحالة ن تحاكي أحدهم أو تتعلّم عند أحدهم فإنّ هذا لا يُغيّر من جوهر القضية شيئا: إنّ ذلك بمثابة الصقالات التي لا تدخل في التّكوين المعماري، رغم أنّها ضرورية وتدخل في حساب المهندس المعماري." (ميخائيل باختين، شعرية دوستوفسكي، ص 271). ولتوضيح ذلك نأخذ الفقرة الآتية: "قيل الكثير عن البشير الموريسكي الأخير، وحتى هو عندما عاد من الكهف اندهش في الكثير ممّا سمعه من أفواه القوالين الذين لا يعرفون إلاّ رواية الحقيقة كما يحسّونها." (واسيني الأعرج، فاجعة اللّيلة السابعة بعد الألف، ج 1، ص 8). إنّ المعالجة البيانية لهذا التعبير، تنسجم واتجاه دلالتها المباشرة والملموسة، حيث يُعبّر المؤلف – هنا – عن وجهة نظره بطريقة مكافئة لمادة الكلمة الملموسة في حدودها الإدراكية والفنية. فالبشير الموريسكي عاد من الكهف، ثم اندهش لما سمعه من أفواه القوالين، وهنا تُحدّد الكلمة المباشرة عن طريق وظيفتي الإخبار والوصف، ثم التّأكيد كمرحلة فاصلة تجعل من الكلمة المباشرة للمؤلف "معبّرة، وقوية، وقوية

وأنيقة من زاوية وظيفتها المباشرة والملموسة، وأن تعني شيئا ما، وتعبّر عن شيء ما، وأن تُخبر بشيء ما." (ميخائيل باختين، شعرية دوستوفسكي، ص 273).

وإلى جانب كلمة المؤلف المباشرة والموجّهة توجيها ملموسا، نجد شكلا آخر من أشكال الكلمة التي تُعرف بالموضوعية أو **الكلمة المصوّرة** التي لها دلالة ملموسة ومباشرة، غير أنّ ذلك لا يجعلها في مستوى واحد من كلام المؤلف، بل تفصله عنه مسافة ما، ومن ذلك ما جاء في هذه الفقرة :

"سلاما أيتها الدنيا الغالية التي صارت ذاكرة.....

سلاما أيها البحر المنسي في قلوبنا.....

سلاما أيها الموج، لقد كنت سيّد الشهداء المحبين، وألفة للهاربين من موت الجوع والرمال. سلاما، فملحك لا يخون إلا الخائنين." (واسيني الأعرج، فاجعة الليلة السابعة بعد الألف، ج2، ص 249).

إنّ كلمة البطل المباشرة تعالَج بالضّبط، على اعتبارها كلمة غيرية، أي بوصفها كلمة تعود إلى شخصية حُدّدت بطريقة وصفية أو نموذجية، تدخل في إطار فهم المؤلف. غير أنّ درجة موضوعية كلمة البطل المعبّر عنها، يمكن أن تكون متباينة إذ "العلاقة المتبادلة بين كلام المؤلف وكلام البطل، يبدأ بالاقتراب من العلاقة المتبادلة بين نوعين اثنين من الردود داخل الحوار، وذلك قياسا إلى تقوية التّوجه الملموس والمباشر الخاص بكلمات البطل، وإلى التقليل من موضوعيتها بما يتناسب وتلك التّقوية." (ميخائيل باختين، شعرية دوستوفسكي، ص 274). هذا، وقد تتداخل كلمة المؤلف مع الكلمة الموضوعية للبطل، ولكن ليس على وجه التّطابق: "مدّ البشير الموريسكي يده إلى التربة، حمل حفنة منها ثم مسّد بها على وجهه الحزين. أينك أيها الحنين !!! أينك أيها الوطن الذي يسرق ويباد ويغتصب ألف مرة ومرة بين الإغفاءة والإغفاءة. هل بقي شيء يستحق الذكر، يتجاوز سحر هذه التربة ونبلها الذي لا يفنى." (واسيني الأعرج، فاجعة الليلة السابعة بعد الألف، ج2، ص 253). إنّ هذه الخصوصية، وتلك المسافة التي يبتعد بها الكاتب عن أقوال البطل أو يقترب، يمكنها أن تقدّم بدرجات وسمات مختلفة. ومهما يكن فإنّ ذلك المنظور

وتلك الرؤية للعالم الخاصين بالآخرين، يقودهما الكاتب ويوجّههما بسبب إنتاجيتهما وقدرتهما على إظهار موضوع التّشخيص بشكل جديد.

إضافة إلى ما ذكرناه، يمكننا أن نضيف شكلا جديدا لإدخال وتنظيم التّعدد اللّساني في الرواية، ويتعلّق الأمر **بأقوال الشخصيات** التي تُعتبر بصورة أو بأخرى "أقوال الآخرين في لغة أجنبية، تستطيع أن تكسر نوايا الكاتب وأن تكون بالنسبة له إلى حدّ ما، بمثابة لغة ثانية" (ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ص 74). وسنتوقف هنا عند بعض الأمثلة من التّعدد اللساني الخاص بأقوال الشخصيات المتناثرة في رواية الفاجعة: "كانت ملامح الليلة السابعة قد بدأت بدون أن أعلم بها. وقد استمرت لوحدها ثلاثة قرون وتسع سنوات بالتمام والكمال في التقويم الهلالي في الحقيقة لست متيقنا أني نمت في الزمن الذي تلا خروجي من الصراط المستقيم، لأن ما حدث لي، وما رأيته كان حقيقة." (واسيني الأعرج، فاجعة الليلة السابعة بعد الألف، ج2، ص 248). إنّ هذا القول المنسوب إلى الشخصية المركزية، يمثّل شكلا من أشكال الخطاب المباشر، المدرج ضمن سياق الكاتب الذي يُحدّد دور الشخصية باعتبارها عامل تنضيد تراتبي للغة الرّواية، ولإدخال التّعدد الصّوتي الذي يسمح بالتلاؤم عضويا وتناسقيا بين المونولوج الداخلي للشخصية وبين سياق الكاتب: "من علّمك أن تصدق أنّ ما حدث كان مُجرد وهم كما رواه لك فيما بعد أصدقاء الحكيم. لقد رأيت كل شيء بعيونك المتعبة، بعيونك لتي يأكلها الدّود كما كان دائما يقسم الغرناطيون، لقد لمسته بقلبك، عشته حتى الألم، هو بكل قسماته ووجهه الخمري المشعشع مثل وجوه الأنبياء." (واسيني الأعرج، فاجعة الليلة السابعة بعد الألف، ج1، ص 17). ويواصل واسيني عرض الحوارات الداخلية للشخصية، فيقول على لسان البطل في مونولوج داخلي، يُقيم حوارا خاصا بالرواية داخل بنيات لها مظهر مونولوجي: "يا الله، هل أُصدق أم أضرب رأسي على أقرب جدار من هذا الكهف الذي طُلي بالتربة الحمراء وكأنّه بقايا مدينة رومانية ؟؟؟ يبدو أني قضيت أكثر من ثلاثة قرون مدفونا تحت الأرض ويحاول إقناعي بقصص كان يحكيها أزلام محمد الصغير." (واسيني الأعرج فاجعة الليلة السابعة بعد الألف، ج1، ص 65).

ولمّا كان إدخال تنوّع وتعدّد الأصوات داخل الرواية، يتم – أساسا – عن طريق خطابات الشخوص ومن خلال حواراتها، فإنّ هذا التعدد اللساني الاجتماعي، يكون أيضا متناثرا داخل خطاب الكاتب وحول الشخصيات في تحديد زوايا النّظر المختلفة والمحدّدة للمنطق الخاص بها، والتي تنتمي إلى أكثر من بيئة وطبقة وزمان. وانطلاقا من هذا الأساس، وبعد معاينتنا لمختلف أوجه التّعدد الصوتي المُدرج في رواية فاجعة الليلة السابعة بعد الألف، يمكننا أن نُقسّم الأصوات في نقاط أساس على النّحو الآتي:

– أ / : **البشير الموريسكي:** بوصفه ساردا أساسيا وناظما داخل حكائي، يُمثّل صوت الذّاكرة المغتصبة من قبل محاكم التّفتيش المقدّسة، وصوت سرد الحقيقة كما هي، لا كما دونتها أقلام المؤرخين واحتوتها كتب التاريخ المُزيّفة، يقول الرّاوي: "ليكن. لو يعاد التاريخ ألف مرة إلى الوراء، وهو لن يعود أبدا حتى ولو شاء النّاس، لن أكون إلاّ البشير الموريسكي المليء بالحنين والمتحرّق على إلى الحقيقة التي عُدت من أجل استعادتها، أو خسران نفسي ثانية." (واسيني الأعرج، فاجعة الليلة السابعة بعد الألف، ج2، ص 327).

– ب /: **شهريار حاكم مملكة نوميدا – أمدوكال:** يُمثّل صوت الانهزام والضّعف وحب الالتصاق بكرسي الحكم، وهو عيّنة عن حكّام اليوم بمنطقهم الميكافيلي وأنانيتهم المفرطة في حبّ الذّات وقهر الآخر. يقول الموريسكي واصفا إياه: "تعلّم من أجداده كل أساليب القتل والتّعذيب، وحتى عندما فرّ فيما بعد بزمن طويل، واجهه ابنه بالسّكين، كان وزيره المخلوع الطاووس بن أمّه، أوّل من اندفع باتجاه دهاليز القصر والمخازن، فوجدها مملوءة بالجثث." (واسيني الأعرج، فاجعة الليلة السابعة بعد الألف، ج 1، ص 220). كما يُمكن أن يُمثّل – إضافة إلى ذلك – صوت السّذاجة والبلادة والغباء، فبعد أن انتظر طويلا دنيا زاد لسرد نهاية الحكاية، ثمّ التخلّص منها، اعتقادا منه بنجاح خطّته، يتفاجئ بخطّة موازية تُنفّذها دنيا زاد ببراعة فائقة، وبإيعاز من الأصدقاء الأجانب، يتقدّمهم الابن قمر الزمان (ابن المؤرخ): "كان الزّمن يمرّ بسرعة، رأى وجوها مُظلمة من كل الجهات، حين رأى الباب مفتوحا، ركض باتجاهه مُغمض العينين، وهو يتمنى عندما يفتحهما

يجد كلّ شيء قد انتهى. مجرّد حلم، مجرّد كابوس ؟؟ !! .. مُزعج، وعندما وصل على الباب وقبل أن يفتح عينيه وجد الكفّان يقف امامه وجها لوجه، وقبل أن يدفعه ليخلي له المكان، كان الكفان قد أدخل نصله الطويل في صدره حتى تكسّرت شفرة الرأس على الحائط المقابل." (واسيني الأعرج، فاجعة الليلة السابعة بعد الألف ج2، ص 461 – 462).

– ج /: **دنيا زاد:** تُمثّل صوت الدّهاء والمكر واستعمال الحيل المتنوعة للوصول إلى هدفها، وسيلتها – في ذلك – اللّعبة اللّغوية والتّشويق، مع استخدام الإغراء الجنسي، وقد وصلت إلى تحقيق برنامجها وبأقل الخسائر: " أرجوك توقفي يا دنيا زاد. أشعر بالتّعب والحرقة. قالها ثم مدّ يده باتجاه نهديها النّافرين من تحت لباس النّوم الفضفاض، واليد الأخرى زحلقها باتجاه فخذيها، وحاول أن يقبلها على ظهرها، طاوعته في البداية ن ثمّ فجأة امتقع لونه، وكأنّ خيطا من الموت ملأ عينه. مدّ يده تحت الوسادة، دفعته بقوة ونهضت من مكانها. أعرفك يا ملكي العزيز، لم تجد السّكين الحادة من الجهتين لقطع رأسي، شفت، دائما تأتي متأخرا، حتى في لحظات يقينك لن تجده، هو عند غيرك يا سيدي !!؟؟." (واسيني الأعرج فاجعة الليلة السابعة بعد الألف، ج2، ص 458).

– ج /: **ماريانة، ماريوشة:** تمثلان صوت الحنين والتّأييد والمساندة في رحلة وعذابات البشير الموريسكي الذي يقول:

"ايه يا لالة ماريوشة !!

آه يا خويا المجدوب، القلب ممتلئ

يا الله، انتبهت إلى ملامحها، كلّ ما فيها يوحي أنّها غجرية هربت من الطّقوس المغلقة إلى أفق لا تحدّه لا أرض ولا سماء، جاءت إلى هنا بعد أن تركت حبّها وحياتها الأولى وأصدقاءها، بينها وبين ماريانة شبه الدّم والنّجوم، شبه رغوة الولادة عندما تقف في الحلق، شبه اللحظة الفاصلة بين الموت والحياة." (واسيني الأعرج، فاجعة الليلة السابعة بعد الألف، ج 1، ص 205).

– د / : **عبد الرحمن المجدوب:** ينطق بلغة التّصوف وأسطرة المحكي، ويُعدّ بمثابة صوت الذّاكرة الجماعية الذي يضفي طابع الأسطورة على الوقائع والأحداث

والعلائق، يُسميه السّارد 'آخر الوراقين'، جاء على لسان الرّاعي ما يلي: "بإمكانك أيها الفاضل أن تتعرّف على ما تبقى من قصتك عندهم، وعند آخر الوراقين ... الرّجل الفذ والطيّب سيدي عبد الرحمن المجدوب، يملأ الأسواق والدّنيا بوهجك وحضورك، إنّه يروي كلّ شيء يتعلّق بقصتك." (واسيني الأعرج، فاجعة الليلة السابعة بعد الألف، ج 1، ص 66).

– هـ / : **العلماء السّبعة:** يُمثّلون صوت الحكمة والتّريث والدّفاع عن المدينة وأهلها إلى آخر نفس، انتظروا طويلا طهور الموريسكي لمعرفة نهاية القصة والانطلاق لدكّ الجملكية وأذنابها. يقول أصغرهم: "أبقي شيء في القصة يا سيدي لم يُحك بعد ؟؟؟

العذاب الكبير لم يُقل بعد، لم نتعلّم من صنعة الأسواق والقوالة إلاّ الصدق، حتى عندما يقف هذا الصّدق ضدّنا. أنهكناك أيّها الرّجل الطيب. اعذرنا، فقد انتظرناك طويلا، نحن نعرف جزءا كبيرا من نهاية القصة، نعرفها بالإحساس أو كما رواها الأولون من ذوي الحكمة والرّزانة والوفاء." (واسيني الأعرج، فاجعة الليلة السابعة بعد الألف، ج 1، ص 118).

- و/ : **الأصدقاء الأجانب:** صوت الاستشراق المستبّد، وصوت الانتهاز والوصولية وتسلّق الآخر، بُغية المحافظة على المصالح الفردية. وصفهم الملك شهريار – في مرحلة متقدمة من سرد أحداث الرّواية – وبعد إجراء المقابلة المتلفزة بينه وبين البشير الموريسكي قائلا: "أصدقائي الشماليون (الأوروبيون) أخطأوا في تقييمهم، كنّا نريده أن يظهر مجنونا للآخرين، ولكننا ظهرنا كأننا كنّا المجانين !! لو خرجوا إلى الشارع لعرفوا الحقيقة، لكنّهم يظلون رابضين هنا بالقصر، يتأملون الصغيرة والكبيرة، أبناء الحرام، حتى هم يجب أن نقولها لا يعرفون إلاّ النّفط والذّهب." (واسيني الأعرج، فاجعة الليلة السابعة بعد الألف، ج2، ص389).

خاتمة: إنّ ما يجلب الانتباه – حقا – في رواية **الفاجعة** لواسيني الأعرج، هذا التّنوع الهائل في **أنماط** وفي **تعدّد أغراض الكلمة**، فبالإضافة إلى أنّ هذه الأنماط والأغراض تُقدّم في أكثر أشكالها التّعبيرية حدّة، تسود بوضوح الإشاعة الكاملة للحوارية في جميع عناصر العمل الأدبي دون استثناء، إذ يُشكّل هذا المبدأ اللحظة الجوهرية في خطة المؤلف، وهكذا "فإنّ مجموعة من الكلمات تكون لها يد مباشرة في الحوار الداخلي للبطل، أمّا المجموعة الأخرى فتكون بمثابة الطّاقة الكامنة، يبنيها المؤلف بطريقة حيث يكون بإمكان صوت البطل نفسه ووعيه أن يتمكّن منها، كما أنّ نبرتها لم تتقرّر مقدّما ولهذا فقد ترك لهذه النّبرة مكان حرّ." (ميخائيل باختين، شعرية دوستويفسكي، ص 374). ولهذا، فقد اتّخذ واسيني من الحوار هدفا بذاته وليس مجرد وسيلة عابرة، حيث يتخلل الحوار كل أحداث الرّواية، بل يعتبر هو الحدث نفسه.

هذا، ويمكننا أن نسجّل قيام **الحوار** في نص **الفاجعة** بأكثر من وظيفة، فإلى جانب قيامه بالعملية التواصلية بين شخصيات الرّواية والإدلاء عن أفكارها ومعتقداتها ومواقفها الحياتية، يضطلع الحوار بمهمّة صياغة أسئلة الكينونة وأسئلة الهوية والذّات، في رحلتها نحو الغير وتمثّل وقوف ال"**أنا**" في مواجهة ال"**الآخر**".

لقد قدّمت لنا معالجة هذه الرواية إمكانية إنتاجية في تقديم نص جديد، تأسّس على قاعدة استلهام النّص السردي القديم، واستعاب تمظهراته الدّالة، ثمّ إعادة هيكلتها بشكل حواري ساعد على تجسيد التّراث في الواقع، وعمل على إنجاز قراءة للموروث التّاريخي، بناء على ما يقتضيه الواقع ويتطلبه المستقبل. ولا شكّ في أنّ قيام الرواية على مبدأ التّعدد اللّساني المُدرج بأشكال مختلفة ومتنوعة، أفاد في تكثيف أنماط وأشكال الكلمة الرّوائية عند واسيني الأعرج، ممّا أدّى إلى خلق خطاب ثنائي الصوت، أفاد في تكسير التّعبير عن نوايا الكاتب داخل دائرة الوعي الإنساني المفكّر والمجال الحواري لوجود هذا الوعي بكل ما فيه من عمق وخاصّية نوعية.

قائمة المصادر والمراجع:

1 – واسيني الأعرج، فاجعة الليلة السابعة بعد الألف "رمل الماية" ج 1، المؤسسة الوطنية للكتاب 1993.

2 – واسيني الأعرج، فاجعة الليلة السابعة بعد الألف "رمل الماية" ج 2، المؤسسة الوطنية للكتاب 1993.

3 – ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع القاهرة، 1987.

4 –Mikhaïl Bakhtine , Le Marxisme et La philosophie Du langage, les éditions de minuit, paris 1977.

5 – فيصل درّاج، نظرية الرواية والرواية العربية، المركز الثقافي العربي، ط 1، 1999 .

6 – ميخائيل باختين، شعرية دوستويفسكي، ترجمة جميل نصيف التكريتي، دار توبقال للنشر 1986 .

التّصور المعرفي – السّلوكي لتأثير مشاهد العنف بالتّلفزة على سلوك الطّفل

د. عزيرو سعاد

جامعة مولود معمري تيزي–وزو

لا يولد الكائن البشري شريرا أو عنيفا وإنما البيئة والظروف التي ينمو فيها ويتفاعل معها هي التي تحدد اتجاهاته وسلوكا ته حتى العنيفة والمنحرفة منها. في كثير من الحالات يكون الدافع أو السبب وراء كل ذلك خلل في البيئة بالإضافة إلى قلة الرعاية. فقد اهتمت العلوم وعلى اختلافها، النفسية منها والاجتماعية بمسألة العنف ويبدو ذلك جليا من خلال تزايد الأبحاث والدراسات حول هذا الموضوع فقد تصدر العنف مشكلات العصر لارتباطه بأشكال الصراع الاجتماعي، حيث أنه اتخذ في القرن العشرين طابعا جديدا وقد بلغ من الوضوح في فرض نفسه كأحد ثوابت الفعل الإنساني، وهو مركب له جوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والنفسية، تعرفه كل المجتمعات على اختلافها بدرجات متفاوتة، والأسباب تكون متنوعة بتنوع المجتمعات والثقافات والمراحل التاريخية.

إن ظهور التلفزيون في العشرينات والثلاثينات جعل من هذا الصندوق العجيب السحري إحدى ضروريات المنزل وبمجرد سيطرته على أسلوب الحياة بدأت المخاوف من الآثار السلبية لهذا الاختراع الذي دخل وبقوة كل المنازل إلى درجة جعلت رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية في الستينات والسبعينات تعيين هيئات ولجان لدراسة آثار التلفيزيون خاصة العنف التلفيزيون. فأصبح التراث العلمي سواء في المكتبة العربية أو الأجنبية يزخر بالعديد من الأبحاث التي تؤكد مدى تأثير التلفزيون على الأطفال سلبا أو إيجابا، لأنه يلعب دورا مؤثرا في حياة

الأطفال، وهم أكثر الفئات مشاهدة له، نظرا لما لهذا الجهاز من جاذبية. ولذا فلم يعد الحديث عن تأثير التلفزيون على الأطفال موضع جدل أو نقاش وإنما أصبح النقاش يدور حول كم ونوعية هذا التأثير.

على هذا جاءت هذه الدراسة للبحث عن أهم الآثار التي حددتها مجمل الدراسات السابقة للتلفزيون على النمو النفسي المعرفي والاجتماعي للطفل، حيث سيتم التركيز على نظرية ألبرت باندورا في ذلك.

- **تحديد المفاهيم:**

أولا – المفهوم اللغوي للعنف: حسب اللسان العربي لابن منظور (2000) فإنه يعني: « خرق للأمر وقلة الرفق به. ويُعنف عُنْفًا وعَنَافَةٌ وأَعْنَفَهُ تعنيفًا وأعنف الأمر أخذه بشدة »[1].

ثانيا – المفهوم الاصطلاحي للعنف: يعرّفه ليستر LESTER بأنّه « قوة جسمية ترتكب ضد شخص ما مع احتمالية إصابته مثل السرقة بالإكراه والهجوم الجسدي والاغتصاب»[2].

وعرّفه آدلر ADLER بأنه: استجابة تعويضية على الإحساس بالنقص أو الضعف.

ويعرّفه بارون BARON (1977) بأنه: صورة من صور العدوان، بين أفراد ينتمون إلى جماعات مختلفة، ويحكم هذا العدوان أشكال التنافس والصراع بين هذه ويعرّفه بيار فوت PIERRE FOUT بأنه: ضغط جسدي معنوي ذو طابع فردي أو جماعي ينزله الإنسان بالإنسان[3].

ثالثا – تحديد مفهوم التلفزيون: يتكون من كلمة تلي (Télé) ومعناها؛ البعيد والثانية فزيون (Vission) ومعناها؛ الرؤيا، أي الرؤيا من بعيد.

وقد عرّفت الباحثة خوري (1997) التلفزة بأنها انتقال الصورة بواسطة الكابل بعد تحويلها إلى موجات راديو كهربائية، بحيث يمكن التقاطها تباعا على الشاشة أو على شريط فيديو، لكي يعرض لاحقا على شاشة التلفزيون

- **أشكال العنف:**

1 - العنف الفردي: هنا يكون العنف منتوجًا فرديًا ينتجه الفاعل ومرتكب العنف يتميز بصفات معينة تجعله كثيرا ما يميل إلى العنف كلما سمحت له الظروف بمثل هذا السلوك، والأشخاص الذين يميلون إلى هذا السلوك ينقسمون إلى:

أ – المتطرفون: هم الأشخاص الذين يتخذون العنف وسيلة لتحقيق أهدافهم في هذه الحياة.

ب – فئة الخلق المتسلط: ويتصفون بنمط شخصية "سادي مازوشي" وهم معجبون بالسلطة ويريدون الإخضاع لها، ومن هذه الفئة الانتحاريون

2 - العنف الجماعي: إنّ العنف الجماعي هو عكس العنف الفردي، تنمو الدافعية إليه من خلال تفاعل العديد من العوامل التالية:

- إحباط الآمال الناتج عن الصراع من أجل الحقوق المدنية.
- امتلاء المحيط بعناصر قبول العنف وتشجيعه.
- الشعور بالإحباط من جراء الفشل في تغيير أو تحريك النظام العام.
- وجود مزاج جديد خاصة لدى الشباب، وبالشعور باحترام الذات، الشعور بالاعتزاز القومي أو السلالي.
- فقدان الهوية حيث يجد المريض ذاته من خلال أعمال العنف إذا فشل في إيجادها بطريقة أخرى ومنه العنف الإرهابي[4].

3 – العنف العدائي Aggressive violence: وهو ذاك الذي ينشأ عن الغضب غالبا أو نتيجة له، وهدفه إيقاع الأذى والتعذيب والإيلام[5].

4 – العنف الوسيلي Istrumental: وفيه يكون الإيذاء وسيلة للحصول على بعض المكاسب أو المنافع أو تحقيق أهداف غير عنيفة.

أ – **العنف الجسدي:** هو: استخدام القوّة الجسدية بشكل متعمد اتجاه الآخرين من كالحرق أو الكي بالنار، الرفس بالأرجل، الخنق، الضرب بالأيدي أو الأدوات دفع الشخص، اللطمات، الركلات... وذلك حتّى الموت.

ب – العنف النفسي: قد يتم من خلال القيام بعمل أو الامتناع عن القيام بعمل لجعل طفل مؤذي مما يؤثر على وظائفه السلوكية، الوجدانية، الذهنية والجسدية صراخ، سلوكيات تلاعبية وغير واضحة أو تذنيب الطفل كمتهم، لا مبالاة وعدم الاكتراث بالطفل، فرض الآراء على الطفل.

جـ – العنف الجنسي: أو الاستغلال الجنسي، ويقصد به:

- كشف الأعضاء التناسلية.
- إزالة الملابس والثياب.
- ملامسة أو ملاطفة جنسية.
- تعريضه لصورة جنسية أو أفلام.
- اغتصاب.

د – العنف الكلامي: يقف عند حدود الكلام فقط، ويتميّز بالتشاتم وهو الكلام البذيء.

هـ – العنف الرمزي: يتخذ هذا النوع سلوكًا يرمز إلى احتقار الآخر أو توجيه الانتباه للإهانة.

– أسباب العنف: للعنف أسباب كثيرة ومصادر مختلفة من أهمها:

1 – الأسرة: تعتبر الأسرة الخلية الأساسية التي تبنى فيها شخصيات المجتمع والتي تبدأ من قبل الولادة (المرحلة الجنينية) وتستمر إلى نهاية الحياة. وكما يقال إذا صلحت الأسرة صلح المجتمع وإذا فسدت الأسرة فسد المجتمع. وكذا تعرض الفرد في سن مبكرة إلى الحرمان وإلى مختلف الإحباط التي تجعل تصرفاته مراقبة ومكتومة، وكلّ هذه الضغوطات تشكل جوًّا تسوء فيه العلاقات بين أفراد العائلة وتصبح الحياة اليومية للزوجين كلّها عراك وشجار، إذ لا مكان للاتصال في الخلية

العائلية. وهذا كله له تأثير مباشر على الأطفال إذ قد يدفعهم بالتالي إلى تصرفات مشحونة بالعنف، فكما أنّه يتم تلقين الطفل طريقة الكلام والأكل واللباس وغيره من طرف الأولياء كذلك يتم تلقينه العنف بشكل تلقائي لاشعوري في ممارسة هذه التعليمات التربوية والتي توصف بالإجبارية. فمن المعروف أنّ الأولياء الذين يتميّزون بشدّة الغضب حتمًا تكون معاملتهم للأطفال سيئة.

وما أكدّته دراسات اليونيسيف سنة (2004) في تقريرها السنوي الصادر في (2006) تحت عنوان "المقصوّن، والمحجوبون" إلى أن حوالي أربعة ملايين طفل يتعرضون لنوع من أنواع العنف وسوء المعاملة، وأن حوالي 65% منهم يتعرضون له داخل نطاق الأسرة، بحيث يصدر عن الأشخاص المسؤولين عن رعايتهم والحفاظ على سلامتهم، كالآباء والأمهات، والخادمات... الخ[6].

- **العنف في الأسرة الجزائرية:** في إحدى التحرّيات التي قامت بها الإدارة العامة للأمن (DGSN) في الجزائر، أظهرت أن كلّ عام يعاني حوالي عشرة آلاف طفل من مختلف أشكال العنف التي يمكن أن تنحصر في العنف الجسدي العنف النفسي والعنف الجنسي، وكذا النبذ والإهمال. وخلال الأشهر الأربعة الأولى من سنة (2007)، سجّلت الشرطة الوطنية ما يقدّر بـــ 516 قاصر، كانوا ضحية للعنف، منهم 111 تعرّضوا لجروح عمدية، و115 كانوا ضحية للعنف الجنسي و12 منهم تمّ اختطافهم و08 قاصرين قُتُلوا و10 أُعتدي عليهم أما 35 منهم قتلوا جرّاء حوادث طرقات وقد أظهرت كذلك أنّ الوالدين هم أوّل طرف يستخدم سوء المعاملة والعنف بنسبة 82،76%، وهنا وجد أن الأب يحتلّ المكانة الأولى بـــ 9،40% متبوعا بالأم بـــ 5،19% ثمّ كلا الوالدين بـــ 17،17%، أمّا باقي أعضاء الأسرة فيحتلّون المكانة الثانية بـــ 07،17% وأن المعلّمين يحتلون المركز الأخير وهذه النتائج تتمثّل في كلّ أشكال العنف إلاّ ما يتعلّق بالعنف الجنسي، الذي يتعرّض له الطفل من طرف أعضاء آخرين من أسرته بنسبة 55،55% من الحالات. ومن طرف الأب بنسبة 44،44%[4].

2 – التلفزيون والعنف: قراءاتنا لبعض الكتب في هذا المجال تؤكّد لنا أنّ التلفزيون هام جدًا، فهو قد يبني العقول وقد يهدمها، خاصّة بعدما أصبح يشارك الأم والأب في مسؤولية إعداد الأطفال وفي تربيتهم، وأنّ العنف لا يورّث فإنّه إذًا سلوك مكتسب، يتعلّمه الفرد أو يعايشه من خلال حياته وبخاصة في مرحلة الطفولة، وإذا مورس عليه سابقًا، وفي المراحل الأولى من حياته. فهو في الغالب سيمارسه لاحقًا مع غيره من الناس، وحتّى مع عناصر الطبيعة نباتًا كانت أو حيوانًا.

لقد أصبحت وسائل الإعلام من بين أهم مدارس التنشئة الاجتماعية. ويعتبر التلفزيون من أخطرها فهو الوسيلة الترفيهية التي لا تكاد يخلو منها بيت في مجتمعنا، كما أن الطفل يبدأ الانتباه إليه منذ إدراكه للصوت والصورة. إنّ أسوء ما تحدثه وسائل الإعلام وبالخصوص التلفزيون هو إضعاف الحساسية تجاه العنف وهو الأمر الذي يؤدي إلى تحجر العواطف مقابل هذه الظاهرة، وتبقى المشكلة الكبيرة في تعدد القنوات التلفزيونية الفضائية، بحيث أصبحت الأسرة فاقدة للسيطرة على كل ما يرسل من هذه الفضائيات.

والمشكلة مع التلفزيون أنها تحدث في سياق عملية التكوين العقلي المعرفي عند الطفل بحيث أن المخ يكون في مرحلة انتقال من حالته الأصلية غير المتخصصة إلى حالة النضج من خلال عمل النصف الأيمن والأيسر، وعندما تعان هذه المرحلة من التطور المرغوب من خلال انغماس الطفل في نشاط مكرر مستهلك للوقت غير لفظي، بل مرئي منظور بالدرجة الأولى، فإنّ هذا يكفل إثارة شديدة جدا، للجانب الأيمن للمخ فجانب المرئيات والحركيات) وهذا ما يجعل الجانب الأيسر يركز على السكون والتجميد[5].

وفي كتاب لـــ "**روبرت ماك لفين ورشارد غروس Richard GROUS MAC LYVING**" أشارا إلى أنّ الباحثين يعتمدون في حسابهم لكمية العنف الذي يظهر في شاشة التلفزيون. ولعلّ أكبر دراسة أمريكية أجريت لتقدير العنف المتلفز

هي دراسة هانتز بنز Hantz BINZ وزملاؤه إذ قام هؤلاء بمراقبة عينات من برامج شبكات التلفزيون الرئيسية في و.م.أ منذ (1967) فوجد هؤلاء الباحثون أن نسبة العروض التي تتضمن مشاهد العنف لم تتغير منذ ذلك الحين إلاّ أنّ مشاهد العنف في الفيلم الواحد تزايدت بالتدريج. وفي عام (1971) أورد "هانتز بنز" تقريرًا يشير فيه إلى أنّ فترة البثّ التلفزيوني الرئيسية تتضمن خمسة أفعال عدوانية في الساعة، هذا، وأشار أيضًا إلى أنّ الأفلام الموجّهة للأطفال في عطلة نهاية الأسبوع وغالبيتها من أفلام الكرتون، تتضمّن (201) فعلا عدوانيًا في الساعة تقريبًا. ومن اللافت للانتباه أنه رغم اتفاق شبكات التلفزيون الرئيسية على الحدّ من كمية العنف التي تعرض في أفلام الكرتون، إلاّ أن "كريمر KRIMAR" و"ميشام MECHAM" لاحظا في هذه الأفلام شيئًا من التزايد في الواقع، وتشير التقديرات إلى أنّ المشاهدة الصغيرة تشاهد خلال سنوات عمرها المبكّر 13 ألف جريمة قتل في التلفزيون، وربما يرون نسبة لا بأس بها من هذه الجرائم في فيلم (رومبو) لـــ"سلفستر ستالون" الذي يتضمن 245 مشهد عنفٍ، و23 حادث قتل.

– وفي إطار التأثير السلبي للتلفزيون على الأطفال تأتي عملية إبعاده عن اللعب، ففي إحدى الدراسات الصحية بالولايات المتحدة الأمريكية حول التلفزيون والسلوك الاجتماعي أجابت 90% من الأمهات بأنّ أطفالهن كانوا سيلعبون بصورة أو بأخرى في حالة عدم مشاهدتهم للتلفزيون(7).

من بين أهم النظريات التي تناولت بالتفصيل الآثار السلبية للتلفزيون نجد "نظرية التعلم الاجتماعي" للباحث ألبرت باندورا **A. BANDURA** وهي من أكثر النظريات المستخدمة في دراسة تأثيرات وسائل الإعلام، حسب هذا الباحث أغلبية السلوكات الإنسانية هي سلوكات متعلمة بالملاحظة عن طريق ما نسميه بالنمذجة Le modling، فمن خلال ملاحظة الغير يكوّن الفرد فكرة عن طريقة تكوين سلوكات أخرى، وأنّ مثل هذه المعلومات تستعمل فيما بعد كأنماط لسلوك أو فعل ما. فعندما يتعرض الفرد لمختلف النماذج يكتسب تصورات رمزية خاصة

بنشاطات المنمذجة، والتي ستستعمل هي الأخرى كأنماط لتوجيه السلوك اللاحق وتعد نظرية الإدراك أو التعلم الاجتماعي (Social cognitive theory) في الستينات لباندور ومساعديه من أهم النظريات التي تفسر التأثيرات السلوكية للعنف التلفزيوني لدى المشاهدين لصاحبها، بحيث تناولت. – آثار إعلام العنف والجريمة والمواد الجنسية الفاضحة – والآثار الإعلامية الإيجابية أو الاجتماعية – آثار الثقافة والإغراء... وقد اعتمد الباحث باندورا في ذلك التعرض للسمات الإدراكية للإنسان التي تميزه عن الحيوان كسمات بشرية فردية[8]، وخص بها العناصر التالية:

أ – القدرة على الترميز Symbolezing capacity وهي الرموز التي يستعملها الإنسان وحده بخلاف كلّ الكائنات الحية الأخرى لتكوين الكلمات وتستخدم كرموز لموضوعات أو أفكار معينة وهي اللغة وهذه القدرة على فهم واستخدام هذه الرموز تسمح للإنسان بتخزين وبلورة وتحويل التجارب التي تتم ملاحظتها إلى نماذج إدراكية تسير أفعاله وقراراته.

ب – القدرة على التنظيم الذاتي Self Regulatory capacity: وتعني القدرة على التنظيم الذاتي، وأنّ الناس لديهم المقدرة على تحفيز أنفسهم لتحقيق أهداف معينة

جـ – القدرة على التأمل الذاتي Self Reflective capacity: وهي قدرة الشخص على ممارسة ضبط النفس لتثبيت سلامة التفكير وللوصول لهذه القدرة ذكر باندورا أربعة (04) أنواع مختلفة من التأمل الذاتي يستعمل من أجل التحقق من التفكير:

القدرة على ممارسة ضبط النفس ليس لتثبيت سلامة أفكارها، وقد ذكر Bandura 04 أنواع من التأمل الذاتي:

1 – التأمل التوافقي: ⇐ التوفيق بين الأفكار والنتائج في الأفعال.

2 – التأمل التقمصي: ⇐ ملاحظة تجارب الآخرين لتثبيت أو نفي أفكاره.

3 – التأمل الترغيبي: ⇐الإعلان يرغّب ويؤثر في أسلوب الترغيب.

4 – التأمل المنطقي: ⇐ التحقق باستخدام القواعد السابق اكتسابها حول القياس.

د – القدرة على التقمصية Vicarious capacity: وهي القدرة على التعلم من تجربة غير مباشرة. سواء للأسوأ أو للأفضل.

هـ – القدرة على التعليم والاقتناع بالمشاهدة: وهي التعلم بالمشاهدة والتي تعتمد على ما يسميه باندورا بالاقتداء (Modeling) وهي إعادة أداء السلوك والذي بدوره يعتمد على أربع 04 عناصر مهمة هي: الانتباه (Attention) الحفظ (Retention)، الاستعادة الحركية الرمزية (Motor reproduction)، الدافعية (Motivation) [9].

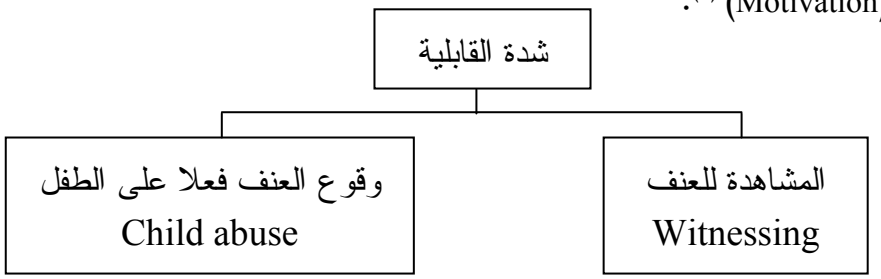

وأنّ أكثر ما نجحت فيه القنوات التلفزيونية بدرجة كبيرة هي استعمالها الوسائل اللفظية وغير اللفظية كوسيلة مرئية متحركة ملونة تتمتع بكل الإبهار والإمتاع في تقديم الأفكار والمعتقدات، والصور المرئية المشحونة باستجابات عاطفية وانفعالية خاصة إذا كان المتلقي مراهقا لأن من أهم خصائص نموه سرعة الانفعال وشدة العاطفة.

خطوات التعلم بالملاحظة حسب باندورا

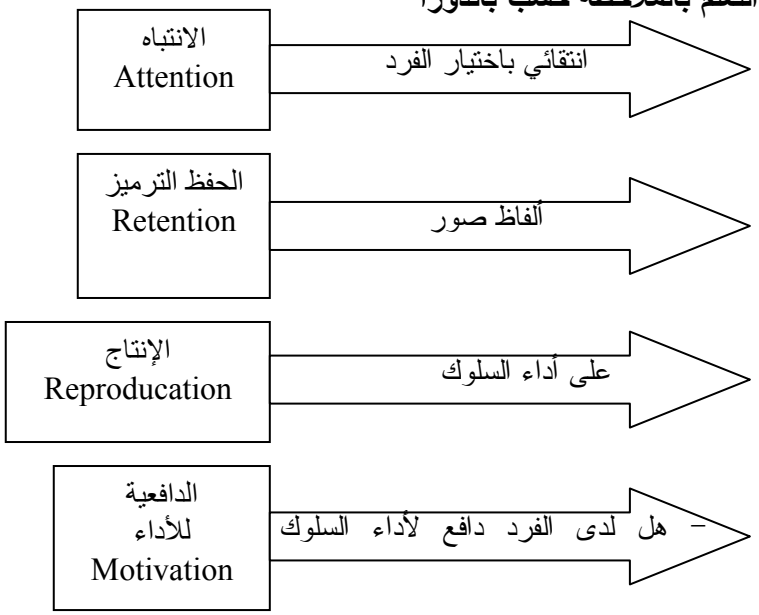

وبوجود مجموعة من الظروف يكون السلوك عنيفا لا محالة، من أهمها:

1 – السن، كلما كان العمر متقدما كان الطفل قدرة على حماية نفسه.

2 – الجنس، الذكور أكثر قابلية للسلوك العنيف من الإناث (ارتباط هرمون الجنس الذكري بمزيد من العدوان).

3 – المزاج، حدة المزاج ترتبط بالعنف.

4 – الذكاء، فالأغبياء يرتكبون أخطاءً تجلب لهم الضرب.

5 – الموافقة العقلية أو المعرفية.

بعض الدراسات التي تناولت أثر وسائل الإعلام في العنف عند الطفل:

دراسة **CONTADOR (2001)** حول إدراك الطلاب للعنف المشاهد في وسائل الإعلام على عينة قدرت بـــ584، وأوضحت النتائج أن الطلاب الأكبر سنا والإناث أقل عنفا من الطلاب الأصغر سنا والذكور[10].

دراسة **KIEWTZ and WAVER (2001)** جاءت للبحث عن آثار قصيرة المدى للتعرض للعنف في وسائل الإعلام وعلاقتها ببعض السمات الشخصية منها

سمة العدوان وسمة المسؤولية عن المواقف، على عينة تمثلت في 268 فرد، وقد أوضحت النتائج أن مرتفعي سمة العدوانية لديهم اتجاهات أكثر عدائية.

دراسة **DARWICH (2001)**، دراسة **YOUNS (2002)** ودراسة **MEYERS (2002)** هذه الأخيرة التي جاءت تبحث عن الآثار الناجمة عن ألعاب الفيديو العنيفة وبرامج التلفزيون العنيفة على أفكار وسلوك الأطفال في الصف الثالث إلى السادس، وخلصت النتائج إلى أنّ الأطفال الذين يتعرضون لمشاهدة العنف بوسائل الإعلام ترتفع لديهم مستويات السلوك العدواني عن غيرهم ممن لا يشاهدون العنف، كما أوضحت النتائج أيضًا أن هناك ارتفاع لمستويات العنف لدى الأطفال في الصف السادس، مما يشير إلى وجود فروق لصالح الأطفال الأكبر سنا في مستويات العنف في الجانب اللفظي للعدوان، في حين كان الأطفال الأصغر سنا أكثر عدوانية تجاه الجانب الفعلي في الألعاب[11].

دراسة **HARPERS (2003)** ودراسة **MARCHALL (2004)** ودراسة **KIM (2004)** للتعرف على العلاقة بين التعرض للعنف المشاهد في وسائل الإعلام وسلوك الشغب والعنف في المدارس، والتعرف على العوامل والمؤثرات المتداخلة في هذه العلاقة مثل الغضب وإقامة العلاقات أو الصداقات مع الأصدقاء المنحرفين، بحيث تكونت عينة البحث من 560 طالبا كوريا، وأوضحت النتائج أن التعرض لمشاهد العنف في وسائل الإعلام يرتبط ارتباطا مباشرا بسلوك الشغب والعنف في المدارس، كما أوضحت أن الغضب وإقامة الصداقات مع الأصدقاء المنحرفين تتداخل في هذه العلاقة[12].

دراسة **KRONENBERGER (2005)** ودراسة **BROWN and HAMILTON (2005)** التي تناولت أثر برامج الإعلام العنيفة على الأطفال والمراهقين، بعدما أن تناولت مراجعة تحليلية للدراسات التي تناولت هذه العلاقة من مشاهد العنف في التلفزيون والأفلام وألعاب الفيديو وألعاب الكمبيوتر، أنّ لها آثار بصيرة المدى على إثارة الأفكار والانفعالات وزيادة السلوكات العدوانية[13].

دراسة أماني ولارا حسين (2008): في المجلس الوطني لشؤون الأسرة في الأردن حول البرامج الموجهة الأطفال العرب بحيث حذرت الدراسة من آثار العنف المتلفز على شخصية الأطفال ومستقبلهم وقد وجدتا أن معدل المشاهد التي يتعرض لها الطفل ما بين السابعة والتاسعة من العمر هي خمسة مشاهد في الساعة الواحدة (أي أن طفل عمره 11 سنة قد تعرض ل:20 ألف مشهد قتل واعتداء أو موت)، والنتائج المترتبة هي تقليل الحساسية عند الطفل بألم الآخرين مع ازدياد الاستعداد لارتكاب التصرفات المؤذية.

خلاصة

عموما يمكن تلخيص الآثار السلبية للعنف الذي يشاهده الأطفال عبر وسائل الإعلام فيما يلي:

– يصبح العنف جزءا من سلوك الأطفال عندما يشاهدونه باستمرار فيوقعون العنف على غيرهم دونما تردد.

– تقل أو تنعدم حساسية الأطفال ضد الإيذاء والضرر الناجم عن العنف، إذ أنّ العنف يصور بعض الأحيان ضمن أطر اعتيادية أو كوميدية.

– ينشأ الأطفال في حالة من الخوف والقلق النفسي المستمر، خشية التعرض للعنف ويوثر هذا على صحتهم النفسية وقدرتهم على النمو السليم[14].

بتقديم آراء مختلفة عن ذلك منها:

الموقف الأول – يرى أنّ مشاهد العنف والإجرام في التلفزيون تلعب دورا تربويا لأنها تعلم المشاهد أن الجريمة لا تفيد وأن المجرم لا بدّ أن ينال جزائه. وقد تم نقد هؤلاء على أساس أن المجرم غالبا ما يتم معاقبته في نهاية الفلم ويكون ذلك في الدقائق القصيرة الأخيرة فقط.

الموقف الثاني – يرى أن مشاهد العنف توقظ النزعة العدوانية الكامنة عند الفرد وتنقلها من استعداد للعنف إلى عنف فعلي يمارس على الواقع، بحيث يرون أن ميل الطفل إلى الإيحاء يجعله معرضا لتقليد مشاهد العنف التي يراها في التلفزيون، فالمشاهد المتكررة الأشكال والمختلفة من العنف في التلفزيون تجعله بسبب ميله لتقليد ما يراه ضعيف الصلة بالواقع ويعيش في عالم وهمي يغريه بالمغامرة والعنف، بما في ذلك الرسوم المتحركة المليئة بمشاهد العنف.

الموقف الثالث – فهو موقف وسط بين الموقفين السابقين وهو يهون من التأثير السلبي لمشاهد العنف على اعتبار أنه لا يمكن الحديث عن هذا التأثير السلبي إلا بالنسبة للذين لديهم الاستعداد للتأثر بمشاهدة العنف بحكم ظروفهم البيئية وتنشئتهم الاجتماعية وحالتهم النفسية، وهم يؤكدون أنه لا يمكن للتلفزيون أن يجعل من الإنسان العادي الذي يعيش في وسط اجتماعي سليم إنسانا منحرفا عنيفا.

المراجع:

أولا – باللغة العربية:

1. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين (1968): "لسان العرب"، مج (2) دار صادر للطباعة والنشر، بيروت.

2. أماني تفاحة ولارا حسين (2006): مواد وبرامج الأطفال على القنوات العربية، مؤتمر الطفل العربي في مهب التأثيرات الثقافية. الإسكندرية، وحدة الطفولة، المجلس العربي للشؤون الأسرية. www.annabaa.org

3. حسين توفيق إبراهيم (1988): ظاهرة العنف السياسي في مصر، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، رسالة الماجستير جامعة القاهرة.

4. زكريا بن يحي لال (2007): "العنف في عالم متغير"، ط1، المملكة العربية السعودية،

5. عبد المنعم الميلادي (2004): "الأبعاد النفسية للطفل"، الناشر مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.

6. محمد غلاب ومحمد الدسوقي (1994): دراسة نفسية مقارنة بين المتدينين جوهريا والمتدينين ظاهريا في الاتجاه نحو العنف وبعض خصائص الشخصية مجلة دراسات نفسية، مجلد 4، العدد 3.

7. معتز سيد عبد الله (2005): "التعصب، دراسة نفسية اجتماعية"، ط 2 دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

8. نرمين زين العابدين (2004): القيم التي تعكسها الرسوم المتحركة في برامج الأطفال بالتلفزيون المصري. رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، معهد الدراسات العليا والطفولة.

9. اليونسيف (2006): المقصوون والمحجوبين، وضع الأطفال في العالم لعام 2006، ترجمة مركز السائل للترجمة، مكتب اليونسيف الإقليمي للشرق الأوسط شمال إفريقيا.

ثانيا – باللغة الأجنبية:

10. Alay, A, (2008): Effect of television violence on children, Gyanodaya: the journal of progressive education, Vol. 1, Issues: 2.

11. Browne, K and C. Hamlton Gia Chritsis (2005): The influence of violent media on children and adolescents, a public health approche, centre forensic and family psychology, school of psychology, university of Briminghan, UK, 365-702-710.

12. Chldely, J, (1996): Toxic TV, UK, London: Maclean's, 109,25.

13. Contador, M (2001) : Perception of school violence in secondary students psyche: Revesta dela Escula de pschologia, vol. 10 (1).

14. Darwish, A (2001): The effects of viewing media violence on aggressive behaviour: a theoritcale perspective. Diss.Abs.Int, vol. 62 – 11 B.

15. Edwinge, Autier, (2002): L'agressivité. Bayard, 2ème édition, Paris,

16. Graham, J. (2009) : How television viewing affects children family. Issues, university of Main, Coop. extension, bulltin N° 4100.

17. Harper, S. (2003): The effects of children from viewing violence in visual media. Diss.Abs.Int, Vol. 42-05.

18. Kronenberger, W., al (2005): Media violence exposure and excutive functioning in aggressive and control adolescents, journal of clinical psychology, vol. 61(6).

19. Lawrence, I: S Rosentotter; A Acock (2009): Television violence an intervention reduce its impact on children. Journal of applied dovelopemental psychology.

20. Mayers (1988): The sector government, the constitution crisis journal graphics, New York.

الهوامش:

1- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين (2000): "لسان العرب"، مج (2)، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، مادة (عنف).

2- محمد غلاب ومحمد الدسوقي (1994): دراسة نفسية مقارنة بين المتدينين جوهريا والمتدينين ظاهريا في الاتجاه نحو العنف وبعض خصائص الشخصية، مجلة دراسات نفسية، مجلد 4، العدد 3.

3-حسين توفيق إبراهيم، (1988): ظاهرة العنف السياسي في مصر، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، رسالة الماجستير جامعة القاهرة، ص 43.

4- المرجع نفسه.

5- Mayers (1988): The sector government, the constitution crisis journal graphics, New York, p 365 - 366.

6-يونيسيف (2006): المقصوون والمحجوبين، وضع الأطفال في العالم لعام 2006، ترجمة مركز السائل للترجمة، مكتب اليونسيف الإقليمي للشرق الأوسط، شمال إفريقيا، ص 25.

7- معتز سيد عبد الله (2005): "التعصب، دراسة نفسية اجتماعية"، ط 2، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، .

8- عبد المنعم الميلادي (2004): "الأبعاد النفسية للطفل"، الناشر مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، ص 106.

9- Edwinge, Autier, (2002): L'agressivité. Bayard, 2ème édition, Paris, p 102.

10-Contador, M (2001) : Perception of school violence in secondary students psyche: Revesta dela Escula de pschologia, vol. 10 (1): 69 – 80.

11- Darwish, A (2001): The effects of viewing media violence on aggressive behaviour: a theoritcale perspective. Diss.Abs.Int, vol. 62 – 11 B: 5368.

12- Harper, S. (2003): The effects of children from viewing violence in visual media. Diss.Abs.Int, Vol. 42-05: 1572.

13- Kronenberger, W., al (2005): Media violence exposure and excutive functioning in aggressive and control adolescents, journal of clinical psychology, vol. 61(6): 725 -737.

14- زكريا بن يحي لال (2007): "العنف في عالم متغير"، ط1، المملكة العربيـــة السعودية ص 309.

اضطرابات اللغة الشفهية لدى الأطفال ذوي صعوبات التعلم

ليندة بودينار
جامعة مولود معمري تيزي-وزو

مقدمة: تعد اللغة من أهم وسائل التواصل والتعبير عن الذات على اعتبار أنها نظام من الرموز الصوتية متفق عليه في ثقافة معينة وفق تنظيم وقواعد مضبوطة وذلك بما تحتويه من مهارات كالتحدث والاستماع، القراءة والكتابة، فهي تمثل نافذة من نوافذ المعرفة وتناقل الخبرات الحياتية عبر العصور. فاللّغة من الموضوعات المهمة والأساسية في حياة الشعوب والأمم وسمة حضارية أصيلة تعد من أهم المكونات الأساسية للروابط الاجتماعية التي من خلالها يتم تبادل الآراء والمعارف والعواطف.

ولما كانت اللغة من ضروريات التواصل اللفظي الإنساني، ومن أساسيات التفكير، كانت الاستثارة اللّغوية للطفل من قبل المدرسة عن طريق إثراء الحصيلة اللغوية، والتفاعل اللفظي يعد مدخلا وظيفيا فعالا لنموه عقلانيا ومعرفيا، ويدعم لديه الثقة بالنفس والسلوك الاستقلالي. إلاّ أن الأطفال الذين يعانون من الصعوبات التعليمية يعدون أكثر الأطفال المضطربين لغويا وخاصة اللغة المنطوقة أو الشفهية التي تعد أكثر اللغات تواصلا وتعبيرا عن الأفكار. فما هي اضطراب اللغة الشفهية لدى هؤلاء الأطفال وما هي أهم أسبابها، مظاهرها ومعظم صعوباتها؟

1.تحديد المفاهيم:

1. تعريف اللغة: هناك عدة تعاريف للغة، وكل حسب وجهة نظره قدم تعريفا مهما للغة، وسأكتفي بعرض بعضها ومنها:

* تعريف **(بلوش)** و**(تراجير)(Bloche et trager)** اللذان اعتبرا "اللغة نظام من الرموز الصوتية الاختيارية، يتعاون بواسطتها أفراد المجتمع".

* يعرفها **(أوين)(owens)** "أنها نظام محدد ومرتب من القواعد التي يفهمها ويدركها الأفراد في الكلام والاستماع والكتابة".

* أما **(ابن جني)** فيعتبر اللغة "أصواتاً يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"[1]

2 .تعريف اللغة الشفهية:تشير **(زينب شفير)** إلى أن اللغة الشفهية هي وسيلة لنقل رسالة من المصدر إلى الملتقي، ويكون هذا اللفظ منطوقا، فيدركه المستقبل بحاسة السمع".[2]

3. تعريف اضطراب اللغة الشفهية: هو عدم انتظام الوظيفة اللفظية، حيث تظهر على شكل تشويش في تكوين الجمل التلفظ أو النطق بالكلمات، فاللغة الشفوية للطفل لا توافق عمره الزمني.[3]

* أما العالمان **(إيلاتوس)** و**(فالي) (2005)** يعرفان اضطراب اللغة بأنها "مجموعة من الاضطرابات المتعلقة بتعلم اللغة والتي يمكن أن تنتج عن عوامل ثقافية بيئية، اجتماعية عائلية أو عاطفية، فهي ليست راجعة إلى التخلف العقلي أو وجود خلل في جهاز السمع أو النطق".[4]

* أما القاموس الطبي فيعرف اللغة الشفهية بأنه "اضطراب في اللغة التعبيرية ناتج عن خلل في النمو اللغوي الطبيعي للطفل، يقود إلى ضعف في القدرة الإنتاجية اللغوية العامة المتمثلة في صعوبة الحصول على كلمات جديدة وقصور في تركيب الجمل واختيار الكلمة المناسبة في المكان المناسب".[5]

4 .تعريف صعوبات التعلم: إن التعريف المتداول لصعوبات التعلم هو التعريف الذي تبنته اللجنة الاستشارية الوطنية للأطفال المعوقين في الولايات المتحدة والذي ينص على ما يلي:

* الأطفال ذوي الصعوبات التعليمية هم أولئك الأطفال الذين يعانون من اضطرابات في واحدة أو أكثر من العمليات السيكولوجية الأساسية المتضمنة في فهم واستخدام اللغة المنطوقة أو المكتوبة، وهذه الاضطرابات قد تتضح في ضعف القدرة على الاستماع أو التفكير أو التكلم، القراءة، التهجئة أو الحساب.[6]

* أما السجل الاتحادي لعام 1977 فاعتبر الصعوبات التعليمية اضطراب في واحدة أو أكثر من العمليات النفسية الأساسية الخاصة بالفهم واستخدام اللغة المحكية (اللفظية) أو المكتوبة التي قد تتجسد في قدرة غير مكتملة على الإصغاء أو التفكير أو التحدث أو القراءة، الكتابة أو إنجاز حسابات رياضية، حيث يشمل هذا المصطلح حالات من الإعاقات الإدراكية والإصابة الدماغية، القصور الوظيفي الدماغي الطفيف وصعوبات اللغة والحبسة الكلامية.[7]

وقد أعطى العالم **(كيرك) (1962)** الذي عرف أنه أول من نحت مصطلح صعوبات التعلم وأول تعريف كان ينصّ على أن صعوبات التعلم ترجع إلى عجز أو تأخر في واحدة أو أكثر من عمليات النطق اللغة، القراءة، التهجئة، الكتابة أو الحساب نتيجة خلل محتمل في وظيفة الدماغ أو اضطراب سلوكي أو انفعالي ولكنها ليست نتيجة لتخلف عقلي أو إعاقة حسية أو عوامل ثقافية أو تعليمية.[8]

* أما اللجنة الوطنية المشتركة الأمريكية فتوصلت إلى إعطاء التعريف التالي عام 1990 بعد الانتقادات الموجهة إلى التعريفات التي سبقت حيث اعتبرت صعوبات التعلم مصطلح شامل يرجع إلى مجموعة متباينة من الاضطرابات التي تعبر عن نفسها من خلال صعوبات دالة في اكتساب واستخدام مهارات الاستماع أو الكلام، القراءة أو الكتابة، الاستدلال أو العمليات الحسابية، وهذه الاضطرابات ذاتية داخلية المنشأ، التي يمكن أن تكون راجعة إلى خلل وظيفي في الجهاز العصبي المركزي، أو يمكن أن تحدث خلال حياة الفرد، كما يمكن أن تكون متلازمة مع مشكلات في الضبط الذاتي ومشكلات الإدراك والتفاعل الاجتماعي.[9]

2. بعض الدراسات التي تناولت اضطرابات اللغة الشفهية لدى الأطفال ذوي صعوبات التعلم: لقد ركزت عدة دراسات عالمية وعربية اهتماما خاصا حول اللّغة واضطراباتها بشكل كبير، بما فيها اضطرابات اللغة الشفهية عند كافة الأطفال عامة ولدى الأطفال ذوي صعوبات التعلم خاصة، فمن بين هذه الدراسات التي أولت اهتماما لهذا النوع من الاضطرابات نذكر:

* دراسة(**بيكس**) (**1999**) (**Piks**) أين قام بدراسة اضطرابات اللغة اليومية لدى عينة قوامها ثمانية (8) أطفال من ذوي صعوبات التعلم وأمهاتهم وكانت النتائج كالتالي:

* ارتباط اضطرابات اللغة لدى هذه العينة بالبيئة الأسرية، ونسبة ذكاء الأطفال وضعف القدرة على الأداء والاتصال اللفظي بين الأطفال وأمهاتهم.

أما دراسة(**كوتلاك**)(**A.Kutula**) فتوصلت إلى وجود ارتباط عسر قراءة اللغة *بالدقة والطلاقة والممارسة* اللغوية لدى عينة من ذوي صعوبات التعلم، وذلك من خلال قراءة المواد التعليمية المتعلقة باللغة.

كما أشارت دراسة أخرى للعالم (**كروجر**) (**R.Kruger**) **وآخرون** إلى بعض أنماط العلاقة بين اضطرابات اللّغة واضطرابات المعالجة السمعية المركزية لدى مجموعة مكونة من تسعة عشر (19) طفلا تتراوح أعمارهم ما بين 4 و9 أعوام من ذوي صعوبات التعلم، حيث أظهرت النتائج مايلي:

* وجود مشكلات لغوية من أصل القدرة الضعيفة على التركيز في إرسال اللغة، بالإضافة إلى المشكلات البصرية والسمعية.[10]

والملاحظ من هذه الدراسات السالفة الذكر هو تركيزها على العامل البيئي وقصور المهارات الاجتماعية لذوي صعوبات التعلم ما يؤثر على اضطرابات اللغة الشفهية لديهم بالإضافة إلى إمكانية وجود خلل فسيولوجي عصبي في الوظائف الحسية.

3. اكتساب اللغة الشفهية وصعوباتها: إن ارتقاء وتطور اللغة الشفوية تتناسب مع تطور الفرد، وبالتالي ارتقاء مستوى اللغة الشفهية لدى الطفل يتناسب مع ارتقاء مدركات ومعارف الطفل العامة، وهذا مع أن التطور اللّغوي للطفل يكون بشكل متسارع في المراحل الأولى للنمو، وهذا للأهمية الكبرى في التعبير عن حاجياته واتصاله بالعالم الخارجي، إلا أن في كثير من الأحيان نجد أطفالا يواجهون صعوبات جمة في التطور السليم في لغتهم، حيث يصعب عليهم اكتساب اللغة

بطريقة سوية، وعلى هذا النحو ظهرت عدة نظريات تفسر كيفية اكتساب اللغة الشفهية ومن بينها نجد:

* **النظريات السلوكية:** حسب أصحاب هذه النظريات تعلم أو اكتساب اللغة تكتسب عن طريق المحاكاة والتعزيز، حيث استعمل مصطلح السلوك اللفظي للتعبير عن اللغة يتعلق بالمؤثرات البيئية ومن بينهم "**سكنر**" **(Skinner)** الذي يرى أن اللغة تكتسب عن طريق المحاكاة والتعزيز، حيث استعمل مصطلح السلوك اللفظي للتعبير عن اللغة إذ أنه اعتبر تعلم هذا السلوك عند الطفل بالتقليد للأصوات التي يسمعها وبالتالي تعزيز الكبار هذه المحاولة، فحسب السلوكيون هناك عدة طرق لاكتساب اللغة منها:

- **الحث:** لما يقدم الراشد مفتاحا لفظيا للطفل.
- **النمذجة:** هنا عندما يلاحظ الطفل الوالدين وهم يتكلمون.
- **التعزيز الايجابي:** وذلك بمكافئة الراشد الطفل لمحاولاته الكلامية الناجحة.
- **التعلم التدعيمي:** أين يقدم الراشد إيحاءات متكررة في البداية مع التدرج في تقليلها لمساعدة الطفل في اكتساب اللغة، فبهذه الطرق نلاحظ أن تعلم اللغة الشفهية يرتبط بالبيئة الأسرية التي تلعب دورا وسيطا بين الطفل ولغته الشفهية.

* **النظرية الفطرية:** تعزي هذه النظرية إلى **(تشو مسكي)(Chomsky)** الذي يعتقد أن الطفل يملك قواعد فطرية تمكنه من بناء جملا مفيدة لا تحصى، هذا يعني أن الطفل خلال عملية التطور اللغوي لديه مؤهلا فطريا لأن يستنتج قواعد لإنتاج اللغة تسمح له بأن يشكل جمل وكلمات يتلفظها فالأطفال لا يتعلمون الكلمات وإنما مجموعة من القواعد القابلة للتعميم، رغم ذلك فإن الطفل يجب أن يسبق بتعلم مجموعة من الخبرات اللغوية المبدئية في صغره.[11]

* **النظريات المعرفية:** إن هذه النظريات تلقي الضوء على الرابط بين اللغة والفكر والخبرة، كما تؤكد على الأهمية البالغة للتطور المعرفي الكلي للطفل. ومن أهم رواد هذه النظريات الروسي **(فايجوتسكي)(Vygostsky)** الذي يرى أن الطفل

وحتى وهو في المهد يبدأ ببعض الأفكار السابقة على اللغة أو بقاعدة معرفية. كما يرى **(بياجي)** أن اللغة تكتسب عندما يتمثل الطفل اللغة من البيئة ثم يكيّفها وفقا لأفكاره ومعارفه، ويحدث التفاعل بين الأفكار واللغة عندما توجه عمليات التفكير أجزاء اللّغة التي سيتم تمثلها وكيفية تكييفها، وذلك ضمن القاعدة المعرفية القائمة في عقل الطفل. فهذه النظريات ترى أن التفاعلات التي تقوم بين الطفل واللغة والبيئة هي العناصر الجوهرية في اكتساب اللغة، فعندما يبدأ الأطفال باستعمال خبراتهم في توسيع معارفهم الموجودة وقواعدهم اللّغوية تتطور لديهم اللغة والمعاني تدريجيا.[12]

* **النظرية الاجتماعية:** تركز هذه النظرية على أهمية الاتصالات التي تقوم بين الأشخاص في تعلم أو اكتساب اللغة، وكذلك العلاقات المتبادلة بين الطفل ووالديه أو بيئته الأسرية، فهذه النظريات تقترح الاهتمام بالعلاقات المتبادلة بين الطفل والأشخاص الممثلين لبيئته الاجتماعية أين يؤثر كل منهما في الآخر وذلك عن طريق التواصل السليم والسوي.[13]

4.مراحل تطور اللغة الشفهية عند الطفل: تمر عملية تطور اللغة الشفهية عند الطفل بعدة مراحل حتى يتمكن من التلفظ بكلمات كاملة، وهذه المراحل تتفاوت بين الطفل وآخر حسب الفروق الفردية:

- **مرحلة الصراخ:** وهي مرحلة ما قبل الكلام التي تبدأ عند الولادة وتتميز بالصراخ أللإرادي للتعبير عن الإحساسات والانفعالات الطبيعية كالجوع والنوم.
- **مرحلة المناغاة:** التي تبدأ مع نهاية الشهر الثاني من عمر الطفل.[14]
- **مرحلة النطق:** التي تبدأ مع نهاية الشهر التاسع، وهنا يقوم الطفل بتقليد غيره في إيماءاتهم وتعبير أوجههم وتدعى هذه المرحلة بمرحلة المحاكاة أين يحتك الطفل بغيره.
- **مرحلة إعادة الأصوات:** التي تبدأ مع نهاية الشهر السادس تقريبا.

- **مرحلة النطق الحقيقي:** أين يكون الطفل جملا باستخدام الكلمات والأصوات عن قصد ينتظر من الآخرين حدوث استجابة، تبدأ هذه المرحلة عادة ما بين الشهر الثاني عشر والثامن عشر.[15]

5. أنواع اضطرابات اللغة الشفهية لدى ذوي صعوبات التعلم: إنّ النّمو اللّغوي عند الطفل يعتبر جانبا مهما من جوانب النمو، كالنمو الجسمي المعرفي والعصبي فأي اختلال في جوانب النمو لدى الطفل ينعكس سلبا على النمو اللغوي السليم، مما يسبب مشاكل في اكتساب لغة سليمة وخاصة اللّغة الشفهية التي يمكن أن تصاب بالاضطرابات التالية:

1. اضطرابات اللّغة الداخلية(التكاملية): تعتبر اللغة الداخلية من أهم وظائف اللغة والتي تبدأ مع أولى مراحل نمو الطفل، وهي من المؤشرات الهامة على النمو السليم للطفل من ناحية التفكير وقبل بداية استخدام الكلمات، فهي تظهر من خلال التصرفات والتعامل مع الأشياء.

فالأطفال الذين يعانون من هذا الاضطراب يمتازون بعدم القدرة على فهم العلاقات بين الأشياء أو المتضادات كالتمييز بين الأب والأم كما أن هؤلاء الأطفال في الغالب يفهمون هذه اللغة الداخلية لكنهم لا يقدرون على التعبير عنها شفهيا فمثلا قد يدرك الطفل العلاقة بين الورقة والقلم عندما يقال له ماذا تفعل فيشير إلى القلم ليكتب ولكنه إذا طلب منه الإجابة شفهيا فإنه لا يستطيع التعبير عن ذلك شفويا وهذا يدل على أن هؤلاء الأطفال قادرين على أداء السلوكات المطلوبة منهم رمزيا لكنهم عاجزين على التمثيل اللفظي هذه السلوكات.[16]

2. صعوبات اللّغة التعبيرية: التعبير اللغوي هو الإفصاح عما داخل النفس البشرية من مشاعر وأفكار وعواطف للآخرين، وذلك باللغة أو التعبير الشفهي بشكل سليم وواضح ومفهوم. فالتعبير اللّغوي يعتبر وظيفة من وظائف الاتصال والتواصل الاجتماعي، ومؤشرا من مؤشرات النمو اللّغوي السليم، فالأطفال الذين يعانون من صعوبات في اللّغة التعبيرية يمتازون بعدم القدرة على التواصل الشفهي

مع الآخرين لعدم قدرتهم على استخدام الكلمات بطريقة سليمة، فهم يتعرفون على الأشياء ومدلولاتها ولكن لا يقدرون على التعبير عنها شفهيا، حيث يمكن أن يرجع ذلك إلى:

* صعوبة في اختيار الكلمات المناسبة واستخدامها داخل الجمل الذي يمكن أن ترجع إلى صعوبات في الذاكرة السمعية.

* صعوبة في تنظيم استخدام الكلمات عند التعبير، حيث تبدو جملهم غير مترابطة بسبب حذف أو إدخال بعض الكلمات.[17]

3. صعوبات اللّغة الاستقبالية: تعتبر هذه الصعوبة عكس الصعوبة السابقة حيث هؤلاء الأطفال قادرون على الكلام، لكنهم غير قادرين على فهم ما يقال لهم وهذا ما يسمى بالحبسة الاستقبالية أو الصمم اللفظي.

يتصف الأطفال ذوي هذا النوع من الصعوبات بالعجز في فهم المعاني اللّغوية مما يؤدّي إلى ضعف في ربط الكلمات المنطوقة مع الأشياء والخبرات والمشاعر حيث يواجه الأطفال هنا صعوبة في إدراك الأصوات اللغوية للحروف والكلمات وكذلك صعوبة تعلم الكلمات وفهم التراكيب وإتباع التعليمات[18].

6. مظاهر صعوبات التعبير الشفهي: تعد الصعوبات اللغوية احد المظاهر الأساسية لصعوبات التعلم وقد ظهر ذلك عندما وصل "**سيجمون 1987** لمفهوم صعوبات التعلم حيث ذكر أن الطبيعة الحقيقية لصعوبات التعلم تتمثل في كونها مشكلة من مشكلات الاتصال أو فهم الرموز اللغوية.

ولقد أشار **(جروس) (gross) 1996** من خلال عرضه لحالتين من ذوي صعوبات التعلم اللّغوية أنأهم صعوبات التعبير الشفهي تتمثل في:

- الصعوبة في إيجاد الكلمات المناسبة للموقف.
- الصعوبة في تتبع ومعالجة اللغة، حيث يتلفظ الفرد فقط جزء من الجملة.
- تبديل كلمة مكان الأخرى.
- إسقاط بعض الكلمات ونهايات الكلمات.

- صعوبة في التمييز وفي إنتاج وتتابع أصوات الحديث في الكلمات.
- عدم القدرة على التعبير بطلاقة في المواقف المختلفة.
- الاستخدام الحرفي للغة والتعبير عن الأفكار بطريقة غير صحيحة نحويا.
- إسقاط الأصوات واستبدالها بأصوات متشابهة.
- البطء والخجل.
- ضعف الدافع للكلام.
- الكلام المتقطع.
- العجز عن التعبير الصوتي عن المعنى.[19]

كما يقسمها (دولاس) " وماكوجيلين"**Dolas et M.gelyn** إلى أربعة أقسام وهي:

- صعوبات التعبير عن الأصوات الخاصة بالكلام التي يمكن أن تظهر في حذف أو استبدال صوت بصوت أو التشويه البسيط للأصوات.
- صعوبات تكوين الكلمات والجمل.
- صعوبات إيجاد الكلمات.
- صعوبات استخدام اللغة التي تظهر في:

- عدم اخذ الدور في المحادثة.
- استمرار الصعوبة في المحادثة.
- السرعة في إنهاء المحادثة.
- استمرار الصعوبة في الحديث في نفس الموضوع.
- صعوبة المساهمة في أي محادثة.
- استخدام القواعد اللغوية بشكل خاطئ.[20]

الهوامش:

1- د/ أنس محمد أحمد قاسم، مقدمة في سيكولوجية اللغة، مركز الإسكندرية للكتاب بيروت 2000، ص 14، 15.

2 – د/ محمد النوبي محمد علي، صعوبات التعلم بين المهارات والاضطرابات، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان 2011، ص 164.

3- Damon, D et all, quelle prise en charge des troubles de langage auprès des jeunes enfants, émité d'étude pour la santé, école de santé public, France ,2010.

4-Goursolas J.R. trouble du langage orale et écrit, comment les prendre en compte à l'école ? Inspection académique, haute savoir, France, 2009

5- نفس المرجع، 2011، ص 170.

6 – د/ يحي أحمد القبالي، مدخل إلى صعوبات التعلم، مؤسسة الطريق، عمان، 2003، ص25 .

7 – نفس المرجع، ص 26.

8 – د/ أسامة محمد البطانية وآخرون، صعوبات التعلم، النظرية والممارسة دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، 2005، ص 29.

9 – نفس المرجع، ص 35.

10 – محمد النوبي محمد علي، 2011، ص 171، 172.

11 – **د/** راضي الوقفي، صعوبات التعلم بين النظري والتطبيقي، دار المسيرة للنشر والتوزيع عمان، 2011، ص 340.

12 – نفس المرجع، ص 341، 342.

13 – نفس المرجع، ص 342.

14 – أسامة محمد البطانية، 2005، مرجع سابق، ص 221.

15 – محمود أحمد السيد، طرائق تدريس اللغة العربية، دمشق، 1982، ص 113، 122.

16 – أسامة محمد البطانية وآخرون، 2005، مرجع سابق، ص 130.

17 – نفس المرجع، ص 130.

18 – محمد النوبي محمد علي، 2011، ص 170، 171.

19 – حامد عبد السلام زهران، المفاهيم اللغوية عند الأطفال، أسسها، مهاراتها، تدريسها تقويمها دار المسيرة، عمان، ط 2، 2011، ص 514.

20 – نفس المرجع، ص 515.

Peyser, Thomas. ***Utopia and Cosmopolis: Globalization in the Era of American Literary Realism***. Durham and London: Duke University Press, 1998.

Rothstein, Edward. "Utopia and Its Discontents": in ***Visions of Utopia***. Oxford: Oxford University Press, 1952.

Said,W. Edward. ***Des Intellectuels et du Pouvoir***. Alger: Editions Marinoor, 2001.

Unpublished Papers of Edward Bellamy. Houghton Library, Harvard University n.d.

William Morris: News from Nowhere and other Writings. Edited with an introduction by Clive Wilmer, London: Penguin Books, 1993

Conclusion

In short***, Looking Backward*** can be considered as a monologic novel in which the divergent voices of trusts and labor representatives are synthesized in the writer's authoritative voice allowing no contending voices to be heard. It claims a position of centrality to learned elites whose voices were to become, locally and globally, increasingly influential considering the central function that communications and information were to acquire in the modern age. Like Plato's ***Republic*** its welfare and order depend on the knowledge wisdom and ascetic discipline of a ruling caste committed to the happiness of the social subjects. However, unlike their Greek precursors, the modern rulers do not depend on the labor of a slave caste. This appropriation by the intelligentsia of workers' suffering and the rulers' fears to construct a new order in which they hold a central position may betray a quest for social prestige and lust for power. It seems close to the platonic republican ideal in which philanthropic benevolent king philosophers assume ruling functions.

Notes and References

Attali, Jaques***. Demain, qui gouvernera le monde ?*** Alger: Editions Hibr, 2011.

Bellamy, Edward. ***Looking Backward 2000-1888.*** Edited with an introduction by John L. Thomas, Cambridge, Massachussetts: Harvard University Press, 1967.

Baumont, Mathiew. ***Utopia Ltd., Ideologies of Social Dreaming in England 1870-19OO.*** Boston: Brill Leiden, 2005.

Bowman,S. et AL. ***Edward Bellamy Abroad: An American Prophets' Influence***. New York: Twayne Publishers, 1962.

Dentith, Simon. ***Bakhtinian Thought***. London and New York: Routledge, 2006.

Himmerfeld, Gertrude. "The Intellectual in Politics: The Case of the Webbs": ***Journal of Contemporary History,*** 6:3 (1972: July) p.3.

Kumar, Krishan. ***Utopia and Anti-Utopia in Modern Times.*** Cambridge Massachusetts: Basil Blackwell Ltd., 1991.

Laski, Harold J. "The Fabian Way": ***Current History*** (New York), 41:1 (1934: Oct).

Mannheim, Karl***. Ideology and Utopia: an Introduction to the Sociology of Knowledge***. San Diego, New York and London: Harcourt Brace and Company 1936.

Moylan, Tom. ***Scraps of the Untainted Sky: Science fiction, Utopia, Dystopia***. Oxford and Colorado: West View Press, 2000.

Parrington, Vernon Louis Jr. ***American Dreams: A Study of American Utopias.*** New York: Russell and Russell, 1964.

nature of that society in terms of the relationship between its culture and its power structures' (Peyser, 1998: iii). He goes on to explain that as a cultural construct, society is made up of 'fictive foundations [an ideology] that sustain an order' (ibid). The question here is whether societies thus constructed and ideologically sustained could alter the structure of the existing system, and establish new relations between its component parts by setting up new imaginary foundations. The answer to such a question is positive if it is looked at in the light of the history of social formations. Bellamy along with other reformers seems to have taken cue from that history in their attempt to set up a new social order. By drawing upon the most salient elements of late Nineteenth-century U.S. culture, Bellamy succeeded in giving shape to that society of millions of well-disciplined workers that most reform-minded intellectuals in the industrial world dreamed of but could not as clearly articulate.

Despite the numerous critiques which targeted it especially from the advocates of proletarian revolutionary doctrine probably frustrated at having been denied their proletarian revolution , Bellamy's novel had the merit not only to stir debate about the numerous flaws of industrialism and laissez-faire capitalism, but also political and social action towards change. The welfare and social measures underlying Roosevelt's New Deal three decades later when the Great Depression had reached its apex owed an undeniable debt to Bellamy's ideas. What is debatable is the artificial, mechanical aspect of life in his utopia, in which the industrial and commercial systems function with the precision of a machine, and which prefigure modern man's subjection to the productive and consumerist logic of the new society. Equally questionable is the militaristic logic of the new society which, as later developments would show, contained the seeds of fascism and totalitarianism.

stable, and above all, a society that would serve as "the vanguard to the nations of the world".

From Nationalism to Globalism

Further evidence of the growing influence of the intelligentsia is the commitment of Bellamy and his Nationalist Clubs to function 'as the ideological spearheads of the Populist Party' in its campaign against the two traditional parties, and the inclusion by the Democratic Party of planks contained in the Populist platform in its programs for the 1896 presidential elections. Bellamy goes further in tickling American national pride and its burgeoning globalist ambitions by presenting his utopian model of society as one that has already impregnated the world. To a question by Julian west about the state of the Old World, Dr Leete informs him that the great nations of Europe, as well as Australia, Mexico, and parts of South America, are now organized industrially, like The United States which was the pioneer of the evolution. The peaceful relations of these nations are assured by loose form of federal union of worldwide extent. An international council regulates the mutual intercourse and commerce of the members of the union and their joint policy toward the more backward races, which are gradually educated up to civilized institutions (Bellamy, 1888: 184).

This international council is set mostly to facilitate free access to all sorts of resources and markets worldwide, and insure fair commercial practices; already hinting at the defunct League of Nations instituted after WWI, and the United Nations with its satellite organizations set up after the Second World War such as the GATT, the WTO, and the IMF as instruments of international economic and financial intercourse and 'world governance'. However, this global federal system should in the future evolve into a single global body in much the same way as progress had made tribes and small kingdoms into nations. 'You must understand', Dr Leete argues, 'that we all look forward to an eventual unification of the world as one nation. That, no doubt, will be the ultimate form of society, and will realize certain economic advantages over the present federal system of autonomous nations'(ibid: 186).

David Ross's claim that 'Society is after all a cultural construct' is probably close to the truth. In his introduction to Thomas Peyser's ***Utopia and Metropolis***, Ross uses the metaphor of society as a 'text, a historical human construct that can therefore be deciphered and help to penetrate the

proletarian revolution' (Baumont 2005).The publication of the novel was immediately received as the bible of the reformers and Bellamy found himself involved in politics. Demands for the constitution of Nationalist organization emanated mostly from intellectuals and retired officers of the Army of the Union. Bellamy in his answers insisted on the leading role for the learned classes. In a letter to Thomas Wentworth Higginson, dated December 28, 1889, he insists that the change [should be] led and guided by the natural leaders of the community, [not] left to the demagogues [adding that] it was the peculiar felicity if our countrymen in their revolt of 1776 that their natural leaders, the men of education and position, led it.[. . .] As for our politicians they of course will only follow not lead public opinion. It belongs to the literary class to create, arouse, and direct that opinion. (Unpublished Papers, 76)

The medial position they hold between the conflicting forces of labor and capital gave intellectuals a favorable position as intermediaries who could convince the conflicting parties of the need to strike a deal.

The deal which mirrored the threat of an impending revolution that might sweep away the owning classes if they did not give in to the aspirations of working classes, and which promised the masses a peaceful progressive evolution towards the commonwealth as an inevitable historical process presented a threefold merit. First, to the owning classes, the new society promised positions of leadership since the utopia is a meritocratic but philanthropic society in which the managing staff of the industrial army holds executive positions in an industrial society where disciplined dedicated soldiers now enthusiastically perform the tasks which were formerly only reluctantly performed by rebellious working class members. Next, to the members of the working classes whatever their functions, the new society provides 'each according to his needs'; which means that any worker, just like any high ranking officer, receives enough to grant him access to the luxuries of the affluent society. Last and most importantly, to the architects of the new system, it grants the honors due to heroes for they will have succeeded to build the consensus by combining modern elements of socialist thought with the traditional American evangelicalism to produce a highly efficient industrial society; affluent, egalitarian, communitarian and

Owen, Karl Marx, and the Fabians, to name only these. If the early utopias were conceived as closed places, cut off from a corrupt and potentially corrupting outward world which was characterized by greed and ruled by sheer power, the spread of reason and science with the Enlightenment emboldened the bearers of knowledge that reason and science alone deserved to rule and order society. Scientific and technical progress increased intellectuals' confidence that science should be the Religion of Humanity, and its bearers the natural architects of a regenerated world, and therefore its legitimate rulers. In the nineteenth century, scientific and technical resources had been made available, and the utopia long sought for seemed attainable. This may explain why that period, which constituted a watershed between a declining traditional agrarian society rebellious to change and a modern industrial one not yet fully born, was rife with utopian aspirations.

Although the discovery of America was given religious interpretations the constitution of the newly born nation drew heavily on the secular ideas of the Enlightenment and Humanism. The basic principles of human equality freedom, and happiness underlying the foundation of the U.S. state belong to that tradition. They sought to institute social order and human happiness as ultimate ends through the technical means of science checked by the ethical means of justice. In the late nineteenth century U.S.A., as was the case in Europe both of which seemed caught between the hammer of a ruthless plutocracy and the anvil of a revolutionary proletariat, the rising 'unattached class', conscious of its growing power to generate consent or to stir revolution, suggested to re-negotiate the social compact on renewed terms. Alvin Gouldner (1979) grasped the rising power of the intelligentsia when he declared that 'intellectuals have, for many years now formed a new class which has developed a monopoly over a culture of critical discourse, and whose power has superseded the power of the traditional wealthy families and the landed aristocracy'(Trans. Mine, quoted in Said,2001: 22) .

Looking Backward 2000-1888, partakes of the intellectuals' desire to enter politics in quest for the good society. Like the Fabians in England especially the Webbs, they attempted to use their cultural and symbolic capital to construct an order halfway 'between the morally bankrupt Charybdis of laissez faire, and the potentially destructive Schyla of a

volunteers in the Industrial Army are promoted to positions of responsibility and decorated with medals of honors. Although apparently egalitarian, since it is based on equality of income, the new society is a Darwinian, meritocratic society in which the intellectually and morally fittest still hold positions of power. However, this power, which is put to altruistic and philanthropic ends arouses the gratitude and admiration of the people which they serve so disinterestedly instead of their fear or envy.

The Religion of Solidarity provides the necessary emotional atmosphere for the social subject to serve the system. Its basic premise, which is inspired by the Christian tradition of martyrdom, is that human beings are instinctively driven to seek communion with the infinite, but are often prevented from doing so by the egotistic side of self which clings to the quest of immediate temporary pleasures. The Religion of Solidarity is then an appeal to its followers to abandon the temporary, egotistic and mortal self, to seek regeneration and eternal life through communion and merging with the universal self. How is this ideal of fusion with the greater being, be it society or humanity, to be achieved? Solidarity, equality, and dedication to the service of the nation could be spread through culture and education on which Bellamy and most reformers insist to make change desirable therefore possible.

The Religion of Solidarity stood in opposition to the materialistic and individualistic ethos of the Gilded Age. It drew upon the sense of sacrifice that stirred the humanitarian and patriotic feelings of soldiers of The Union during the Civil War; feelings that were deflected into work energies in the service of industry. It also appealed to the Christian feelings of charity brotherhood and sense of sacrifice to cure the ills of capitalism and Laissez Faire rather than socialist doctrine which Bellamy well knew would arouse reactions of aversion from the majority of Americans who associate it with immigrants, anarchy and violence. Appearances notwithstanding, it was another form of oligarchy in disguise**.**

The new aristocracy of the word

Bellamy belongs to that tradition of thought which sought to construct the good place, i.e., an elsewhere that would constitute the ideal counterpart of the flawed ongoing society. He is heir to the tradition established by Plato Thomas More, Francis Bacon, Henry de Saint Simon, J.S. Mill, Robert

the more efficient their management; so that when the nation came to integrate all the trusts, public opinion had grown favorable to it.

Bellamy's aversion to socialist doctrine and class war which he assimilates to 'anarchy and bomb laying' has been underscored by more than one critic. He insists on the fact that the New Society was inspired rather by the millennial dreams of equality and the Christian teachings of self-sacrifice and martyrdom which ensure their followers rebirth and eternal life in the universal being which are society or humanity at large. These are, for Thomas, the main factors which cement the organic unity of the new society. As an American writing in the Cold War period, this scholar was probably reluctant to admit any influence of socialist ideas on Bellamy. He explains that Bellamy drew upon the American tradition and used the Religion of Solidarity, the National Party, and the Industrial Army as the ideological instruments 'that checked the destructive forces of capitalist greed and proletarian envy' (Thomas, 1967: 55-56). Krishan Kumar, by contrast writing after the demise of Communism, says that Bellamy who had travelled through Germany 1869, and who had edited Charles Nordhoff's The ***Communistic Societies of the United States,*** and John Noyes' ***History of American Socialism,*** had been influenced by socialist ideas, but remarks that the author could not openly advocate socialist ideas in a society where anybody suspected of socialist sympathies 'could be taken into a corner and clubbed' (Kumar, 1991: 141).

The Industrial Army is the basic economic and political structure of Bellamy's utopia, of which the Religion of Solidarity is the dominant ideology and the instrument of organic cohesion. As its name suggests, this army is a strict military organization applied to economic and social ends. Its purposes are obviously utilitarian since it aims at the construction of the welfare state in which highly efficient industrial organization based on strict discipline and patriotic devotion to work in the service of the nation grant regular supply of commodities and services to the utopians. Promotion in the ranks of the army is merit based; and the incentive that puts the utopians to diligent work is the quest of their peers' respect and the nations' gratitude to those who serve it. Bellamy, as Krishan Kumar notes, has created the moral equivalent of war. Warring energies and Christian feelings of compassion are deflected into working energies in the service of equality and welfare. Like wartime heroes

an overview of the utopian city that 'lay at[his] feet' (Bellamy,1967: p. 115) .Interestingly, the visitor to utopia and his mentor choose a lofty perspective to overlook the new society and get as clear a view of it as possible. However, the true beauty and harmony of the new society, which the new visitor has yet to discover, lies in its economic, political, and social organization of which the architecture and the urban landscape are eloquent reflections.

Economically, the new society was a centralized system in which the state had the complete monopoly of industries, banks, and public facilities. State control over public facilities was actually a demand formulated by most reformers of the late 19th century in the U.S.A. This has taken place naturally and peacefully Julian's host explains. As the trend toward larger and larger monopolies continued, small businesses and trusts disappeared swallowed by larger ones, until there remained only one trust; the trust. As Dr Leete explains to his visitor:

Early in the last century the evolution was completed by the final consolidation of the entire capital of the nation. The industry and commerce of the country, ceasing to be conducted by a set of irresponsible corporations and syndicates of private persons at their caprice and their profit, were entrusted to a single syndicate representing the people, to be conducted in the common interest for the common profit .The nation, that is to say organized as the one great business corporation in which all other corporations were absorbed, it became the one capitalist in the place of all other capitalists, the sole employer, the final monopoly in which all previous and lesser monopolies were swallowed up, a monopoly in the profits and economies of which all citizens shared (Bellamy:1888, p. 126).

Following the Darwinian evolutionary process of natural selection, the American economy has progressively and peacefully developed into a system of state capitalism in which the state which is the economic and political emanation of the nation is the unique trust, "The Trust", of which all the citizens are shareholders; a sort of ' utopia Ltd' in Mattew Baumont's words'. What surprises Julian West further is the fact that no revolution or bloodshed were needed for the change to occur. As Dr Leete explains, through a series of objective lessons, the people realized that the larger the trusts the easier and

were hanging over society (ibid).The fears felt by sensible men as regards the future of the American society were exacerbated, in Bellamy's words, by ' the talk of a small band of men who called themselves anarchists, and who proposed to terrify the American people into adopting their ideas by threats of violence', adding as an afterthought that, ' a mighty nation which had just put down a rebellion of half its own members in order to maintain its political system [was unlikely] to adopt a new social system out of fear' (ibid: 102). The future society, from which Julian West looks backward, and which he intends to use as an argument to overcome resistance to change, is a technocratic utopia in which the contradictions and the tensions plaguing nineteenth century U.S.A have miraculously vanished.

The New Nation

The new society which Bellamy's hero discovers spells order, discipline plenty and bliss. It is one which has been constructed by an Industrial Army whose officers, and ranks and files were devout to the Religion of Solidarity. The basic outline of the story is that of a sleeper who awakes in the utopian society one hundred and thirteen years later. Julian West, Bellamy's hero, is an insomniac who sleeps in an underground vault known only to his manservant, and the professional hypnotist, Dr Pillsburry, who regularly puts him into a trance at night. Julian's chronic insomnia was the result of the climate of anguish and unrest created by the frequent labor conflicts. By virtue of his class affiliations Julian resents the labor activists. Besides, he has personal reasons to hate them for strikes in the building industry were delaying the completion of his house and his marriage to the wealthy and beautiful Edith Bartlett. One night, Julian's house burns down, and his servant with it. Julian, who is presumed dead, remains in trance, and goes on sleeping to awake in the year 2000, in the house of a certain Dr Leete, his wife, and their daughter Edith. It is therefore through death in the old corrupt self and rebirth in the new society that Julian undergoes a process of regeneration, by I initiation to life, and integration of the new society.

The new society which Julian discovers has, as though miraculously progressively rid itself of all the problems of the late 19th century America. Dr Leete, a high ranking official of the ruling elite, welcomes him and introduces him to the Boston of the year 2000, its institutions and culture. Interestingly enough, it is from Dr Leete's 'house top' that the visitor had

The New Religion and its Clergy

By the time he set out to write his utopia, Bellamy, through his work as a journalist, had accumulated enough knowledge about the ills of industrial societies and the remedies likely to cure them. His knowledge of the social inequalities that characterized the American society inspired Bellamy with the parable of the coach. 'I cannot do better', he writes about nineteenth century U.S.A, than compare society as it then was to a prodigious coach which the masses of humanity were harnessed to and dragged toilsomely [sic] along a very hilly and sandy road. The driver was hunger, and permitted no lagging, though the pace was necessarily very slow. [. . .] The top was covered by passengers, who never got down, even at the steepest ascent [and . . . who] could enjoy the scenery at their leisure, or critically discuss the merits of the straining team. Naturally, such places were in great demand, and the competition for them was keen, everyone seeking as the first end in life to secure a seat on the coach for himself and leave it to his child after him (Bellamy, 1887: 97).

Those on top of the coach, the writer goes on to explain, do feel compassion for their brethren; and at such times express their empathy noisily and exhort the toilers to patience, for their efforts will be duly rewarded in the other world. For Bellamy, traditional religion has been turned into an ideological opiate that binds the workers to their condition and gives the ruling class an easy conscience. Indeed, for members of the ruling class, exploiting the workers and being served by them was part of the natural order of things; a feeling that resulted from their religious and class perspective. Inequality and injustice were given metaphysical rather than human interpretation, which of course spared the haves of their responsibility toward the deprived. What was needed was a renewed form of faith: "The Religion of Solidarity".

The period in which the writer produced his story is characterized by competition among the haves on the one hand, and labor unrest on the other as 'The working classes had quite suddenly and very generally become infected with a profound discontent with their condition' (ibid, 100). The workers knew what they wanted; but as they did not possess enough light and wisdom to choose the means most appropriate to achieve their end, they may cause havoc in society as signs of 'an impending social cataclysm'

the conflicting parties in order to compel them to transform conflicts of interests into conflicts of ideas' by rationalizing the demands of the contending parties and attempting to reconcile them through a renegotiated social compact which would be acceptable to all. To achieve this end intellectuals draw upon the resources available in the situation- the cultural matrix of their society- dismissing practices that are no longer acceptable and cancelling those that are not yet realizable. By doing so, Mannheim observes, 'they use their privileged social moorings [in] their quest for [and] fulfillment of their mission as the predestined advocate[s] of the intellectual interests of the whole (ibid, 158)'.

In the looming modern society of the 1880s ushered by the new millennium, where the spread of knowledge and science had led to a sharpening of class consciousness, intellectuals may be led to a form of self-perception and self construction as the **inevitable mediators** (emphasis added) of the diverging and often conflicting interests that threatened social stability. The utopian novel written by Bellamy sounds quite in line with this spirit and with the spirit of the age. It denotes a shared exasperation with the excesses of the Gilded Age, and a new faith in progress that would lead gradually to the improvement of society and the human condition.

It was to this emerging stratum of intellectuals and experts that Bellamy belonged. Their sense of justice and consciences demanded that they act to relieve the plight the working classes, while fear of radical anarchy dictated caution in the schemes they drafted to that end. It was to the members of that 'cultured class' that he appealed to steer society to safer grounds. The secret of Bellamy's success may be explained by his ability to feel the pulse of the American society during the Reconstruction period, grasp the contradictions that threatened the country's cohesion, and draw upon core elements of the U.S. cultural matrix to envision an order in which the contradictions are magically solved. Bellamy's futuristic society, presented the narrator with a "hill-top perspective" wherefrom he could historicize his society and which could serve according to John L. Thomas 'as a blueprint for the reconstruction of the American society plagued by the materialistic excesses of the Gilded Age' (Thomas, 1967:16).

different parts are integrated by the writer's consciousness and the contending voices are synthesized in the writer's authoritative voice. The monologic novel, accordingly, depicts a world in which harmony and consensus prevail; a world where conflict is resolved. Central to this feat, is the heroic influence of the narrator who usually acts as the mouthpiece of the author.

It is here that Mannheim's views on the novelist coincide with Bakhtin's treatment of the author. Bellamy the author, the speaking subject, and the social agent is apprehended as a member of the rising intelligentsia. The special position of the Intelligentsia comes from the fact that their outlook unlike owners of capital or members of the working class, is not determined by a rigid position in the production process. Mannheim writes that members of the intelligentsia come from various social strata; and so may keep a certain ideological affinity with their original class, but he insists on this important fact that

There is, however, one unifying bond between all groups of intellectuals namely education, which binds them together in a striking way. Participation in a common educational heritage progressively tends to suppress differences of birth, status, profession and wealth, and unite the individual educated people on the basis of the education they have received. [. . .] This modern education has created a homogenous medium [knowledge] within which the conflicting parties can measure their strength. [. . .] Modern education, from its inception, is a living struggle, a replica on a small scale of the conflicting processes and tendencies which rage in society at large (Mannheim: 1936, 154-156).

This acquired cultural capital gives intellectuals a mixed temperament and subjects them to the influences of opposing tendencies in the social reality. It is this relatively unattached or trans-class status that places them in a privileged position by making them 'attuned' to the different interests and points of view that inform their society. It is this lofty 'hill-top view' that enables them to develop an all inclusive synthetic view that would reconcile the interests of the various social organs and thus preserve the harmony of the social body.

Unlike the members of the traditional classes, whose thought is determined by their class position, intellectuals 'penetrate into the ranks of

Methodology

The article integrates elements of Bakhtin's theory on the novel (1996) with Karl Mannheim's treatment of intellectuals (1936) to read Bellamy's work as an ambivalent utopia promoting a form of an American socialism in a strong authoritative voice. Indeed, in his definition of language, Bakhtin goes beyond Saussure's definition of language as a binary sign system which people draw upon to name and organize the world. For Bakhtin, to speak is to change the world through an infinite number of speech acts. To speak is to enter into a creative dialogue with an already committed act, be it a speech or social act, which bears value. Value which denotes an attitude is ideological in nature; so, one speaks to foster, maintain and reproduce an already present act, or to challenge it with a view to its transformation. The ideological function of language use informs aesthetics of which the novel is an important form. This seems to be the case with the way utopian writers use this particular form of literary discourse in their attempt to deal with the tensions that inform their society. Hence, through this dynamic, dialectical interplay, authors as social agents permanently construct themselves new identities through their participation to the construction of the good society in the form of a utopia.

As an aesthetic form, the novel is the locus where the conflicting interests and the actions of the different social groups are represented. Also as an utterance and social action, it provides valuable insight into the perspective, interests and social position of its author. With respect to the perspective and role of the author, Bakhtin distinguishes two sorts of novels: the polyphonic novel and the monologic novel. 'The polyphonic novel' Bakhtin argues, 'grants the voices of the main characters as much authority as the narrator's voice which indeed engages in an active dialogue with the characters' voices'(Bakhtin,1996: 41).In the polyphonic novel, the narrator is placed on an equal footing with the other characters with respect to authority. Polyphony, for Bakhtin, should not be understood as an abdication by the author of his responsibility, but as recognition of the other with whom he engages in a dialogue; not another whose voice he appropriates and fashions in such a way that it fits his ideological expediencies. Polyphony like genuine democracy, has important ethical and political implications. The monologic novel, on the other hand, represents a world in which the

Issue and Hypothesis

The fact that it is often likened to Karl Marx's ***Das Kapital*** is evidence of its tremendous transformative potential. However, what critics have not sufficiently underscored is the capacity of utopian writers to capture the conflicting emotions of hope and fear that inform their society, turn them into utterances that represent the contending voices, before they deftly construct a consensual order that temporarily contents the conflicting parties. This is what Bellamy succeeded to do in so far as his "gospel" The Religion of Solidarity and his scheme for an Industrial Army made "converts" and volunteer "conscripts" throughout the United States and even abroad. Like many intellectuals of the Progressive Era, he felt that a redefinition of the American Dream as a democracy of goods was a necessary precondition for the recovery of the original political democracy.

The present article explores the impact of the rising intelligentsia, whose emergence coincided with the rapid diffusion of knowledge and the contraction of space and time induced by technological development, not only on a national scale but globally as well. In other words it discusses the socialists' charge of 'ideological complicity of the intelligentsia with the prevailing capitalist model of history' (Baumont: 2005, 10).It goes further for besides assigning intellectuals a central role in organizing and leading the new state, Bellamy's system in no way threatens the basic pillars of capitalism, but it moderates the excesses of the plutocracy. More than this Bellamy's nationalist utopia is constructed as a model to disseminate to the other parts of the world; a global blueprint, conceived, and to be supervised by an army of disinterested patricians committed to the happiness and the well being of the people. Plato's philosopher kings who ruled over a closed city state are now to spread their wisdom to the whole global village. What is worth noting is that the role of historical agents is withdrawn from the workers as agents of historical change, and assigned to the intelligentsia as the architects of the new social compact. If any viable change is to occur, it has to be achieved not by revolutionary action of the proletariat, but through peaceful evolution under the wise tutelage of knowledgeable cultured elites.

heavenly sign; and, like Aaron's rod, an instrument in the service of the nation's destiny as the vanguard of humanity.

However, rapid transformations induced by progress created mitigated feelings of hope and apprehension as it led to the constitution of gigantic trusts in industries, banking, and services, depriving many Americans of the fruit of the new Eden. Industrialism and monopoly capitalism had made victims especially among little farmers, small businesses, and wage earners. As Krishan kumar notes, if the Civil War had united the American nation in its enterprise of enforcement of the basic human birthrights of "equality and freedom" by imposing the abolition of institutionalized slavery to the southern states, uneven distribution of wealth threatened to undermine the economic foundations that were a necessary prerequisite to political equality and human happiness (Kumar, 1987: pp., 138-139). Discontent among the victims took a variety of forms. Farmers' revolts, labor unrest, and different forms of violence were symptoms of this discontent. The frequent press campaigns, civil crusade against corrupt politics and the power of the trusts; and the emergence of realism, naturalism, and utopianism in literature were equally symptomatic of the crisis.

The utopian novels written in that period, of which Looking Backward constitutes a popular example, partook of the same need to construct the good society by unveiling and correcting the flaws of the present one. None the less, unlike realism and naturalism which highlight the corrupting influence of a basely material world on the individual, utopian literature champions progress as the utilitarian panacea that would produce social harmony and individual happiness. Said otherwise, against the pessimistic mood of naturalism which presents the social subject as the reluctant victim of powers beyond his control, utopian writing invites voluntary, enthusiastic participation of the social agent to the construction of the new society. Hope is used as the motive power for social change.

What is the secret of the novel's fame? What is there in ***Looking Backward*** that propelled its author from the status of journalist to that of 'social engineer and prophet of a new morality'? What is there in the novel that has helped it impregnate culturally diverse societies and reach universality? More importantly, what relevance could a revisiting of Bellamy's romance have to our time?

among the slaves of that society, is now at last forcing itself on the attention of the master (Morris,1993:309).

William Morris further warns against two dangers involved in Bellamy's utopia. The first danger is that it might convince socialist enthusiasts that the advent of socialism is an inevitable outcome of a progressive historical process; a conviction that might function as an opiate which would lead to contemplative quietism precluding or at least delaying transformative action that would bring about the desired society. The second danger lies in the hyper-centralized mechanistic logic of ***Looking Backward***; a coldly utilitarian society, geared to the satisfaction of the needs of a consumerist society by making workers into disciplined conscripts of an industrial army. This system, Morris argues, will deter many socialists from pursuing it**.**

It would be equally wrong to consider Bellamy's utopia as having sprung up miraculously out of a cultural or ideological vacuum. Utopian ideas and schemes were an important part of American history and culture. Indeed, the quest for and discovery of the New World itself, and the series of ordeals accomplished by "the pilgrims" through their successive triumphs: over the natural elements- The Atlantic and the hostile natural environment of the continent- first, their victorious Revolution against the representative of the old corrupt order, the king of England, next, and finally their triumph over "the heathens and the Spaniards", had strengthened Americans' confidence that they were the missionaries chosen by providence to lead humanity toward moral regeneration.

Although American utopianism was largely inspired by Jewish and Christian traditions, it began to assume secular aspects with the spread of Enlightenment ideas and the development of technology. The gradual weakening of the religious sentiment led to a reinterpretation of the American Dream. The traditional religious interpretation gave way to an economic interpretation claiming equal access to the luxuries and material comfort of the New World. The 1880s were years of transition from a rural agrarian economy, to an urban industrial one. The development of modern land and water communication networks connected the Eastern coast to the Western one, the North to the South, which strengthened Americans' national feelings, and their faith that technical progress was another

However, the novel's reception is not a general fit of applause as it may seem at first sight. Drew heavily on socialist ideas while taking care not to dismiss capitalist values altogether, it received violent attacks from both conservative and socialist camps. In 1893, J.W. Foot, a conservative-minded thinker, described ***Looking Backward***

[as] the ban of this nation. It breeds a notion in the minds of thousands that somehow the government will be compelled by agitation to do for them what God, nature, and society demand they shall do for themselves. Its utopian notions have taken root in many minds. Multitudes who never saw the book have received its teachings secondhand and have been poisoned by them (Qtd. in Parrington, 1964:78).

Indeed, many Americans influenced by nativism eyed with suspicion the kind of socialist ideas at the basis of Bellamy's utopia since the seeds of these ideas were sown by the waves of immigrants that flooded the country at the wake of the potato failure crop in Ireland in the 1840s, and the failure of the socialist revolutions in Europe in the same decade.

Socialist political thinkers also spared no effort to dismantle Bellamy's utopian social project. William Morris, for instance, unveils ***Looking Backward*** as the manifestation of its author's character: 'a bourgeois Whig frame of mind that is quite content with modern civilization once it has been rid of a few ridiculous survivals of the barbarous ages' (Morris, 1993:381). Morris argues that certain bourgeois utopias are no more than an appropriation by bourgeois intellectuals of the suffering of the poor, and their subversion into remote paper paradises where fanciful solutions are applied to real problems. In a lecture given before members of the Socialist League in 1885, Morris declares that the hopes conveyed by utopian writings like Bellamy's are but a reflection in those who live happily and comfortably of the vain longings of those others who suffer with little power of expressing their suffering in an audible voice: when all goes well, the happy world forgets these people and their desires, sure as it is that their woes are not dangerous to them the wealthy: whereas when the woes and grief of the poor begin to rise to a point beyond the endurance of men, fear conscious or unconscious falls upon the rich, and they begin to look about them to see what there may be among the elements of their society which may be used as palliatives for the misery which, long existing and ever growing greater

and ideological realignments not only east of the 'Iron Curtain' but also in former areas of influence of the ex-Soviet bloc in the Third World? What could one say about Bellamy's utopia that has not already been said considering the bulk of critical appraisals it triggered both at home and abroad for over a century now? Would a revisiting of Bellamy's utopia provide some clues to help understand the shock wave that has recently been sweeping through the Great Middle East, and which is strangely affecting mostly nation states that constituted the ideological satellites of the deceased communist U.S.S.R?

Review of the Literature

On its publication, the novel, its author's proclaimed escapism notwithstanding, constituted both a literary and political event. 'From an anonymous journalist,' John L. Thomas writes, Bellamy was suddenly propelled to the literary and political stage to 'find himself something of a national hero' (Thomas, 1967:1). 'Within a year of its publication in 1888 adds Krishan Kumar, ***Looking Backward*** sold a quarter of a million copies in the United States alone;[and] in 1897, it had sold half a million copies in America and hundreds of thousands throughout the world' (Kumar 1987:133). Outside the English speaking countries, the novel's popularity was confirmed by its translation into most of the major languages in the world. According to Sylvia Bowman, Bellamy is read not only in England France, Germany, Russia and Italy, but also in Australia, India, Indonesia Japan, South Africa, and many other countries (Bowman :1962). In an article entitled 'A Great American Prophet' published in ***Common Sense*** in 1934 John Dewey, the great American philosopher wrote: 'What ***Uncle Tom's Cabin*** was to the anti-slavery movement Bellamy's book may well be to shaping popular opinion for a new social order'(quoted in: Kumar 1987:134). Dewey's prediction turned out to be the point since Bellamy according to Kumar, came to exert a strong influence on American socialists such as Daniel de Leon, Eugene V. Webbs, as well as on such prominent social critics as Thorstein Veblen, and Upton Sinclair. Abroad, Leo Tolstoy who realized the first translation of the novel into Russian, praised it as 'an exceedingly interesting book'. Kumar further observes that 'So alarmed were the Tsarist authorities by[its] success [. . .] that in 1889 they banned it in public libraries and reading rooms' (Kumar, 1987: 135).

Knowledge, Authority, and Heroism in Edward Bellamy's *Looking Backward 2000-1887*

Hacene Benmechiche
Mouloud Mammeri University Department of English

Abstract

This article revisits Edward Bellamy's utopian novel ***Looking Backward 2000-1888*** **(**1887) with reference to its socialist and globalist themes in the light of the recent developments that have recently led to the triumph of liberal ideology over communism. Combining elements of Mikhail Bakhtin's theory of the novel as expounded in Simon Dentith's ***Bakhtinian Thought*** (1996), and Karl Mannheim's ***Ideology and Utopia: An Introduction to the Sociology of Knowledge*** (1936), it reads the novel as an attempt to historicize the nineteenth-century capitalist society in a bid to renegotiate the social contract on new bases. Thanks to their accumulated symbolic and cultural capital, and the medial position they hold between the conflicting parties (capital and labor), the intelligentsia self-appointed themselves as social mediators. Their influence on politics and their participation as experts or members of think-tanks seem to have made of them objective allies of today's liberal globalizing trends.

Key words: *Bellamy, utopia, American socialism, progressivism ideological appropriation*

Introduction

The moment one begins to reflect on utopian thought in the U.S.A. especially such socialist writings as Bellamy's ***Looking Backward 2000-1887***, one is overcome by a feeling of the vanity of such an undertaking. Indeed, what interest could the study of a socialist utopia raise after the demise of communism, the falling of the Berlin Wall, symptomatic of the victory of liberal ideology over communism, and the subsequent economic

- SELVA, Thierry, ISSAC, Fabrice, 1996, « *Représentation et utilisation de connaissances dans un système d'aide à l'apprentissage lexical »,* [en ligne] http://halshs.archives-ouvertes.fr, Paris, pages consultées le 23/03/2007.
- SOUISSI, Ridha, 1936/1976, *Enseignement structural des langues vivantes,* éd. Maison Arabe du Livre, Libye-Tunisie.
- TREVILLE, Marie-Glaude, DUQUETTE, Lise, 1996, *Enseigner le vocabulaire en classe de langue*, éd. Hachette, Paris.
- THIRY, Paul, DIDIER, Jean-Jaques, MOREAU, Philipe, et al. 2005 *Vocabulaire français : trouver et choisir le mot juste*, éd. De Boeck. Duculot Bruxelles.

Conclusion

Je viens de présenter les raisons majeures qui poussent nos élèves kabylophones, à transgresser le vocabulaire lors de l'apprentissage du français langue étrangère. J'ai de même saisi l'occasion de proposer quelques solutions possibles, qui permettent à ces apprenants de bannir ou du moins minimiser leurs difficultés lexicales et favoriser le développement et l'enrichissement des échanges lorsqu'ils seront menés à rédiger et à communiquer par écrit.

Références bibliographiques

- DECOTE, George, 1996, *Expression écrite et orale : améliorer votre style,* éd. Hatier, Paris.
- EL KORSO, Kamel, 1985, *Linguistique contrastive : la langue allemande-problèmes et méthodes,* éd. O.P.U, Alger.
- FERNANDEZ, Daniel, MEYER, Bernard, 1995, *Enseigner le français au collège*, éd. Armand-Colin, Paris.
- FEVE, Guy, 1985, *Le français scolaire en Algérie*, éd. O.P.U. Alger.
- GALISSON, Robert, 1983, *Des mots pour communiquer : élément de lexicométhodologie*, éd. clé internationale, Paris.
- GHIGLIONE, Rodolphe, MATALON, Benjamin, 1978, *Les enquêtes sociologiques, théories et pratique*, éd. Armand Colin, Paris.
- LAMBERT, Jean, 1997, *Enrichir son vocabulaire : jeux et leçons de style*, éd. Ellipses, Paris.
- LEHMANN, Alise, MARTIN- BERTHET, Françoise, 1998, *Introduction à la lexicologie : sémantique et morphologie*, éd. Dunod, Paris.
- MARTINEZ, Pierre, 1996, *La didactique des langues étrangères,* éd. P.U.F Paris.
- NAJAB, Fayçal, 2004, *« Multilinguisme et profession au Maroc »,* dans Hermès la revue, éd. C.N.R.S, [en ligne], http://www.cairn.info/revue-hermes-la-revue.htm, pages consultées le 05/11/2007.
- PORQUIER, Rémy, 1977, *«* L'analyse des erreurs *»*, dans *Etudes de linguistique appliquée*, éd. Didier, Paris.
- SAIL, Siham, 2010, *L'analyse des erreurs lexico-sémantiques dans les productions écrites d'élèves du secondaire,* Mémoire de Magister, sous la direction de HADDADOU, Mohand Akli, Tizi-ouzou.

combinaisons potentiels : c'est le cas du dictionnaire explicatif et combinatoire DEC.

Chaque article de ce dernier, comprend trois zones importantes : la zone sémantique (définition), la zone syntaxique (la fonction du mot dans différentes structures possibles) et la zone de cooccurrence lexicale (elle présente des fonctions lexicales).

Cette troisième zone, comme le fait remarquer Thierry SELVA et Fabrice ISSAC en 1996 dans leur article intitulé « *représentation et utilisation de connaissances dans un système d'aide à l'apprentissage lexica*l », le lexique ne se restreint pas uniquement aux mots simples mais englobe aussi les collocations et cooccurrences qui tiennent une place importante et fondamentale dans la maîtrise d'une langue étrangère et même maternelle ; car connaître un mot c'est non seulement le reconnaître visuellement, savoir le prononcer, connaître ses propriétés morphologiques, sémantiques et syntaxiques, mais il s'agit surtout de connaître le contexte dans lequel il s'emploie et les différentes fonctions qu'il peut remplir.

De plus, d'autres documentations destinées à neutraliser ou du moins à améliorer ses difficultés de vocabulaire sont disponibles en grande quantité. Celles-ci se trouvent résumées ainsi : la correspondance (écrire des messages virtuels), l'expression écrite (à partir des modèles proposés : chanson, poésie, lettre…), les jeux de langue (énigmes, mots croisés), et les ouvrages intéressants et diversifiés (*Trouvez le mot juste*, *Enrichissez votre vocabulaire* de Georges DECOTE, *Vocabulaire français : trouver et choisir le mot juste : 550 exercices pour enrichir son vocabulaire et améliorer son style* de Paul THIRY, Jean-Jacques DIDIER et Philipe MOREAU…).

Toutes ces propositions et bien d'autres encore (chaînes de télévision, de radio et sites internet…) sont mises en place en vue de développer son vocabulaire et à moindre mesure à atténuer l'emploi des erreurs à l'écrit, lors de l'apprentissage des langues secondes en particulier et des langues maternelles en général.

souligne à cet égard George DECOTE (1996), des exercices appropriés et diversifiés sont mis en place, pour tout élève désireux de s'exprimer convenablement y compris à l'écrit.

Des exercices tout d'abord, de récitation qui permettent aux élèves d'apprendre l'usage des mots et des tours de la langue française; puis des activités de vocabulaire : à chaque niveau d'étude correspond un vocabulaire spécifique, en allant d'un vocabulaire simple pour le préparatoire à un vocabulaire complexe pour le supérieure; et en fin des exercices d'élocution et de composition (rédiger en vue de traduire leurs impressions personnelles) qui permettent aux élèves, de manière générale, d'éviter ou d'atténuer leurs difficultés d'expression (SUISSI 1976). D'emblée, ces exercices sont tous valables pour l'apprentissage du français langue seconde ou langue maternelle.

L'enrichissement et l'apprentissage du vocabulaire peuvent se faire également, par l'utilisation des dictionnaires comme des outils d'apprentissage complémentaire. En ce sens, les élèves peuvent recourir au dictionnaire monolingue tel que le Petit Robert, le Lexis parmi les plus satisfaisants à l'heure actuelle, et même bilingue (tel que le Collins-Robert) quand ils veulent découvrir ou vérifier le sens d'un mot, son orthographe, sa prononciation (TREVILLE et DUQUETTE, 1996). L'on sait que deux des plus grandes difficultés pour les apprenants d'une langue seconde sont un vocabulaire insuffisant et les interférences qui relèvent de la langue de départ.

L'un des avantages du dictionnaire bilingue est de faire face à ces influences, en montrant clairement les différences entre les deux langues. Le dictionnaire monolingue, quant à lui, permet à l'apprenant de ne pas sortir de la langue cible, et d'avoir des informations plus complètes (niveau de langue, sens, syntaxe…). En effet, les dictionnaires actuels mettent en évidence l'inclusion des mots et énumèrent les combinaisons privilégiées dans lesquelles entrent chaque mot considéré, ou qui expriment sous forme de règles de cooccurrence (groupe de mots apparaissant en contexte) les types de

alors qu'il a la possibilité de les désigner par un seul terme. Un élève a écrit :

*lors du tremblement de terre les maisons sont toutes tombées à la terre

(à la place de s'effondrer).

La cinquième catégorie d'erreurs relative à la langue seconde est l'influence du français familier et oral sur les expressions écrites des apprenants. J'ai pu relever un nombre important de ce genre d'écarts. Il se trouve en effet, qu'en plus de l'influence de la langue première les élèves ne font pas la différence entre les niveaux de langue (notamment les trois principaux qui sont : le familier, le standard et le soutenu). Ils ne savent pas, en fait, qu'à chaque situation de communication correspond un niveau de langue bien précis (FERNANDEZ, MEYER, 1995); à une parole spontanée, c'est-à-dire celle qu'on utilise avec ses parents, ses amis…correspond la langue familière; à une production écrite, c'est-à-dire, à l'école ou français scolaire correspond la langue standard. Tout cela se trouve bien résumé dans l'exemple suivant :

*fais gaffe mon pote (au lieu de attention mon ami).

L'élève a utilisé des termes du français familier « gaffe, pote » dans une communication écrite scolaire, à laquelle doit correspondre des termes du français standard (FEVE, 1985).

Telles sont les causes majeures des déviances au niveau du vocabulaire qui empêchent les élèves kabylophones de s'exprimer de manière acceptable et correcte, lorsqu'ils sont confrontés à rédiger en français langue seconde.

II. Solutions mises en place

Toutes les formes erronées du vocabulaire, rencontrées dans les expressions écrites des élèves du secondaire impliquent que ce système de représentation nécessite une prévention et un ajustement qui peut s'étaler sur une longue période de travail acharné. A vrai dire pour développer et améliorer d'avantage son vocabulaire comme le

L'élève a, en fait, confondu entre les propriétés sémantiquement proches des deux termes (élève et étudiant), employés l'un à la place de l'autre, c'est-à-dire, elle a utilisé le terme « étudiant » dans un sens qui ne convient pas dans le contexte.

La deuxième catégorie d'erreurs imputable à la langue étrangère est l'invention des mots inexistants dans la langue française. En effet, nos élèves lorsqu'ils se sentent bloquer par un manque de lexique pour exprimer leurs idées et traduire leurs impressions, n'hésitent pas à créer des mots étrangers à la langue française et même aux autres langues qui les entourent (kabyle, arabe, anglais…) :

*je suis eucries d'avoir de tes nouvelles (au lieu d'impatient).

Ce mot « eucries » est inventé par un élève voulant exprimer par lettre écrite son acharnement de revoir son ami de longue date, c'est-à-dire, pour combler son besoin lexical, il a recouru à la création d'un terme qui n'existe pas au sein de la langue seconde.

Une troisième catégorie d'erreurs est la surgénéralisation et la création lexicale. Ce phénomène se produit quand une personne applique une règle morphologique ou construction du lexique au domaine des exceptions (elle applique la règle générale), tout en créant des mots nouveaux au sein de la langue en question. Dans ce contexte un élève a écrit :

*les géologistes font toujours des recherches (pour géologues).

C'est une erreur produite sur le modèle de gréviste, pianiste, etc. l'élève a dû apprendre qu'on a la possibilité d'ajouter le suffixe « -iste » à un nom pour que celui-ci soit dérivé en un autre nom. Néanmoins, cet élève a simplement retenu qu'il suffit de rajouter le suffixe « -iste » à n'importe quel mot pour que celui-ci se transforme en nom. Et cet élève a produit le mot « géologiste ».

La quatrième catégorie d'erreurs est la description. Cette dernière comme le montrent TREVILLE et DUQUETTE (1996) consiste à passer d'un terme à un énoncé. En fait, l'élève passe tout son temps à décrire en plusieurs mots un objet, un phénomène, une situation, etc.

*le fellah boit les champs (pour arroser : traduction du kabyle).

*certain de temps, j'aide ma mère (pour de temps en temps : traduction de la langue de base qui est l'arabe).

Dans ces deux exemples, les élèves ont traduit les expressions de leur langue de départ. Le premier exemple est une transposition mot à mot du kabyle, l'autre de l'arabe.

Enfin, la dernière catégorie d'erreurs est le pérégrénisme. Celui-ci consiste à employer des mots de la langue maternelle ou de base en leur appliquant les règles de la morphologie et de la phonologie de la langue seconde, tel est le cas dans l'exemple ci-dessous :

*ce qui pollue la nature comme les ordures dans les zeranes (au lieu de rivières). L'élève a repris le terme de sa langue maternelle « ighezrane » (qui signifie rivière en français) qu'il modifie sur le plan morphologique ainsi que phonologique pour le faire résonner français dans l'énoncé français, et il obtient le mot « zeranes » qui n'est, en fait, ni français ni kabyle.

I.2. Erreurs liées à la langue seconde

Les erreurs comme le précise EL KORSO (1985) ne sont pas toujours explicables en faisant appel à la langue maternelle, mais se situent au niveau même de la langue étrangère. J'ai pu déceler cinq catégories d'écarts relatifs à la langue seconde : il y a la contiguïté sémantique, l'invention des mots, la surgénéralisation et la création lexicale, la description et l'influence du français familier sur l'écrit des élèves.

La première catégorie d'erreurs liée à la langue seconde est la contigüité sémantique. Celle-ci consiste en l'utilisation d'un mot générique au lieu d'un terme spécifique. Cette confusion dans l'emploi des termes appartenant à un même champ sémantique, peut engendrer une impropriété dans le sens des mots. Une élève a bien dit :

*je suis une étudiante au lycée (à la place d'élève).

parfois même sur l'expression orale des élèves apprenant une langue étrangère. *« Selon la grille du B.E.L.C., il s'agit de rétablir ce que l'élève aurait dû dire ou écrire dans un contexte précis, et non pas de supposer ce qu'il voulait dire ou aurait pu dire. La faute est un écart par rapport à la réalisation attendue de la norme dans un contexte donné »* (PORQUIER, 1977 : 25).

I.1. Les erreurs liées à la langue première

Une partie d'écarts lexicaux est imputable à l'influence de la langue de départ (composée du kabyle, langue maternelle et de l'arabe, langue de base) sur la langue française. Lorsque les élèves sont confrontés à des difficultés de communication, ils n'hésitent pas à recourir à leur langue première. « *L'élève transpose des formes et des structures de sa propre langue dans la langue étrangère parce qu'il n'est pas encore familiarisé avec les habitudes linguistiques étrangères »* (EL KORSO, 1985, P.4). J'ai pu distinguer trois catégories d'erreurs liées à la langue première : insertion de termes ou d'expressions, la translittération et le pérégrénisme.

Tout d'abord, l'insertion de termes ou d'expressions d'un côté, du kabyle (langue maternelle de nos apprenants) :

*les louzines qui transportent le pétrole (pour usine).

De l'autre, de l'arabe (langue de base, de l'école) :

*on mesure le séisme au sellame Richter (à la place de : avec l'échelle).

Dans ces deux cas, les élèves tentent de maintenir le contact avec l'interlocuteur et gérer la communication, en incluant dans une expression purement française un mot kabyle dans le premier exemple et un mot arabe dans le deuxième exemple.

Une autre catégorie d'erreurs relative à la langue de départ employée par les élèves est la translittération. Cette dernière correspond à une traduction littérale d'un mot de la langue maternelle et de base. Pour son vouloir dire, l'élève recourt à n'importe quel procédé, l'essentiel qu'il compense son manque lexical :

erreurs, loin d'être vécue comme un échec, contribue à une pédagogie du progrès ».

C'est en lisant un nombre consistant d'expressions écrites d'élèves du secondaire, que j'ai établi un constat largement partagé attestant que ces élèves semblent être de moins en moins à mêmes de s'exprimer correctement à l'écrit dans la langue seconde qui est le français. En fait, l'un de leur souci majeur se trouve lié au lexique. Ce qui me pousse, d'ailleurs, à m'interroger sur les causes possibles de ces difficultés d'ordre lexical et aux perspectives de remédiations possibles.

Dans le but de développer une analyse des erreurs au niveau du vocabulaire, j'ai retenu un échantillon de 80 élèves (54 filles, 46 garçons) d'un lycée régional de Tizi-Ouzou, (en suivant les méthodes d'échantillonnage de Rodolphe GHIGLIONE et de Benjamin MATALON, 1978). Ce qui m'a permis d'identifier, de corriger, de décrire, d'expliquer et de mieux comprendre les causes principales de ces écarts lexicaux que font les apprenants lors de leur contact avec la langue seconde (le français) à l'écrit.

L'approche que j'ai adoptée, de ce fait, dans mon étude est contrastive. Je me suis intéressée à la fois à une analyse contrastive entre la langue de départ (composée du kabyle langue maternelle, et de l'arabe langue de base) et la lange seconde (interlangue : influence de la langue de départ sur la langue seconde), ainsi qu'à une analyse d'erreurs intralinguales (difficultés rencontrées dans la langue seconde elle-même).

I. Sources du problème

Pour parvenir à connaître la source des erreurs, j'ai d'abord procédé à leur relevé et à leur classement dans les écrits des élèves du secondaire puis j'ai tenté de les analyser, en tenant à suivre les méthodes d'analyses contrastives et de l'analyses des erreurs, conçues initialement par le B.E.L.C. en 1967. Ces dernières sont utilisées pour de nombreuses analyses des erreurs sur des productions écrites et

Le vocabulaire français dans une classe de langue kabylophone problèmes et perspectives

Siham Saïl
Université Mouloud Mammeri, Tizi-Ouzou

Bon nombre de ceux que préoccupe la question du vocabulaire, lors de l'acquisition et l'apprentissage des langues notamment étrangères sachant que ce vocabulaire comme un sous-ensemble du lexique d'une langue (LEHMANN et MARTIN-BERTHET, 1998), joue un rôle fondamental dans la maîtrise et l'apprentissage de celle-ci, que soit à l'oral ou à l'écrit. Dans cette optique, le mot comme le fait remarquer Robert GALISSON (1983) est considéré comme un véritable convoyeur de sens. Il permet de véhiculer l'information, de transmettre le message et donc d'assurer la communication. Cela se fait sur la base d'une grammaire, qui elle-même est basée sur des combinaisons infinies de mots. Par conséquent, le vocabulaire est situé au centre de toutes les disciplines linguistiques, en l'occurrence la sémantique, la syntaxe, la phonologie et la morphologie.

A vrai dire, tous ceux qui sont impliqués par la question de l'apprentissage d'une langue, qu'ils soient didacticiens ou linguistes admettent aujourd'hui que les mots sont les pivots de la langue autour desquels s'organisent toutes les données phonémiques morphologiques, syntaxiques et sémantiques qui conditionnent leurs insertions dans le discours (TREVILLE et DUQUETTE, 1996). En revanche, la faiblesse dans la langue y compris dans le vocabulaire comme le constatait à ce sujet Fayçal NAJAB (2004), peut nuire à la communication, à la conceptualisation d'un savoir nouveau, et surtout à l'apprentissage des langues, même si les pédagogies actuelles semblent dédramatiser l'erreur comme le témoignait dans ce sens Pierre MARTINEZ (1996 : 95), « *la correction des fautes ou des*